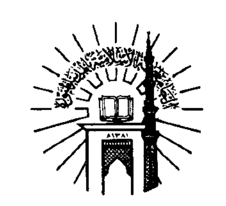
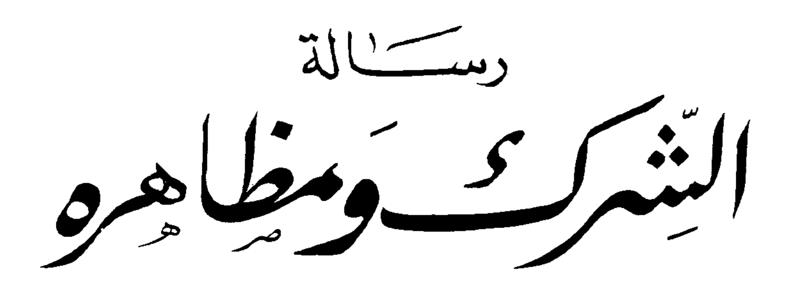


المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
مركز شئون الدعوة
٨٥

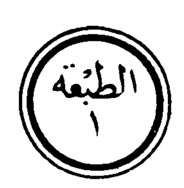


رسالة



تأليف
مبارك بن محمد الميلي
أمين مال
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

١٤٠٧هـ



بسم الله الرحمن الرحیم



تقرير جمعية العلماء للرسالة

بقلم كاتبها العام العالم العامل الثقة الحجة النظار
الأستاذ الشيخ العربى بن بلقاسم التبسي

مدير مدرسة تهذيب البنين بتبسة

قال حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الإداري لجمعيـة العلماء يقـر ر أن ما اشتملت عليه «رسالة الشرك ومظـاهـره» لمؤلفهـا الأستـاذ مبارك الميلي هو عين السنة ، وأن هذه الرسالة تعدّ من الكتب المؤلفة في نشر السنة ورد البدع .

الحمـد لله الـذى أرسـل رسوله بالهدى ودين الحق . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المجعول اتباعه دليلاً على محبة المتبع لربه وعلى آله الأخيار وأصحابه الذين بلغوا عنه ـ امتثالاً لقوله بلغوا عنى ، بلغوا عنى ـ أقواله وأعماله وأخلاقه .

أما بعد : فإن الدعوة الإصلاحية التى يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي فى العـالم الإسـلامي عامـة وتقـوم بها «جمعيـة العلماء» فى القطـر الجـزائـري خاصة ، تتلخص فى دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم والسير على منهـاج سلفهم الصـالـح فى أخـلاقهم وعبـاداتهم القـوليـة والاعتقادية والعملية ، وتطبيق ما هم عليـه اليـوم من عقـائـد وأعمال وآداب على ما كان فى عهد السلف الصالح . فما وافقه عددناه من دين الله فعملنا به واعتبرنا القائم به قائماً بدين الله . ومـا لم يكن معـروفـاً فى عهـد الصحـابة عددناه ليس من دين الله . ولا علينا فيمن أحدثه أو عمل به . فالدين حجة على كل أحد . وليس عمل أحد حجة على الدين .

ولا تفتأ «جمعية العلماء» داعية إلى ما أمر الله أن يدعى إليه من دينه ومن اتباع نبيه وإحياء سننه وإماتة ما أحدثه المحدثون، تدريساً وكتابة فى الصحف ومذاكرة فى كل مجلس حسن فيه الكلام عن نشر السنن حتى عمت دعوة جمعية العلماء وبلغ صوتها إلى المستجيب وغير المستجيب وأصبحت دعوتها معروفة فى القطر كله ولها أنصار ودعاة .

وقد لاقت دعوتها فى المجتمعات الإسلامية أكبر نجاح ونالت أبهر فوز إذ يستطيع العارف بالأمة الجزائرية أن يعد أكبر عدد منها هم الآن من أنصار «جمعية العلماء» ومن المنتمين إليها والمتبرئين من أعدائها، بل نستطيع أن نقول ولا نخشى مفنداً انه لم يرفض دعوة الجمعية إلا طوائف معلومة فى الجزائر يضر بها العمل بالدين الحق، ويهد بنيانها القائم على أساس العوائد التى ظهرت فى المسلمين فى العصور التى بلى فيها العالم الإسلامي بزعماء جهلاء اغتصبوا هذه الزعامة من غير كفاءة علمية ولا هداية إسلامية .

وإذ بلغت هذه الدعوة الصالحة وانتشرت وقبلها المسلمون وعدوها نعمة من الله عليهم كان تأليف رسالة جامعة لأهم النقط التى يدخل منها ليل البدع على نور السنن من أوجب الواجبات على حملة السنن وعلى أعضاء «جمعية العلماء» إذ دعاة الإصلاح اليوم فى حاجة ماسة إلى رسالة فى هذا الموضوع جامعة لأدلة هذه المسائل ناقلة للآيات أو الأحاديث فى كل نقطة من النقط التى تتناولها الرسالة المقترحة المرغوب فى تأليفها، لتكون حجة للمستيقنين وهداية للمسترشدين، وسيفاً مصلتاً على أعداء السنن المعروفين فى الجزائر من المتعيشين بهذه البدع والعوائد الضالة .

فنهض إلى القيام بهذا الفرض الكفائي الأستاذ المحقق مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي أمين مال «جمعية العلماء» وجمع رسالة تحت عنوان «رسالة الشرك ومظاهره» خدم بها الإسلام ونصر بها السنة وقاوم بها العوائد الضالة والخرافات المفسدة للعقول .

وعـرض هذه الـرسـالـة على مجلس إدارة الجمعيـة ، فتصفحها واستقصى مسائلها ، فإذا هى رسالة تعد فى أوليات الرسائل أو الكتب المؤلفة فى نصر السنن وإمـاتـة البـدع تقـر بها عين السنة والسنيين ، وينشرح لها صدور المؤمنين وتكون نكبـة على أولئـك الغـاشـين للإسـلام والمسلمـين من جهلة المسلمـين ومن أحمرة المستعمـرين الـذين يجدون من هذه البـدع أكـبر عون لهم على استعبـاد الأمم ، فيتخـذون هذه البـدع التى ينسبها البدعيون إلى الدين الإسلامي مخدراً يخدرون بها عقول الجماهير . وإذا تخدرت العقول وأصبحت تروج الأوهام وجدت الأجواء التى يرجـوهـا غلاة المستعمـرين للأمم المصـابة برؤساء دينيين أو دنيويين يغشون أممهم ويتاجرون فيها .

وان المجلس الإداري لجمعيـــة العلماء يقــرر بإجمـــاع أعضـائـه أحقيـة ما اشتملت عليـه هذه الـرسـالـة العلميـة المفيدة ويوافق مؤلفها على ما فيها ويدعو المسلمـين إلى دراستهـا والعمـل بما فيهـا فإنه العمل بالدين . والله وحده يضاعف للمحسنين إحسانهم . والحمد لله رب العالمين . . .

العربى بن بلقاسم التبسي
الكاتب العام لجمعية العلماء

كلمة في الرســـالة

نسج

حسـان الـدعـوة الإصـلاحية وكميت الفرقة الناجية شاعر «الجزائر الفتاة»
مدير مدرسة الشبيبة بالجزائر الأستاذ محمد العيد آل خليفة

شرع الالــه الــديــن للاتــبــاعِ ... ودعــا إلــيــه الخـلق بالإقـنــاع
فإلــيــه بادر بالــرجــوع ملبــيــاً ... قبــل الـقضــاء عليـك بالإرجــاع
ولــه تضــرع راغــبــا أو راهــبــا ... فهــو الحفيــظ عليـك وهـو الـراعي
الله عز وجــل ربــك فادعــه ... فهــو المجـيـب لكـل عبـد داعـي
وعليــه فى كل الــرغــائب فاعتمــد ... لا تعــتــمــد أبــداً على الإشـفــاع
سبـحــانــه جلى الـفســاد بنـوره ... وأمــد منــه الـكــون بالإشــعــاع
المـلك والمـلكـوت قامـا باسمـه ... وتـســامـيــا فى الـنظـم والأوضــاع
وحــده فى ذات وفي وصــف وفي ... فعـل وفي خلق وفي إبــداع

* * * * *

واحــذر شراك الـشــرك فهى كثـيرة ... شتــى المظــاهــر جمة الأنــواع
كم واقــع فيــهــا ويحــســب أنــه ... فى الــديـن حر العقــد رحب البــاع
الــشــرك داء في الــبـريــة كامــن ... مســتــفـحــل الأضــرار والأوجــاع
الشــرك ستر حيـك من نسج الهـوى ... غطــى على الأبــصــار والأسـماع

* * * * *

فاقـبس من الـتــوحيــد أعظم جذوة ... وتمش تحت ضيــائــهــا الـلماع
ياعــبــد ثق بالله يكــفــك وحــده ... ياعــبــد سله يجبـك بالإســراع

واصـــبر ببـــاب الله نفســـك ضارعـــاً   يفـتـحــه مصـــراعـــاً على مصـــراع
وإليــه بالطــاعــات كن متــوســلاً   لا بالمــنــى وكــواذب الأطــماع
وبــآيــه المــثــلى فكـن متـهـجـدا   لا بالأغــانــي الـعـذبـة الإيـقــاع

* * * * *

ياأمـــة جهــلت حقــيــقــة دينهــا   فتــفــرقــت فيــهــا إلى أشــيــاع
العـــاصف الـــزعـــزاع من أهـــوائها   يشــتـــد إثـــر العـــاصف الـــزعـــزاع
في الـقــاع ماء كيـف شئـت مبــارك   فرديــه واطــرحــي سراب الـــقـــاع
هذا الأخ (المـــيـــلي) فيـــك مثـــوب   لله الـــذكـــرى. فهـــل من واع
يجلو وجـــوه الـشـــرك وهـــي خفـيـــة   للنـــاس شأن الـــعـــالم الـــنـفـــاع

* * * * *

الـــيـــوم من أفـــكـــاره تجـنـــين ما   تجـنـــين من علـم ومـــن إمـــتـــاع
فأوي من الـــتـــوحـيـــد خلداً طيـبـــاً   وتـــنـــشـــقي من عرفـــه الـضـــواع
ودعي الفـــدام المــارقــين عن الهـدى   الخــارقـــين حظـــيرة الإجمـــاع
وعـلى الـســلوك المســتـقيم فقـــومي   عاداتـــك المــعـــوجـــة الأضـــلاع
ولعـــل جهلك واقتحـــامـــك للردى   وهـــواك قد آذن بالإقـــلاع
فترقـبـي حسن المثـــابـــة في الـــورى   وارجي شيـــوع الـذكـــر في الأصقـــاع
واحـيـــي وحـيـي بالـــرضـى مستـقبـــلاً   كالـــروض خصبـــاً كامـــل الامـــراع

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الـذل والله أكـبر . قضى أن لا يعبـد خلقه إلا إياه وهو أحكم الحاكمين. أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟

والصـلاة والسـلام على من نودي ﴿**ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكـبر وثيـابـك فطهّر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر**﴾ . فصـدع بالأمـر واحتمـل فى سبيـل الـدعوة كل أذى مر حتى أدى الأمانة تركها محجة بيضاء ليلها كنهارها .

ورضي الله عن آلـه وأصحـابه ﴿**الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ . وعن تابعيهم من العلماء العـاملين أوليـاء الله الصالحين الذين ورثوا علم الـدين عن الأنبيـاء المرسلين ودعوا إليه مهتدين من غير أن يكونوا للأجر من السائلين .

تمثيل حال الشـــرك :

أمـا بعـد : فإن حق الله على عبـاده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً وان نسبة الشرك من التوحيد نسبة الليل من النهار والعمى من الأبصار. يعرض للأمم الموحدة كما يعرض الظلام للضياء. ويطرأ عليها كما تطرأ الأسقـام على الأجسـام. غير أن الظـلام باعث لنـوم الأبصـار لإفـادة الراحة للأشباح. أما الشرك فعلة لنوم البصائر الموجب لشقاء الأرواح. وإذا كان حفــظ الصحـة بالغـذاء والـدواء فإن حفـظ التـوحيـد بالعلم والدعوة. ولا يحفظ التوحيد علم كعلم الكتاب والسنة، ولا تجلي الشرك دعوة كالدعوة بأسلوبهما .

أثر إهمال الدعوة بالكتاب والسنة :

وقد مرت أعصر أهمل جل العلماء فيها شأن الدعوة أو حادوا فيها عن أسلوب القرآن والحديث، فجهل جمهور المسلمين عقائد الإسلام أو خفى عليهم ما ينافيها وطال عليهم الأمد. فطرأ عليهم ما طرأ على الأمم قبلهم من عقائد زائفة وبدع سائدة حتى ظنوا الإسلام جنسية تتمشى مع الأنساب لا أنه عقائد وآداب تنال بالتلقين والاكتساب. فإن من الله عليهم بمن يتلو عليهم الكتاب ويعظمهم بآياته كانوا أشبه حالاً بالذين وصفهم الله بقوله : ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾ بل كم سطوا وبفسادهم اغتبطوا .

حياطة الدين وحفظه :

أفضت أمة خاتم النبيين إلى ما أفضت إليه أمم الأنبياء الأولين. فكانوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون، وكاد دين الإسلام يعتريه ما اعترى الأديان قبله. فتطغى بدع أهله على سننه وتغشاها لولا ما خص الله به هذا الدين من حفظه بحفظ كتابه، وبقيام علماء ربانيين على تبليغه. قال تعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. وقال ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون». أخرجه الشيخان وفسر البخارى هذه الطائفة بأهل العلم، وقال أيضاً : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». رواه أبو داود والطبرانى فى الأوسط وصححه الحاكم واعتمده الأئمة .

صفات المجـــــددين :

وإن من المجددين فى عصرنا الظاهرين على الحق بمغربنا رجالاً حباهم الله بمضاء ذكاء قطعوا به قيود الجمود وأنعم عليهم بعزائم ثابتة زلزلوا بها راسيات الخرافات، وميزهم بهمم عالية فضحت أطماع المتزهدين. فسيماهم علم فى مضاء ذكاء، وعمل فى ثبات عزيمة، وسيرة فى علو همة .

رأس المائة الحاضرة لتجديد الدين :

تلك صفات رجال الإصلاح الدينى بوطن الجزائر التى ظهروا بها في ميدان الدعوة بالكتاب والسنة إلى الكتاب والسنة منذ سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف. وهى من أوائل المائة الرابعة عشرة بعد عصرى النبوة والخلافة .

أصناف المعارضين للتجديد :

وعلى تلك الصفات الثلاث تكسرت نبال الأذى، ونبت شباه الشتيمة، وفل سلاح المعارضة من رؤ ساء في الدين جهال به، يزهدون الاتباع ويحرصون على الابتلاع، ومن شيعة لهم طامعة فى دينارهم أو مغرورة بدثارهم، ومن سادة لهم هم المعمرون الذين يشبهونهم فى شرب عرق الخدامين .

بعض آثار التجـديد :

وتحت لواء تلك الصفات اجتمع كل نقى اللب تقى القلب. فكانت قوة اتحاد إلى قوة الحق والاعراب عنه حققت شيئاً من الآمال

وقضت على أنـواع من الضـلال . وتجلت تلك القـوة فى تأسيس «جمعية العلماء المسلمـين الجـزائـريـين» والمحـافظـة عليها وتخليصها من عناصر الدجل والضعف .

جمعية العلمـــــاء :

تشكلت الجمعية سنة خمسين فبثت الوعاظ فى الجهات، وأنشأت الصحف الصـادقـة اللهجـات، وصبرت على ما تلاقيه من صدمات. وهـاهى ذى في سنـة خمس وخمسـين تخاطب الضـمائر بصحيفتها الحديثة المسماة «البصائر» .

إنشاء الرسالة والباعث عليه :

وبهـذه الصحيفـة نشـرنـا سلسلة مقـالات فى موضـوع «الشـرك ومظـاهـره» ومـا برزت من تلك السلسلة حلقات حتى أخذت الرغبات من مختلف الطبقـات فى عدة جهـات تتـوارد على تجريـد تلك المقـالات وجمعهـا فى رسـالة خاصة. فاستصوبنا اقتراح الراغبين وأمسكنا عن قراء «البصـائـر» ما بقى من حلقـات السلسلة وأعلنـا بها استعـدادنـا لتنفيذ مقـترحهم. ثم رجعنـا إلى ما كتب بالتهـذيب والتبويب وتنقيح عبارات للتقـريب وتغيـير فى الترتيب. وأضفنا إليه بعض الفصول، فجاءت فى شكل غير ما ظهرت به من قبل .

وصف الرســـــالة :

وقـد تحرينـا فيـما تخيرنـا من أطـراف هذا المـوضوع وطرق عرضه والإبانة عنه ما رأينا حاجة شعبنا إليه أقوى، وأسلوب العصر له أدعى . فكـل أمـة وحـاجتها وكل عصر وعرضه. ولم أحتذ فيما كتبت إلا ما تخيله فكـري ولم انسـج فيـما جمعت على منـوال غيري إذ لم أقف على كتـاب

مجمـوع على النسق الـذى أردتـه فى الموضوع . إلا أنى بعد كتابة فصول اهدي إلي كتاب «صيانة الإنسان» فإذا فيه نبذة منقولة من كتاب «تطهير الاعتقـاد من أدران الإلحـاد» لمحمـد بن إسـماعيل الصنعانى أحد علماء القرن الثانى عشر. وفيه أيضاً طائفة من كتاب «الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد» لمحمد بن على الشوكانى فألفيتهما في موضوع رسالتى ، ولكن لم استعن بهما فى تحريـر مقـالتي إذ لم تحوهما خزانتي ولا رأيتهـما عنـد أهـل صداقتي وبعـد تمام التأليف وقبل الشروع في الطبع اتصلت بهدية من جدة من الأخ فى الله السيـد محمـد نصيف تشتمـل على كتاب «فتح المجيـد بشـرح كتـاب التـوحيـد» لابن عبـد الـوهاب فعلقت منه فوائد الحقتها بمواضعها معزوة إليه . ولو اطلعت عليه قبل كتابة الرسالة لخفف علي من عناء ابتكار العناوين وتنسيقها . فهذه رسالة فى موضوع بور على اسلوب من عنـدي بكـر. ولعل ذلك من ابين العذر وأوجب الصفح عما يكـون بها من خلل وضعف على أن النقص لا يسلم منـه كلام إلا أن يكـون وحيـاً . فلا ينتظـر مني ما فوق منـة الكتاب وحسبنا محاولة الإتقان والله المستعان .

(١)
الحاجة إلى معرفة الشرك ومظاهره

مطالب الإنسان في الحيـاة :

الإنسـان جسم وروح . وهـو بجسمـه ظلمانى من عالم الشهـادة يميل إلى كل ما هو جسمانى من عالم المادة مثل وسائل الكسب والنسل . وهو بروحه نورانى من عالم الغيب يطلب ما هو روحانى معقول من علم ودين . فالإنسـان بجسمـه يهوى دنيا وعادة ، وبروحه يحب ديناً وعبادة . وحظـه من الكمـال على مقيـاس تأليفه بين جزأيه المتضادين وتوفيقه بين مطـالبهـا المختلفـة . وفى الكتـاب العـزيز : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾ . وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسـول الله ﷺ قال : «ليس بخـيركم من ترك دنيـاه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كلاً على النـاس . . . » رواه الـديلمى والخطيب وابن عساكر فى تاريخهما كما فى الحاوي للسيوطي (٢ : ٢٠٢) وكشف الخفاء للعجلوني (٢ : ١٦٩) .

مفاسد التفريط والإفراط فى مطالب الحياة :

وانقطـاع الإنسـان إلى مطـالب روحـه إضـرار بإنسـانيته يفقدها التفـريـط القـوة التى تحفـظ لها سيـادتها على ما حولها ، ويعدمها النسل الـذي به بقـاء نوعهـا ، وممـا صح معنـاه وإن لم تصح نسبته إلى الرسول ﷺ : «لا رهبانية فى الإسلام» وعن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «ان لكـل أمـة رهبـانيـة ورهبـانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله»

أخـرجـه أحمد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وأبويعلى والبيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور للسيوطي (٦ : ١٧٨) .

واكتفـاء المـرء بمـراغب جسمـه يذهب ميـزة إنسـانيتـه عن بقية الحيـوانـات ويلحقها بالبهائم والعجماوات بل يضعها دون مرتبة الأنعام كما قال تعالى : ﴿**أرأيت من اتخذ إلهَهُ هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾ .

ميل الإنسـان إلى المادة والشرك :

على أن الانقطـاع لخدمـة الـروح والإفـراط فى التعبـد مما يقـل عروضـه للإنسـان . والـذى يغلب عليـه هوما يتفق وجسـمانيته مما يناله الحس ويحـويـه عالم الشهادة . فتجد أكثر الناس فاقداً للعلم الذى يصل روحـه بعـالم الغيب . ومن فاتـه ذلـك العلم فإما أن ينكر الدين والعبادة فيكون دهرياً وإما أن يمثل معبوده فى صور مادية حسية يخضع لها روحه فيكـون مشـركـاً كما قال تعـالى : ﴿**ومـا يؤمن أكثـرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ . وروى أحمد عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ خطبهم ذات يوم فقـال : «يأيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقال له من شاء ان يقول : كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله ؟ قال : قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشـرك بك شيئـاً نعلمـه ونستغفـرك لما لا نعلمـه» . نقله ابن كثير فى تفسـيره وذكـر معـه روايات أخر فى معناه (٤ : ٤٨٦) وسترى ـ إن شاء الله ـ مصـداق ميـل الإنسان إلى المادة والشرك فى الفصول التى نعرض فيهـا لعـروض الشـرك فى الأمم . فحكم الطبيعة يغري بالشرك . ونص

الشريعة يدعو إلى مزيد التيقظ فى التحفظ منه . وتاريخ الأديان يكشف عما فى ذلك من تسويل الشيطان وخدع النفس .

واجب المرشد والمسترشد :

لعلك لا تجد فى عيوب النفس ونقائص الإنسان ما يضاهى الشرك في اقتضاء طبع المتدين له وخفاء مساربه إلى نفسه ودفاع المتأولين عنه . فكان لزاماً على من يهتم لسعادته فى الدار الباقية أن يعترف بحاجته الشديدة إلى معرفة الشرك ومظاهره وأن يعتنى كل الاعتناء بالبحث عن كل ذريعة إلى هذا الداء ليتقيه أيما اتقاء فلا يسرى إلى جنابه ولا يعلق بلسانه ولا يظهر على شيء من أركانه . وكان من آيات المرشد النصوح وأخص مظاهر نصحه أن يجعل أولى ما يتقدم به إلى العامة وأول ما يقرع به أسماعهم التحذير من الشرك ومظاهره وبيان مدلوله وأنواعه ثم الصبر على ما يلحقه لذلك من أذى جاهل متحمس ومغرض متعصب وضال متأول .

أول ما يدعو إليه المرسلون :

إن القرآن العظيم يقص علينا فى جلاء ووضوح أن أول ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ هو توحيد الله ، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره . وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيين ﷺ فعنيت بالدعوة إلى التوحيد والتحرز من الشرك والتحذير منه ، وما ذلك إلا لشدة الحاجة إلى معرفته ، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة فى الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين .

عناية الكتاب بعلاج الشـرك :

هذا الكتـاب العـزيز فاقرأ وتدبر تجد السور مكيها ومدنيها تفيض القول فى حديث المشركين الغابرين والمعاصرين . ولا تكاد تخلو سورة من هذا الحـديث ، ولا تكـاد تجد غيره فى سور كثـيرة . وأول ما نزل الآيات الخمس الأول من سورة العلق . فلم تخل من الإشـارة إلى التـوحيـد والتعـريض بالـوثنيـة للأمـر فيهـا بالقراءة باسم الرب والتذكير بنعمه فى الخلق والتعليم . وآخـر ما نزل آيـة المـائـدة فى إكـمال الدين فسدت باب الابتداع . ومن أسلوبه الحكيم جمعه فى دعوته بين بيان التوحيد ومزاياه ، وإيضاح الشرك ودناياه وبضدها تتميز الأشياء .

عنايـة البعثـة بمحاربـة الشــرك :

وهـذه أطـوار البعثـة من حين الأمر بالإنذار المطلق فى سورة المدثر إلى الأمـر بإنـذار العشـيرة إلى الأمر بالصدع بالدعوة إلى الأمر بالهجرة إلى الإذن بالقتال إلى فتح مكة إلى الإعلام بدنو الحمام لم تخل من إعلان إعلان التوحيد وشواهده ومحاربة الشرك ومظاهره . ويكاد ينحصر غرض البعثـة أولاً فى ذلـك . فلا ترك النبي ﷺ التنـديد بالأصنام وهو وحيد ولا ذهـل عنـه وهـو محصـور بالشعب ثلاث سنـوات شديدات ولا نسيه وهو مختف فى هجـرتـه والعـدو مشتد فى طلبه ولا قطع الحديث عنه وهو ظاهر بمدينته بين أنصاره ولا غلق باب الخوض فيه بعد فتح مكة ولا شغل عنه وهو يجاهد وينتصر ويكر ولا يفر ولا اكتفى بطلب البيعة على القتال عن تكـريـر عرض البيعـة على التـوحيـد ونبـذ الشـرك وهـذه سيرته المدونة وأحاديثه المصححة فتتبعها تجد تصديق ما ادعينا وتفصيل ما أجملنا .

حكمة مشروعية العبادات :

وهذه أركان الإسلام الخمسة إنما شرعت كسائر العبادات للاحتفاظ بالتوحيد والابتعاد عن الوثنية . فلم يكتف فى الشهادتين بالتوحيد المجرد حتى صرح بنفى التعدد وحصر التشريع فى شخص المرسل بالتبليغ . ولم يقتصر فى الصلاة على افتتاحها بالتكبير الذى فيه تعريض باطراح الأوثان حتى خللت به وكرر فيها مخاطبة رب العالمين بإياك نعبد وإياك نستعين وزكاة المرء شعار غناه ودليل اعترافه للرب بجليل نعماه ، وأنه لا دخل فيها للأصنام وكل ما سواه . والصوم يذر فيه الصائم شهوته وطعامه وشرابه من أجل مولاه ويراقبه ـ وهو صائم ولو انفرد بمحل سكناه . والحج فاتحته الإحرام المصحوب بالتلبية المتكررة فى كل حال وهى صريحة فى حياطة التوحيد بنكران الشريك . قال أبو إسحاق الشاطبي فى الموافقات : «نحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله والرجوع إليه وإفراده بالتعظيم والإجلال ومطابقة القلب للجوارح فى الطاعة والانقياد» . (٢ : ٣٨٥) .

التعجب من إهمال الكلام فى الشرك :

وإن لم يكن بعقلك بأس فستسلم معي شدة عناية بعثة خاتم النبيين ببيان الشرك وعدم الاكتفاء بشرح التوحيد ، وستعجب معي من قلة اهتمام علمائنا بذلك كأن لا حاجة بالمسلمين إليه . تجد فى كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة أو لا توجد عادة ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول فيحددون الشرك ويفصلون أنواعه ويعددون مظاهره حتى يرسخ فى نفوس العامة الحذر منه والابتعاد من وسائله ولا يفقد المتأخر نص من قبله فى جزئية من ذلك .

نتيجة إهمال الكلام فى الشـــرك :

نتــج عن قلة الخـوض فى هذا المـوضـوع أن صار الشـرك أخفى المعـاصى معنى ، وإن كان أجـلاهـا حكـماً . فلظهـور حكمـه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرؤ ون منه ويغضبون كل الغضب إن نسبـوا إليـه . ولخفـاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهـم لا يشعرون ثم وجـدوا من أدعيـاء العلم من يسمى لهم عقـائـد الشـرك وأعـماله بأسماء تدخـل فى عقـائد الإسلام وأعمالـه ثم يدافع عنهم ويحشرهم فى زمرة أهل السنة ، ويشنع على العلماء الناصحين حتى إنه ليخيل إليك أن العامى الـواقـع فى حمأة الشـرك جهـلاً واغتراراً أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق .

الجمـود على المنطق اليوناني :

وعني علماء الكلام ببيان عقائد الإسلام وسلكوا فى التدليل عليها سبيـل المنطق اليـوناني ثم جمد المتأخرون على هذا الأسلوب وحادوا عن بيان القرآن فخفي على الناس ما هو شرك أو سبب إليه . وقد قال الشيخ السنـوسي فى شرح صغـراه معللاً وجه ذكر الصفات الواجبة والمستحيلة على التفصيل ما نصه :

«لأنـه لو استغنى فيهـا بالعـام عن الخـاص وبـالملزوم عن اللازم لكـان ذلـك ذريعـة إلى جهـل كثـير منهـا لخفـاء اللوازم وعسـر إدخـال الجـزئيـات تحت كليـاتهـا . وخطـر الجهـل فى هذا العلم عظيم . فينبغى الاعتناء فيه بمزيد الإيضاح على قدر الإمكان والاحتياط البليغ لتحلية القلوب بيواقيت الإيمان» .

ذم إيثـــار المنطـق :

وقـد نكـر العلماء الفحول إيثار أساليب اليونان على بيان القرآن، ولكن شيوع التقليد وذيوع الجمود أضاعا حجتهم وبرهانهم. فقد ألف محمـد بن إبـراهيم الصنعـاني من أيمة القرن التاسع رسالة سماها ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان وقال الحافظ فى الفتح :

«وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة فى غالب الأمور التى أنكـرهـا أيمـة التـابعـين وأتبـاعهم. ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفـه من الآثـار بالتأويـل، ولـو كان مستكرها ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعمـوا أن الـذين رتبـوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وان من لم يستعمـل ما اصطلحـوا عليـه فهـو عامي جاهل. فالسعيد من تمسك بما كان عليــه السلف واجتنب ما أحــدثـه الخلف. وان لم يكن له منـه بد فليكتف منه بقدر الحاجة ويجعل الأول المقصود بالاصالة والله الموفق». (١٣ : ٢١٤).

وفى الفتـاوى الحديثية للهيتمي المكى «يتعين على الولاة منع من يشهر علم الكلام بين العامة لقصور افهامهم عنه، ولأنه يؤدى بهم إلى الـزيـغ والضـلال، وأمـر الناس بفهم الأدلة على ما نطق به القرآن ونبه عليه إذ هو بين واضح يدرك ببداهة العقل». (ص١٤٦).

الترخيص فى علم الكلام للضــرورة :

وفى تبيـين كذب المفـترى لابن عساكر عن أبى يوسف أنه قال : «من طلب الدين بالكلام تزندق». ثم نقل عن أبي بكر البيهقي قوله : «وروى هذا أيضاً عن مالك بن أنس. وإنما يريد ـ والله أعلم ـ بالكلام

كلام أهـل البـدع، فإن فى عصرهما إنما كان يعرف بالكلام أهل البدع، فأما أهل السنة فقلما كانوا يخوضون فى الكلام حتى اضطروا إليه بعد». (ص٣٣٤)، وقال أيضاً صاحب التبيين : «وكانوا فى القديم إنما يعرفون بالكـلام أهـل الأهـواء. فأما أهل السنة والجماعة فمعولهم فيما يعتقدون الكتاب والسنة». (ص٣٤٥).

تعميم أسلوب القرآن وتخصيص أسلوب اليونان :

ويـاليتنـا تركنـا كتب المتكلمـين للخاصة يستعينون بها فى مواطن الجـدال مع الخصـوم، ووضعنـا للعـامـة كتبـاً فى العقـائد على أسلوب الكتـاب المجيـد. فيكـون من تلك ريـاضة للعقول وحماية للحق، ومن هذه طهـارة للقلوب وهـداية للخير، وليس كل الناس بحاجة إلى تلك الـريـاضـة، ولا لهم قدرة على تلك الحـماية، ولكن كلهم فى حاجة إلى تطهـير البـواطن ومعـرفـة الهـدى، فعمت الحـاجـة إلى معـرفـة الشرك ومظاهره، ولهذا عرف جميع الأنبياء بحكم الشرك. قال تعالى : ﴿**ولقد أوحـي إلـيـك وإلـى الـذين من قبلك لئن أشـركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**﴾ .

(٢)
الغرض من بيان الشرك ومظاهره

تحسين بيان الشرك :

إذا كان الاحتياج إلى معرفة الشرك شديداً كان تعريف الناس به أمراً لازماً أكيداً. وإذا كان الباعث على هذا التعريف إقامة العقيدة فهو من النصيحة المفيدة الحميدة. وليس الإرشاد إلى الخير النافع بأولى من التنبيه على الباطل الضار، بل كلاهما غرض حسن وسنن لا يعدل عنه الساعون فى خير سنن. وهذا ما حمل المصلحين المجددين على الاهتمام بدعوة المسلمين إلى إقامة التوحيد وتخليصه من خيالات المشركين .

تشنيع المشاغبين :

وما رفعنا صوتنا بتلك الدعوة حتى صارت علينا زوابع ممن سلكوا للشرك كل الذرائع وشوهوا للعامة غرضنا الحميد بما يجدون الجزاء عنه يوم الوعيد. ومن أقوى ما لبسوا به على العموم ومدوا به صخب الخصوم، رميهم لنا بأنا نحكم على المسلمين بحكم المشركين، ثم ينتصبون للدفاع محافظة على غفلة الاتباع الذين ينتفعون منهم بكل وجوه الانتفاع، ولكن قذف الله بالحق على الباطل بعيد الأثر، وسنته فى ظهور المصلحين على المعاندين قديمة فى البشر .

بيان تكفير مدعي الإسلام :

نحن لا نكفر أحداً من أهل القبلة ونقول فى غير تعيين أنه يوجد فى المسلمين من يضاهون فى عقائدهم المشركين. قال أبو جعفر

الطحاوي الحنفى المعاصر لأبى الحسن الأشعرى فى عقيدته السلفية ما نصه : «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين، ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله». وفى تبيين ابن عساكر عن أبى على السرخسي أنه قال : «لما قرب حضور أجل أبى الحسن الأشعرى رحمه الله فى داري ببغداد دعاني فأتيته فقال : اشهد علي أني لا أكفر أحداً من أهل هذه القبلة». (ص١٤٩)، وقال التقى السبكى فى رسالة الاعتبار ببقاء الجنة والنار راداً على التقى ابن تيمية ومشيراً إليه : «فهذا القول الذى قاله هذا الرجل ما نعرف أحداً قاله، وهو خروج عن الإسلام بمقتضى العلم إجمالاً، ولا أكفر أحداً معيناً من أهل القبلة بلساني ولا بقلبي ولا بقلمي الا أن يعتقد مشاقة الرسول ﷺ فهذا ضابط التكفير عندى». (ص٧٧) وعن سوار بن شبيب قال : «كنت عند ابن عمر - رضى الله عنهما - إذ أتاه رجل جليد فى العين شديد اللسان فقال : ياأبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه وكلهم مجتهد لا يألو وكلهم بغيض إليه أن يأتى دناءة إلا الخير. وهم فى ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك. فقال رجل من القوم : وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؟ فقال الرجل : اني لست إياك أسأل، وإنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث. فقال عبد الله : لعلك ترى لا أبالك أني سآمرك بأن تذهب فتقتلهم، عظهم وانههم وإن عصوك فعليك بنفسك فإن الله عز وجل يقول : ﴿**ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم**﴾ (الآية) نقله الحافظ ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير (٣ : ٢٥٩) ونحوه فى الدر المنثور للسيوطى عن ابن مردويه (٢ : ٣٤١).

عدم تسارع المجددين إلى التكفير :

فنحن بالعقيدة السلفية قائلون ، ولما مات عليه الأشعري موافقون ، وعلى ضابط السبكي ناهجون وبفتوى الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر مقتدون . ما نحن إلا وعاظ مرشدون ولم ندع أننا حكام منفذون . ومعاملتنا للناس ترفع كل التباس فتجدنا نصلي خلف من يتقدم للإمامة ، ونسلم على من لقينا وندفن فى المقابر العامة من غير منع لأي مسلم منها ، ونشتري اللحم عمن يشهد الشهادتين كل ذلك من غير بحث عن كونه من المسترشدين بإرشادنا أم من الخصوم الطاعنين علينا ما لم تتبين لنا مشاقته لما جاء به الرسول الكريم ﷺ فهذه شواهد واقعية على أننا لا نحكم على معين بالشرك . وغرضنا من الخوض فى حديث الشرك تحذير المسلمين منه لا الحكم عليهم به تعييناً .

تحكم المشاغبين :

والذين يشنعون علينا إن خضنا فى هذا الحديث لا ينكرون على من يعلم الناس «أم البراهين»[1] وأمثالها من كتب المتكلمين ولا على من يعلم أحكام الردة من «المختصر» وغيره . فهم فى هذه التفرقة مغرضون متحكمون فإن من يعلم العقائد الصحيحة ، ومن يبين الزائغة منها سواء فى خدمة الحق متظاهرون على النصح . ففى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ أنه قال :

حديث حذيفة :

«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن

---

(١) من عقائد الأشعرية الأخيرة .

الشر مخافة أن يدركني . فقلت يارسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر. قال : نعم. قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير . قال : نعم، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ! قال قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتنكر. قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها . قلت : يارسول الله صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرنى إن أدركني ذلك . قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام . قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» والدخن بفتحتين الدغل والفساد . وعض أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة كما فى فتح البارى (١٣ : ٣٠) .

وهذه آيات وأحاديث تفيد أن مخاطبة المسلم باجتناب الشرك وأمره بالتوحيد ليس من الحكم عليه بالوثنية ولا التعريض باشتماله عليها .

خطاب المسلم باجتناب الشرك :

١ ـ قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا آمِنوا**﴾ وصفهم أولاً بالإيمان وطلبه منهم ثانياً . فلوكان أمرهم به يدل على خلوهم منه لتناقض الكلام . وكتاب الله منزه عن الاختلاف . وإنما المقصود أمرهم بالمداومة عليه . وكذلك نهى المسلم عن الشرك طلب منه للاستمرار على اجتنابه .

٢ ـ وقال : ﴿**فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . . .**﴾ وواضح أن المخاطبين بتلك الأوامر

كانوا ممتثلين لها من قبل نزول الآية، ولكن لزيادة التذكير فضل تقرير .

٣ ـ وقال : **﴿ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾** . فوصفهن بالإيمان قبل المبايعة لأن مبايعة المؤمن على ترك الشرك وعدم العود إليه إنما تزيد إيمانه صفاء .

٤ ـ وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه : «بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً» . الحديث. فطلب من أصحابه وهم فى الإيمان أعلى درجة من كل من يأتي بعدهم أن يبايعوه على اجتناب الشرك .

٥ ـ وفى مستدرك الحاكم عنه أيضاً بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أيكم يبايعنى على ثلاث. ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم . . .﴾** حتى فرغ من الآيات فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا، كانت عقوبته ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه» . والآيات الثلاث التى تلاها النبي ﷺ تنتهى بقوله لعلكم تتقون . والمخاطبون بقوله أيكم هم أصحابه لا المشركون .

نطق الجاهل بالشهادتين لا يمنع عنه وصف الشرك :

وهذه الأدلة وما فى معناها كما تدل على أن تحذير المسلم من الشرك ليس حكماً به عليه تدل أيضاً أن مجرد النطق بالشهادتين لا يطرد عن ساحة القلب شبح الشرك ولاسيما نطق من لقنهما تقليداً عادياً خاليا من فهم معناهما، وإنما اعترف بهما بحكم الوسط لا باضطرار العلم . ولم ينطق المشركون بالشهادتين لما دعاهم رسول الله ﷺ لأنهم عالمون بمعناهما ويرون النطق بهما التزاماً لما يدعو إليه الرسول ونبذاً لما يخالف دعوته . وقد أصابوا فى هذا الرأى، ثم اختاروا بعد ذلك الرأى الناشىء

عن العلم باللغة ومعانى الكلام التمسك بما وجدوا عليه آباءهم، وقد اخطأوا في هذا الاختيار، ولو رأوا مجرد التشهد كافياً فى رفع وصف الشرك عنهم مع بقائهم على عقائدهم الباطلة وعوائدهم القبيحة لأقروا واستراحوا. فإن عظماءهم لم يكونوا يأنفون من سيادة من لقبوه الأمين، ففى سيرة ابن هشام أن أبا الوليد عتبة بن ربيعة قال فى مجمع قريش :

تعظيم مشركى قريش للرسول :

«يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا. فقالوا: قم إليه فكلمه. فجاء النبي ﷺ وقال له ياابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً (جنياً) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أوكما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت ياأبا الوليد. قال: نعم. قال: فاستمع منى. قال افعل فقال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم. . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه. . .**﴾، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» (١ : ١٨٥).

من يــوصف بالشــرك :

فهذه القصة تريك مبلغ احترام كبراء قريش للنبي واستعدادهم لقبـول رئـاستـه فى الـدنيـا وهـو فى بدايـة أمـره بمكـة قبل أن يفشو فيها الإســلام ، فليس امتنـاعهم من التشهـد كراهيـة لرفعتـه عليهم ولكن محافظـة على ما ألفـوا عليـه آبـاءهم مما يعلمـون جداً منـافـاتـه لمقتضى التشهـد ، فوصف الشـرك يلحق من أخذ بحظ من عقائد وعوائد سمى الإسلام أهلها من أجلها مشركين ولا يغني مع ذلك تلفظه بالشهادتين .

علـة الجـمع بين لفظ الشـهادتين ومعنى الشـرك :

وكثـير من علمائنـا اليـوم بله عوامنـا لم يفقهـوا من العربية ما كان يفقهـه أولئـك الـذين كانت اللغـة لغتهم والأسلوب أسلوبهم ، ولهـذا لم يقتلع التلفـظ بالشهـادتـين من قلوبهم عقائد الشرك ولا حال دون نفوذه إليهـا ، فتجـد أحـدهم يردد فى صلاته إياك نعبد وإياك نستعين حتى إذا سلم منهـا ونهض واستعـان بغـير الله قائـلا : «يـاجـدي ! ياشيخي ! يارجـال الـداله نساء ورجاله» فلانحطاط عقولهم وفساد أذواقهم العربية يجمعون بين المتناقضات فإن كان فرق بين الفريقين من صرحاء المشركين ومشـركي المسلمـين فهـو اقـدام أهـل الجاهلية الحديثة على الجمع بين المتنافيات وإحجام أهل الجاهلية المعاصرة للبعثة عن هذا الهذيان الذى لا يعقـل ، ولا ينفـع أهـل جاهليتنا تسميتهم مسلمين كما لم ينفع أولئك تسميتهم بالحنفـاء . والإسـلام لا يفـرق بين العقـائد المتشابهة والأعمال المتـماثلة لمجـرد الافـتراق فى الأوصـاف الظـاهرة والألقاب الاصطلاحية المسلوخة عن معناها الصحيح .

وفى فتـح المجيـد لعبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب «لابد فى

شهـادة أن لا إلـه إلا الله من سبعـة شروط لا تنفـع قائلهـا إلا باجتماعها أحدها العلم المنافي للجهل، الثانى اليقين المنافي للشك، الثالث القبول المنـافي للرد، الـرابـع الانقيـاد المنـافي للترك، الخامس الإخلاص المنافي للشـرك، السـادس الصـدق المنـافي للكـذب، السـابـع المحبـة المنافية لضدها» (ص ٦١).

حـال المسـلمين ومسـؤولية العلمـاء :

ها قد أزحنـا اللبس عن غرة الغـرض من بيـان الشـرك ومظـاهره ولـزيـادة التقـرير نقول ان المسلمين قد عمهم الجهل وفشا بينهم الدجل وانـتـشــرت فيهم البــدع والمعـــاصي وكثفت غفلتهم عن يوم الأخــذ بالنواصي. وهذا ضروري لا يستطيع جحده المكابر العنيد. والمسؤول عن هذا الحـال هم العلماء لقـولـه تعالى : ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾، ولقوله ﷺ : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجـام من نار يوم القيـامـة». رواه أحمـد وأبـو داود وابن ماجة وأبو يعلى والترمذى، وحسنه الحاكم وصححه البيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً كذا فى كشف الخفاء للعجلوني. (٢ : ٢٥٤).

فـــائدة بيـان العلمـاء لمســائل الشـــرك :

فبيـان العلماء لمسـائـل الشـرك اداء للأمـانـة وقيـام بواجب الأمر بالمعـــروف والنهى عن المنكـر، ثم رجـاء لصـلاح حال المسلمـين وأن لا يكـونـوا حجة على هذا الدين ولا سبة بأفواه المتمدنين وهو غرض الذين ينهـون عن السـوء حين قالـوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ممن حكى الله ذلك عنهم من وعاظ بني إسرائيل والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

(٣)

الرجوع في بيان الشرك إلى الكتاب والسنة

اجمال الإسلام فى الشهادتين وتفصيله فى الأصلين :

يدخل المرء فى الإسلام بقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله. ومعنى الجملة الأولى أنه لا يعترف لغير الله بقوة غيبية تخضع لها روحه. فلا يخضع لسواه ولا يعبد إلا إياه. ومعنى الجملة الثانية أنه لا يعبد بهواه ولا بهوى أحد من أهل المنزلة والجاه، وإنما يعبد بما جاء به الرسول. فمحصل الجملتين أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله. وعلى هذين الأصلين انبنى الإسلام، وكل ما فى الكتاب والسنة تفصيل لما تضمنه هذان الأصلان، وكل ما نافى هذين الأصلين فهو مناف للكتاب والسنة اجنبي عن دين الإسلام.

الحث على الأصلين الكتاب والسنة :

فالداعي إلى الكتاب والسنة وتفهمهما إنما هو داع لتحقيق كلمتي الشهادة. ولهذا تجد فيهما وفى كلام سلف الأمة الحث على تعلمهما واتباعهما وتحكيمهما عند النزاع والتحذير من مخالفتهما وارتكاب ما نكراه على من تقدمنا من مشركين وكتابيين، ونثبت من ذلك ما يحصل به - إن شاء الله - التذكير لمن يخشى.

تدبر القرآن :

١ - قال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.

٢ ـ وقال أيضـاً : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ .

٣ ـ وفي الفرقـان : ﴿وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ . وترك تدبره وتفهمه من هجرانه قاله ابن كثير .

اتبـاع القـرآن :

٤ ـ وقـال : ﴿مثـل الـذين حملوا التـوراة ثم لم يحملوهـا كمثـل الحـمار يحمـل أسفـاراً﴾ . فعـاب على بنى إسـرائيـل جهلهم بكتـابهم ومخالفتهم له ولم يكتف منهم بمجرد قراءتها .

٥ ـ وقال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ .

٦ ـ وقـال : ﴿الـذين آتينـاهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنـون به﴾ . فى ابن كثـير عن ابن عبـاس وغيره أن حق التلاوة كونهم يتبعـونـه حق اتبـاعه . وفى كتاب التوحيد من صحيح البخارى عن أبي رزين يتبعونه ويعملون به حق عمله .

الرجـوع إلى الكتـاب والسـنة :

٧ ـ وقـال : ﴿فـإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ .

الغفلـة عـن المواعـظ :

٨ ـ وقـال : ﴿ولا تكـونـوا كالـذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ .

الثنـاء على صـاحب القـرآن والحـديث :

٩ ـ وعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ونزل القرآن فقرأوا القرآن وعلموا من السنة» . رواه البخارى فى كتاب الفتن وفى كتاب الاعتصام من صحيحه .

١٠ ـ وعن عثمان بن عفـان ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «خيركم من تعلم القـرآن وعلمـه» . أخـرجه البخارى فى كتاب فضـائـل القرآن ووجه الحافظ فى الفتح الخيرية بالجمع بين النفع القاصر والمتعـدي وبـين أنـه لا يلحقها من كان قارئاً أو مقرئاً محضاً لا يفهم شيئاً من معاني ما يقرأه أو يقرئه . وشرف الدعوة إلى الله بالقرآن على الدعوة إليـه بسـواه . وجعـل هذا الداعى أشرف من تناوله قوله تعالى : ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعـا إلى الله وعمـل صالحـاً وقال إننى من المسلمين**﴾ . وقابل هذا الداعي بالكافر الذى جاء فيه قوله تعالى : ﴿**فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها**﴾ . (٩ : ٦٢) .

١١ ـ وفيـه أيضـاً عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : «مثـل الـذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب والـذي لا يقـرأ القـرآن كالتمـرة طعمهـا طيب ولا ريـح فيها ومثل الفـاجـر الـذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفـاجـر الـذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» . ثم رواه فى موضـع ثان من كتـاب الفضـائـل أيضـاً بلفظ المؤمن الذي يقرأ القـرآن ويعمـل به . ففسرت هذه الزيادة المراد من الذى يقرأ القرآن وأنه الذى يعمل بما دل عليه .

وصـــف القـــرآن :

١٢ ــ وأخرج أحمد عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «أتانى جبريل فقال : يامحمد أمتك مختلفة بعدك . قال فقلت له : فأين المخرج ياجبريل . قال فقال : فى كتاب الله به يقصم الله كل جبار من اعتصم به نجا ومن تركه هلك (مرتين) قول فصل وليس بالهزل لا تخلقه الألسن ولا تفني عجائبه فيه نبأ ما كان قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم» . نقله الحافظ ابن كثير فى كتابه فضائل القرآن الذى ذيل به تفسيره (ص ٧) .

شـــهادة القـــرآن :

١٣ ــ ومن حديث أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعرى مرفوعاً والقرآن حجة لك أو عليك .

نســيان القـــرآن :

١٤ ــ وأخرج أبو داود والترمذى عن أنس مرفوعاً : «عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن اوتيها رجل ثم نسيها» . وقد قواه الحافظ فى الفتح بآثار فى معناه . ووجهه بأن ترك معاهدة القرآن يفضى إلى الجهل ، والرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد (٩ : ٧١) وهو يفيد أن نسيان القرآن شامل لإهمال تلاوته ولترك تدبره . وقد عد هذا النسيان من الكبائر كما فى الفتح والزواجر .

عدم منع الشهادتين من الضلال الذى ضلته الأمم :

١٥ ــ وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أنه ﷺ قال : «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى؟

قال: فمن؟»، وفي رواية عن أبي هريرة: فقيل يارسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك؟.

ذم القراءة من غير عمل:

١٦ ــ وعن ابن مسعود أنه قال: «أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا درسه عملاً إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به». نقله الثعالبي في تفسيره الجواهر الحسان (١-٩).

الحث على تعلم وتفهم الأصلين:

١٧ ــ وعنه من قوله أيضاً: «ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين». أخرجه البخاري فى كتاب الاعتصام. وبعض تلك الجمل مروى عن النبي ﷺ.

١٨ ــ وفيه أيضاً عن ابن عون من صغار التابعين: «ثلاث أحبهن لنفسى ولإخوانى هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه، ويدعوا الناس إلا من خير».

١٩ ــ وعن إياس بن معاوية: «مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب. ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب» نقله القرطبي فى تفسيره (١ : ٢٦).

هذا ما أردنا جلبه فى هذا المقام فمن استزادنا منه قلنا الإستقصاء ممل معجز، ومن استكثر علينا هذه الإطالة فالداعي إليها صلابة المشاغبين

الـذين لم يلينـوا فى انكـارهم علينا الرجوع إلى الكتاب والسنة فى الحكم على العقـائـد بالاستقـامـة والزيغ وعلى الأعمال بالاستنان والابتداع. وكيف لا نرجـع إليهـما ولا نستمـد هدايتنـا منهما والسنة تفصيل وتكميل للكتاب والله يقول: ﴿**والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾.

مكايد المعـــــارضين:

لقـد ثقـل على من خفت موازينـه من الطـرقيـين والقبـوريـين والمـرابطـين نصـح المشفقين وساءهم تحذير العلماء الناصحين فكادوا لهم مع الحكومة كي يوقعوهم فى قبضتها. فسامت الحكومة العلماء بالترغيب والترهيب وعاملتهم بالشدة العملية واللين القولي، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيـل الله ومـا ضعفوا وما استكانوا ثم حاول أولئك المستاءون صرف العـامـة عن علمائهـا فلم ينقبضـوا عن الإرشـاد. وأشد ما كانوا يثيرون عليهم الضجات عند تفسير الآيات.

ضجات للصد عن التفســير:

وأول ما شهدت من ذلك ضجة مدرس دولي بجامع سيدى عقبة قرب بسكرة. فقد حضرت سنة أربع وأربعين درساً للأستاذ عبد الحميد ابن باديس بذلك الجامع ونحن سفر فى تفسير أوائل سورة الأعراف فقام ذلـك المـدرس رافعاً صوته بعدم الفائدة فى التفسير طالباً درساً فى مختصر خليـل ولكن لم يجن من مصـادمتـه للحق إلا المقت من الحـاضرين. ثم وقعت لي أمثالها من أصحاب زاوية الهامل لما كنت آتي من الأغواط إلى أبي سعادة للوعظ ببعض مساجدها. وحكاياتهم فى هذا الباب مع بقية الأصحاب أكثر من أن يستوفيها كتاب. وتلك عادة المعاندين لكلام رب

العالمين : ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ .

شبه المعـــــارضين :

ولقد فكروا وقدروا وعن ساعد الجد للتضليل شمروا وجاءوا ظلماً وزوراً وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القـول غروراً . فقالوا فيما قالوا ان كلام الله أجل من أن يفسر وأن الـواجب الاقتصار على المألوف من المؤلفات وان الـرجـوع إلى الكتاب والسنة دعوى للاجتهاد وغض من مقام الأيمـة حتى قال قائلهم : «الـرجـوع إلى الكتاب والسنة ضلال وهـلاك وخسارة أبـديـة وشقـاوة سرمـديـة» من فصل نشره فى صحيفة النجاح القسنطينية بعدد **٢٧٢** صادر فى رجب سنة أربع وأربعين .

الصـد عن التفسـير ومآله :

١ ـ أما منعهم من تفسير القـرآن فيستدلون له بما يرون عمن لا يعـرفـون من أن صوابـه خطأ وخطأه كفر. ويؤكدون ذلك بحكايات فى امتنـاع مشـاهـير الشيـوخ من الإقـدام على التفسـير مثل كذبهم على الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر أنه كان إذا ألح عليه تلاميذه فى ذلـك قال لهم لنخـرج إلى الشـاطىء حتى لا ينقض علينا جدار ولا يخر علينـا سقف . يحكـون عنـه هذه الحكـاية وهو مفسر مشهور. ويعظمون كلام الله هذا التعظيم ولا يعظمون حدوده وأحكامه فتجدهم يشهدون الـزور ويغشـون مجالس الخمـور والفجور ولا يخشون انقضاض الجدران ولا خرور السقـوف . وكـل هذا نبـذ لكتاب الله وتعطيل لأحكامه واتباع لسنن اليهـود الـذين حكى الله عنهم ذلـك بقوله : ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهـورهم كأنهم لا يعلمـون**﴾ . نقـل القـرطبي فى تفسـيره عن

السدى أنه قال : «نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت» ونقل عن سفيان بن عيينة أنه قال : «أدرجوه فى الحرير والديباج وحلوه بالذهب والفضة ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه فذلك النبذ». (٢ : ٤١).

النهي عن التفسير ومحمله :

وقد ورد النهى عن التفسير. فأخرج ابن جرير وأبو داود والنسائى والترمذى وحسنه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال : «من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار». وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى عن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» وجعله الترمذى غريباً وطعن غيره فى بعض رواته. وزاد رزين ومن قال برأيه فاخطأ فقد كفر وقد حمل العلماء هذا النهى على التفسير بالرأي والهوى. وصوره القرطبى فى تفسيره بصورتين أحداهما أن يكون له فى الشىء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيصرف القرآن إليه تصحيحاً لغرضه وثانيتهما أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بالغرائب ولا جرى على مقتضى قوانين العلم (١ : ٣٣) وعلل ابن كثير تخطئة من أصاب فى التفسير برأيه فقال : «لأنه تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس عن جهل فهو فى النار وان وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم» (١ : ١٢).

الغرض من الدعوة إلى تأليف القدماء :

٢ - وأما دعوتهم إلى الاقتصار على المألوف من المؤلفات

فيلبسونها لباس التعظيم للعلماء المتقدمين والاحتياط على العوام فى الدين وما هى إلا صد عن هداية القرآن وفرار من كشفه لمساويهم ما عرفوا الكتب التى يدعون إليها ولا عرفوا بالغيرة على الدين حتى يحتاطوا للعامة. وما هم فى ذلك إلا مرددون لصدى فرعون حيث قال: **﴿ذروني اقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾** [غافر /٢٦] وما أشبه الليلة بالبارحة.

اختصاص القرآن بالإرشاد المؤثر:

قال محمد عبده فيما لخص عنه فى حياته من التفسير المعروف بتفسير المنار: «وأن فى القرآن من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغنى عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقى. ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن. وفيما أخذ منه كإحياء علوم الدين[1] حظ عظيم من علم التهذيب ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ولم يفصح عنها عالم ولا إمام». (١ : ٢٠).

(١) احياء علوم الدين من أحسن ما كتب الغزالى غير أن فيه أشياء كثيرة تخالف ما جاء عن رسول الله. كما فيه حكايات عن بعض أهل التصوف لا تنسجم مع التعاليم الإسلامية وقد أعترض عليه كثير من العلماء حتى ان كثيرا من علماء المغرب يسمونه أمانة علوم الدين فيجب على من يقرؤه أن يكون على حذر.

خطأ مستصعبي التفسـير :

وإنـا لنشهـد الله ـ وليس وراء الله للمـرء مذهب ـ إنـا قد جربنـا فوقفنـا على صحـة حكم هذا الإمـام وصـدق وصفه . ولعل هنالك من يستصعب هذه الطريق بأن طباعنا العربية قد حالت ، وسلائقنا فى ذوق الكلام العربى قد فسدت ، فأنى لنا بفهم كلام ربنا ؟ فنقول له إن من عانى غموض المتون وتعقيد المختصرات يستسهل القرآن الذى يسره الله للذكـر ويجـد فى تعلم اللغـة وعلومهـا ما يرد عليـه سليقة سلفه أو يكسبه إياها إن لم يكن عربى الأصل ونقص السليقة المكتسبة يجبره ما كتبه أيمة التفسير .

التشنيع بتهمة دعوى الاجتهـاد :

٣ ـ وأمـا نسبتهم دعـاة الـرجـوع إلى الكتاب والسنة إلى دعوى الاجتهـاد والغض من مكـانـة المجتهدين المتبوعين فلم يستندوا فيها إلى شيء ولكنه بهتان مضلل وتعيير يصدق عليه قول الأول :

وعـيرهـا الـواشـون أني أحبهـا　　　وتلك شكـاة ظاهـر عنـك عارها

معنى الاجتهـــاد :

وإن كان لهم مستند فهو الجهل بمعنى الاجتهاد والتمسك بإيهام العكس . أمـا الاجتهـاد فقـد عرفـه الأصـوليون بأنه : «بذل الطاقة من الفقيـه فى تحصيـل حكم شرعى ظني» وأخـرجوا عنه ما فيه أدلة قطعية أو اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع كوجوب الصلوات الخمس والزكاة وكحـرمـة الزنا والخمر . وواضح من هذا أن وزن الاعتقادات والأخلاق بميزان الكتاب والسنة والاتعاظ بمواعظهما أبعد شيء عن موضوع الاجتهاد .

إيهـــــام العكس :

وأمـا إيهـام العكس فيطلقـه المنـاطقـة على عكس الموجبة الكلية كنفسهـا وهـو خطأ. وذلـك أن قولـك كل إنســان حيوان صادق فيتوهم متـوهم صدق عكســه ويقول كل حيوان إنسان، وهؤلاء رأوا كل مجتهد ناظراً فى الكتاب والسنة، فتوهموا أن كل ناظر فى الكتاب والسنة مجتهد. والأصـل صواب والعكس خطأ فإن هنـالـك مفسـرين وشراح حديث لم يدعـوا الاجتهـاد ولا نسبـوا إليـه، من أشهـرهـم بمغـربنـا عبـد الرحمن الثعـالبي صاحب الجـواهـر الحسـان فى تفسير القرآن والشيخ السنوسي شارح مسلم .

القولة الخاســـــرة :

وتلك القـولـة المنقـولة عن النجاح قولة خاسرة، ولولا ترداد ألسنة المعـارضـين لها مستحسـنين وتنـاقـل طوائفهم لها مستشهدين، ثم حياة قائلهـا بعـد نشـرهـا سنـوات أصـر فيهـا عليها؛ لولا ذلك لعددناها من سقطـات الأقـلام وهفوات الأحلام فلم نثبتها فى قرطاس، ولا ذكرنا بها من نسيها من الناس. وإن قصد قائلها معنى يحميه من التكفير لم يسلم من وزر شناعة هذا التعبير .

منزلة الســـلف الصالح :

نحن لا ندعى الاجتهـــاد ولا نتنقص أيمـــة الـدين المهتـدين بل نحترمهم ونعترف لهم بالفضيلة لكونهم سبقونا بالإيمان ومهدوا لنا طريق الاتباع بسنهم لنا صناعة التأليف وأصول التعليم. وقد قال الله تعالى : ﴿**والـذين جاءوا من بعـدهم يقـولـون ربنـا اغفـر لنـا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا**﴾ . وروى مسلم عن

جرير بن عبد الله البجلي ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» .

شمول الدعوة إلى الكتاب والسنة للدعوة إلى سائر الكتب والعلوم :

ومن اعتقد فى إحياء الكتاب والسنة والأنس بهما موتاً لتصانيف المتقدمين وهجراناً لها فقد اعتقد أنها منافية لهما وأن بينها وبينهما ما بين الضرتين (رضى هذي يحرك سخط هذي) ثم آثرها وهى الفرع عليهما وهما الأصل، وتلك غباوة مغبتها شقاوة .

ونحن لا نرى منافاة بين تفهم الكتاب والسنة ودراسة مؤلفات العلماء. وليست الدعوة إليهما تزهيداً فى تراثنا من أسلافنا بل هى حث على الانتفاع بذلك التراث القيم لأن الناظر فيهما يحتاج إلى النظر فيما كتب عليهما وما استنبط منهما وما هو وسيلة إليهما وقد يتعرف بذلك إلى علوم كونية مجملة فيهما. هذا إلى تحصيل ملكة البيان من أسلوبهما وإحياء طريقتهما فى الهداية فتكون الدعوة إليهما دعوة إلى الأصل والفرع معاً أما الدعوة إلى كتب الفقه مثلاً خاصةً كما يريد المعارضون فهي دعوة إلى الفرع وإهمال للأصل. والنهم الذى لا يشبع من طلب العلم لا يتسع لنهمه غير الكتاب والسنة والنهم غير الشهوان لا يجمل به أن يقيد قدرة غيره بعجزه ولا يزينه أن يتخذ من ضعفه مقياساً لقوه القوى. والكابر يتمثل له بقول الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

وكيف يكون النظر فى الكتاب والسنة اجتهاداً، وجل المفسرين والمحدثين مشهورون بالانتماء إلى مذاهب الأيمة الأقدمين ؟ وإذا سلموا من النبذ بهذه الدعوة فكيف يرمى بها من قصاراه فهم كلامهم وتفهيمه للناس ؟

تساند الطرقيين والمعمرين فى الحملة على المصلحين :

وأرى المشاغبة بنسبة الاجتهاد إلى من يدعو إلى الكتاب والسنة أشبه بالمشاغبة بنسبة طلب الاستقلال إلى أمة محتلة تطالب بالعدل فى التشريع والإجراء، وإن مشاغبات من هذا النعت يكشفها المنطق ولكن تواريها قوة الجهل أو كثرة الجيش. ثم المشاغبون فى الدين هم الطرقيون والقبوريون والمرابطون والمشاغبون فى الدنيا هم غلاة المعمرين ومن ألف الاستبداد من الموظفين. والفريقان مجتمعان فى نقطة المحافظة على جهل الأمة وتأخرها لاستغلال جمودها والاستئثار بجهودها. وتلك طبيعة المستكبرين مع المستضعفين يصدونهم عن النور ليستبقوهم تحت النير : «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾. (سبأ : ٣١).

(٤)

تنزيل الآيات النازلة في قوم على من أشبه حالتهم اليوم

تخصيص الآيات بمن نزلت فيهم :

رأى الطرقيون ومن لف لفهم أن القرآن فاضحهم، وكاشف عوارهم فتعللوا للتسلل منه بعلل شتى وما هى بنافعتهم بعدما عمت لفظة «فاقوا» وكان من تعللهم تقولهم أن ما جاء فى قوم من المشركين وأهل الكتاب فهو خاص بهم لا يتناول المسلمين وإن جاءوا بما هو أشنع وأضل .

مقصود البعثة وحكمة التكليف :

وهذا جهل بمقصود البعثة وحكمة التكليف وتصرف الأيمة فى تفقههم . فإن الغرض من بعثة كل نبي هو توحيد الخلق على توحيد الخالق وإقامة دينه . قال تعالى : ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ وحكمة التكليف هو تكميل الإنسان باتباعه شريعة الملك الديان وليس الأمر كما يظنه بعض الجهال من أن التكليف كجزية تضرب على البعيد من الملك ويعفى منها من توسل إليه بمذلة وجاه فتراهم يفخرون بكونهم من خير أمة أخرجت للناس، أو يعتزون بالاعتزاء إلى مشهور بالفضل والصلاح من غير أن يأتمروا بينهم بمعروف أو يتناهوا عن منكر وقد قال الله تعالى : ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ـ ان أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾ وقد تصرف الأيمة فى الآيات النازلة فى الأمم الماضية واستنبطوا منها أحكاماً لهذه الأمة .

تعميم الآيات على غير من نزلت فيهم :

إن تنـزيـل الآيـات النـازلـة فيمن قبلنا على أهل ديننا هو تطبيق للنص على الحـادثـة ونصيحـة للمؤمنين أن لا يغتروا بالنعوت اللفظية ويـدعـوا الصفات النفسانية التى هى أصل تلك النعوت . فلا يفيد المرء أن ينعت بالمسلم وصفاته النفسانية صفات مشرك ضال أو كتابي معاند .

وقد وضع العلماء قاعدتين فى هذا الباب إحداهما قولهم : «العبرة بعمـوم اللفـظ لا بخصـوص السبب» ، والثـانيـة هى : «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ» وقد شرع الله لمن قبلنا عقائد وأعمالاً أنكر عليهم مخالفتهـا ولم يرد ناسـخ يعفينـا من ذلـك الإنكار عند وقوع المخالفة منا . وكثـيراً ما نجـد فى عبـارات المفسرين أن الآية نزلت فى بني إسرائيل مثلاً وأنهـا متنـاولـة من كان على مثـل حالهم من هذه الأمـة مثل آية الكاتمين للعلم ولعنهم ومثل آية : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب**﴾ ويشهد للتعميم آيات وأحاديث وآثار نذكر بعضها فيما يلي :

أدلـــــة التعميم :

١ ـ قال تعالى فى وصف كتابه هدى للناس . فإن كان الذين نريد هدايتهم بالقرآن من الناس فلم نزد على أن أوصلناهم لحقهم من كتاب ربهم .

٢ ـ وقـال على لسـان نبيـه ﷺ : ﴿**وأوحي إلي هذا القـرءان لأنـذركم به ومن بلغ**﴾ فعطف على ضمـير المخاطبين من المشركين من بلغه القرآن فى زمنهم وبعد عصرهم .

٣ ـ وقـال : ﴿**وأنـذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم**﴾ .

والذين يخافون الحشر هم المؤمنون ومن هم مظنة الإيمان ممن لم يطبع الله على قلوبهم . فلم تخص الآية المشركين بالإنذار .

٤ ـ وقال بعد حكاية حادثة قوم لوط : ﴿**وما هي من الظالمين بعيد**﴾ فسر البغوي الظالمين هنا بمشركي مكة أو ظالمي هذه الأمة . والجمع بين الوجهين غير ممتنع وعلى كل حال دلت الآية على الحاق المتأخر بالمتقدم في استحقاق عقوبته متى كان على مثل حالته . وفسر ابن كثير الآية على التعميم فجعلها بمعنى حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» . أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم والبيهقي . وحكى عن أبي حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط . فالآية دلت على أن ما أصاب قوم لوط غير خاص بهم . والحديث دل على تنفيذ حكمها فيمن أشبههم ، وقول أبي حنيفة دل على مراعاة صفة التنفيذ .

٥ ـ وأخرج أبو داود عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ﷺ قال : «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» . ثم قال : ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** . . . ـ إلى قوله ـ **فاسقون**﴾ .

ثم قال : «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر

ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم». وهذا الحديث صريح في تنزيل ما نزل فى اليهود على المسلمين .

٦ ـ وروى الشيخان عن عائشة وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه ﷺ قال فى مرض موته : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا» فقد فهما أن اللعنة غير خاصة بأهل الكتابين وأن المقصود تحذير المسلمين من فعلهم حتى لاتشملهم لعنتهم. ومنزلتهما فى العلم والدين منزلتهما. وتقدم حديث أبي سعيد الخدرى فى سلوكنا سبيل من قبلنا فى المخالفة. فكان الواجب أن نعتني بما نزل فى غيرنا لنحفظ أنفسنا من مشابهتهم فى العقائد الزائفة والأقوال المنكرة والأفعال الخاطئة .

٧ ـ وفى سيرة الحسن البصرى لأبى الفرج ابن الجوزي أن الحسن قال : «رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله وعرض عليه نفسه فإن وافقه حمد ربه وسأله المزيد من فضله وإن خالفه تاب وأناب ورجع من قريب» (ص٤٥) .

٨ ـ وقال أبو عبد الله الابلي التلمساني المتوفى فى منتصف القرن الثامن : «لولا انقطاع الوحى لنزل فينا أكثر مما نزل فى بنى إسرائيل لأننا آتينا أكثر مما أتوا» نقله ابن مريم فى البستان (٢١٨) .

٩ ـ وقال الحافظ ابن حجر المتوفى فى منتصف القرن التاسع فى فتح الباري، بعدما أشار إلى كثرة ما أنذر به النبي ﷺ أمته : «وقد وقع معظم ما أنذر به وسيقع بقية ذلك» . (١٣ : ٢٥٦) .

فهـذه دلائل وشواهد تريك صواب العلماء المجددين فى تحذيرهم لإخوانهم المسلمين وتكشف لك عن غرض المبطلين وخطأ المعارضين ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان ونبيه خاتم النبيين وكتابه خاتم الكتب، وهـذه الأمـة خاتمـة الأمم وهى من جنس تلك الأمم الماضية تقسو قلوبها كما قست قلوبهم وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم وتعصي كما عصوا وتبتدع كما ابتدعوا. فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصـر ما عاب به من قبلنـا عليهم ويـدعنا سدى من غير دليل يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم قبلنا؟ لقد أحاط ربك بكل شىء علماً، ووضـع لكـل حال حكـماً، والقرآن الذى فضح من قبلنا هو الذى يفضحنا، والقرآن الذى هدى من تقدمنا هو الذى يهدينا.

هاقد نقضنا فى هذا الفصل وسابقه طائفة من شبه الطرقيين ومن فى معنـاهم، وهى شبـه ظاهـرهـا حمايـة الدين وباطنها استخدام الدين لحمايـة منـافعهم الخـاصـة وأن الـدين ليبرأ من تلك الحماية الظاهرة وان عقبى ذلـك الاستخـدام عليهم لوخيمـة. ولفتنـة النـاس بظـواهر تلك الأقـوال أطلنـا فى هذين الفصلين القـول فى نقضهـما. وسبق أن كتبنا فى ردها بما عطل من صحف جمعية العلماء فصولاً تحت عنوان «آثار وأخبار» ان حمايــة الــدين لا تكـون إلا بالعلم وان أصـل علم الـدين الكتـاب والسنة. ولقد أجاد من قال:

تفضــيل عــلم الكتــاب والســنة:

ان الـعـلوم وإن جلت محاسـنهـا ... فتــاجهـا ما به الإيـمان قد وجبـا
هو الكتــاب العـزيـز الله يحفظـه ... وبعــد ذلــك علم فرج الكـربـا

فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه — نور النبوة سن الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها — فاختر لنفسك يامن اثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه — يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت — كل العلوم تدبره تر العجبا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل — مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سر به — إذا تزيد منه قال واطربا(١)

---

(١) هذه الأبيات نقلتها من تفسير القرطبي (١ : ٤١) فأوردتها كما هي والظاهر أن قوله آخرها (قال) واطربا محرف عن (مال).

(٥)

ذرائع الشرك وطبائعـــه

وجه إطالة المقـــــدمات :

علمنا من الفصول السابقة شدة حاجة المسلم إلى معرفة الشرك ومظاهره وضعف عناية المؤلفين فى تخصيص هذا الموضوع بالتأليف وجمع مسـائله فى سفـر وأدركنـا حسن غرض المصلحـين من ثارة الحـديث فيه ووقفنا على وجه دعوتهم إلى الكتاب والسنة وحجتهم فى وعظ المسلمين بما نزل فى أهـل الكتـاب والمشركين . وتلك نواح تضطر النصوح الواقف على حالـة أهـل عصـره النفسـانية إلى تقديم القول فيها على المقصود بالـذات ولـو افضى إلى اطـالـة المقدمات والخروج بها عن معتاد أمثالها بالإضـافـة إلى فصـول المـوضوع . فإن الغرض من تلك المقدمات تهيئة الأفكار إلى قبول ما نعرضه عليها من حقائق الدين ينبذ ما يفرض عليها من بوائق المعتـدين ولا تثبت تحليـة إلا عن سبق تخليـة . والآن نبتـدىء حديثنا عن الشرك ببيان أسبابه وذرائعه وآثاره وطبائعه .

ذم الشـــــرك :

الشـرك المسـاوي وكلية الرذائل ومعمل الموبقات . فهومعصية لا تجدى معها طاعة ، ومنقصة لا يجزى عنها كمال ، وضعة لا يقوم منها عز ، وسفـه لا ترشـد به نفس . ولـولا الجهـل ما نجم له قرن ، ولولا الوهم ما حيي له عود ، ولولا العادة ما امتد له عرق فهوشجرة خبيثة ثراها الجهالة وسقيـاهـا الخيال وعرقاتها الاعتياد وجناها نار حفت بالشهوات وعار ستر بالترهات . فلا كان الجهل القبيح ولا كانت العادة الضارة ولا كان الوهم الضال ولا كان الشرك ومساويه .

آثار الشـرك فى المجتمـــع :

إن كنت باحثـاً فى علل انحطـاط الأمم ، فلن تجد كالشـرك أدل على ظلمـة القلوب وسفـه الأحـلام وفسـاد الأخـلاق ، ولن تجد كهـذه النقـائص أضـر بالاتحـاد وأدر للفوضى وأذل للشعوب . وإن كنت باحثاً عن أسبـاب الـرقي ، فلن تجد كالتـوحيد أطهر للقلوب وأرشد للعقول ، وأقوم للأخلاق ، ولن تجد كهذه الأسوس أحفظ للحياة وأضمن للسيادة وأقـوى على حمل منـار المـدنيـة الطـاهرة ، وإن نظرة فى حياة العرب قبل البعثـة ، لتؤيـد ما أضفنـاه إلى الشـرك من علل ونتائج . وإن وقفة على حيـاتهم بعـد البعثة لتبعث على التصديق بما انطناه بالتوحيد من أسباب وثمرات ، وإن تلك النظرة وهاته الوقفة المفتاحان لسر حياة المسلمين بعد عصر النبوة . وكل من قارن بين حياتنا اليوم وحياة جيرانا من غير ملتنا ، استيقن أن وسـائـل الشرك قد وجدت فى المسلمين منذ أمد ، وأن نتائجه قد ظهرت عليهم ، فلا تخفى على أحد .

الاهتمام بحياة الإســـــلام :

إن من انتسب إلى الإسـلام وافتخـر بالعـربية ، ثم رضى بالحالة الحـاضـرة ودافع عنها ؛ نرى بنوته للإسلام ولغته ليست لرشده وإنما هى لغيه . والابن الشرعى للإسلام والعروبة ، وهو من يجعل همه إعادة جدة الـدين ، واستعـادة مجد السلف الأقدمين . وابن الإنسانية البار بها هو هو الـذى ـ إن لم يؤ ازر على تحقيق ذلـك الهم ـ لا يمنـع العاملين لتمثيله ، ولا يحول بينهم وبـين طرق تحصيله فلن تجد كالـدين الخـالص مصنعـاً للعقـول ، التى تسـع الإنسـانيـة عدلاً ، وللقلوب التى تسـع الشعـوب اخاءً ، وللألسنة التى تسع الحياة صدقاً .

الجمع بين التوحيد والوثنية فى النفس الجاهلة :

هذه آيات التزيل، ليس لتكررها فى موضوع الشرك مثيل؛ وهذه أحاديث الرسول، تحذر من كل ما هو منه بسبيل؛ ألا تدل تلك العناية، على أن جناية الشرك أفظع جناية. وأن وقاية المجتمع منه أمتع وقاية؟ ليس العجب - لو كنا نسمع أو نعقل - من حديث العلماء فى الشرك، وبيانهم له، إنما العجب من سكوتهم عنه حتى يتسرب إلى نفوس الموحدين؛ ويجرى على ألسنتهم، ممتزجاً بما يتلى فى شأنه من القرآن. فتجتمع فى ذات واحدة، دواعى الضعف والقوة، وتظهر على نفس واحدة، أعراض التفرق والوحدة؛ ويجرى من لسان واحد أجاج الجهل وعذب الحكمة. ثم تجد الناحية الفاسدة من يتعاهدها بالفساد حتى تطغى، وتفقد الجهة الصالحة، من يغذيها فتفنى ولنورد بعض ما جاء فى سوء أثر الشرك فى الفرد والمجتمع، مقابلاً بحسن أثر التوحيد فيهما زيادة فى تصور ضرر الشرك :

وصف الكتاب للشـــرك :

١ - قال تعـالى : ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾. فأفادت الآية أن المشرك فى الدنيا ذليل رعديد، وجزاؤه فى الاخرى الخزي والعذاب الشديد.

٢ - وقـال : ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾. فجمعت هاته الآية للمشرك الخوف والفقر.

معنى الظلم وأنواعـــــه :

٣ ـ وقـال : ﴿**وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه، يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾ . والظلم وضع الشيء في غير موضعه وأنواعه ثلاثة : ظلم في حق الله، وظلم للناس، وظلم للنفس . والشرك اجتمعت فيه الأنواع الثلاثة : فالظلم في حق الله بعدم توحيده، والظلم للمعبود مع الله بإيذائه، ان كان صالحاً، وتغليظه في نفسه إن كان جاهلاً؛ والظلم للنفس بإذلالها وتعبيدها لمن هو مثلها في الافتقار والاحتياج .

وعد الله للموحـــــدين :

٤ ـ ٥ ـ وقال مخبراً عن الموحدين : ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ـ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ .

وصف السنة للشـــــرك :

٦ ـ ومن حديث أخرجه الشيخان عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : «يارسول الله، أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك» .

٧ ـ وعن أبي هريرة عند مسلم أنه ﷺ قال : «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه» .

٨ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عند ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري فى الأدب المفرد، والنسائى وابن ماجة وأبي نعيم فى الحلية، والبيهقي فى الأسماء والصفات؛ أن رجلاً قال للنبي ﷺ : «ما شاء الله وشئت. فقال : جعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده» .

٩ ـ وعن حذيفة بن اليمان عند ابن أبي شيبة وأحمد وأبي داود والنسائى وابن ماجة والبيهقي، وصححه النووي فى رياض الصالحين، أن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا ما شاء الله، ثم شاء فلان» .

١٠ ـ ومن حديث طويل، عند أحمد، فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : «إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً، من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده. فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً» أورده بطوله ابن كثير فى تفسيره (١ : ١٠٦).

صور من الشـــــرك :

١١ ـ وأورد فيه عن أبي حاتم، بسنده إلى ابن عباس، أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾ . الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء فى ظلمة الليل. وهو أن يقول : «والله وحياتك يافلان وحياتي، ويقول لولا كلبة هذا، لآتانا اللصوص البارحة، ولولا البط فى الدار، لأتى اللصوص، وقول الرجل

لصاحبه : ما شاء الله وشئت، وقول الرجل : لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك» .

وما اطلق عليه الشرك فى هذه الأخبار، بعضه شرك صريح، وبعضه ذريعة إليه، فنهى عنه حياطة التوحيد وصيانة له. والأخبار فى هذا المعنى كثيرة، ومن يرد الله به خيراً يهتد ببعض ما ذكرنا ؟ ومن يهن الله فما له من مكرم - ﴿**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية، فظلت أعناقهم لها خاضعين**﴾، وأساس الخير، اتهام النفس وعدم الرضى عنها .

اتهــام النفس :

وقد قال الله : ﴿**فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى**﴾ . ولا يعين على شهود النقص فى النفس، كالوقوف على اجتهاد السلف الصالح. ففى سيرة الحسن البصري الذى عاش فى القرن الأول، ومات فى أوائل الثاني، أنه قال : «رأيت سبعين بدرياً لو رأيتموهم لقلتم : مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء من خلاق. ولو رأوا شراركم لقالوا : هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب» (ص٥٩) هذا خطاب الحسن لأهل عصره، من التابعين وتابعيهم فبماذا يخاطب أهل القرن الرابع عشر ؟

بعض مطاعن المشــاغبين :

إن أهل زماننا قد رضوا حالتهم، وسخطوا على نصائحهم مقالتهم، وقالوا قد جاؤونا بعلم جديد، وقد سبقهم علماء أجلاء لم نسمع منهم نكرانا لهذا الأمر. فإن كان بين هؤلاء الساخطين؛ من شدا شيئا من العلم، زادهم جهالة بتأويل النصوص الشرعية وبصرف

أقوالهم وأعمالهم الدالة على فساد اعتقادهم إلى ما يوافق الإسلام ، وإن كان خلاف مرادهم ، ثم زعم لهم أن ما يرشد إليه المصلحون ضلالة ابتدعها ابن تيمية .

الجواب عن المطاعن :

لا ، لم نأت بعلم جديد فى نظر الدين ، ولكنه جديد فى آذان المستمعين ، ومن تقدمنا من العلماء بعضهم نكروا مثلنا فطعن فيهم وحيل بينهم وبين العامة ، وبعضهم أسروا الانكار لمن وثقوا بامتثاله ، ومنهم من كتم لغلبة يأسه ، ومحافظته على هناء نفسه ، ومنهم من لم يكن يدرى هذا الشأن ، وإنما اشتهر بمسائل الفروع . ثم العلماء الثقات حجة فيما يأثرون ، لا فيما يفعلون أو يقرون ، ولا يكون الفعل أو التقرير حجة إلا من المعصوم ، فاما تأويل النصوص فأكثره تحريف للكلم عن مواضعه ، وغض من مهابة ظواهرها وعظم مواقعها فى النفوس . وأما صرف أقوال العامة ، وأفعالها إلى غير ما أرادت منها ، فتغرير بها وإغراء لها على الباطل . وأما ابن تيمية فلم يبتدع ضلالة ، وإنما أحيا السنة ، ودعا إلى الهدى ، واجتهد فى النصح . وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص ، ولكنه دين الله العام .

وما جعل العوام يستخفون بما وقعوا فيه من الشرك الجلي إلا الاعتياد ، وجبن جل العلماء عن الجهر بالإرشاد . والعادة ـ كما يقال ـ (طبيعة ثانية) . والاسرار بالعلم اقبار له . ففى كتاب العلم من صحيح البخاري : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم : «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى

يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً» ومن حكم الشعراء :

وشتان بين الجهر والمنطق الخفت

وقال ابن تيمية : «لولا بعد عهد الناس بأول الإسلام، وحال المهاجرين والأنصار، ونقص العلم وظهور الجهل، واشتباه الأمر على كثير من الناس، لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم، للخاصة والعامة، أعظم مما يظهر ضلال الخوارج والرافضة» .

وما جعل بعض العلماء ينتصبون للدفاع عن تدين العامة، إلا مجاراة للعوام والتقرب منهم، ومن مغرضى الحكام لنيل منصب أو حطام، وهذا ظاهر فى هذا الزمان؛ لا يختلف فيه اثنان. وقد عد فى الزواجر من الكبائر تعلم العلم للدنيا وكتمانه، وعدم العمل به، والدعوى فيه وجلب فى ذلك من الآيات والأحاديث والآثار، ما يطول تلخيصه، فلينظره من يهتم لغده : «فى الكبيرة الثالثة والأربعين وما بعدها من ذلك الكتاب». وفى رسالة ابن الجوزي عن الحسن البصري أنه قرأ : ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون**﴾. فقال : «ياعجباً لمن يخاف ملكاً أو يتقى ظالماً بعد إيمانه بهذه الآية، أما والله لو أن الناس إذا ابتلوا صبروا لأمر ربهم لفرج الله عنهم كربهم، ولكنهم جزعوا من السيف، فوكلوا إلى الخوف ونعوذ بالله من شر البلاء». (ص٤٧).

حكايتان عن المجاوي والونيسي :

حدثنى تلميذ للشيخ عبد القادر المجاوي أن هذا الشيخ رأى

ذات يوم بيده رسالة محمد عبده فى التوحيد، فانتهره لنظره فيها، واغلظ له القول فى مؤلفها. فأمهله هذا التلميذ ثم راجعه مرة أخرى فيما سمع منه، فأثنى له على الشيخ محمد عبده، واعتذر له عما اسمعه فيه أولاً، بمجاراة العامة التى كانت لذلك العهد لا تذكر بالشيخ عبده إلا الالحاد، والافساد فى الدين.

وحدثني آخر عمن حضر «زردة» بكدية عاتي، من مدينة قسنطينة مع الشيخين عبد القادر المجاوي وحمدان الونيسي، انهم كانوا فى بيت كتان نسميه القيطون فقام أحدهم متلهفاً أن يفوته طعام الزردة وبركتها. فقال له الشيخ حمدان: أي بركة فيها، ان طعامها حرام، ومجيئنا إليها حرام.

هذان الشيخان، هما من شيوخ شيوخنا، وهما أشهر شيوخ الجزائر لعهدهما، ومن هاتين الحكايتين عنهما نرى كيف يضيع الدين وينمو المنكر. وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: «إذا التمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين، ظهرت البدع». رواه ابن وضاح فى رسالة البدع والنهى عنها (ص٣٩) ولقد نصح من قال:

ولدتك، إذ ولدتك، أمك باكياً — والقوم حولك، يضحكون سروراً
فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا — فى يوم موتك، ضاحكاً مسروراً

(٦)
معنى الشرك وأقسامه

قاعدة الحكم على الشيء فرع تصوره :

كلامنا فى الفصل الخامس عن الشرك ؛ من ناحية ذرائعه وطبائعه ، يدخل فى باب الحكم عليه . وحديثنا عنه الآن من جهة معناه ، وأقسامه ، يعد من قبيل التصور ، والحكماء يقولون : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فمقتضى هذه القاعدة تأخير الفصل الخامس ، عن هذا الفصل ، ولكنا سلكنا هذا الترتيب لأن التصور الذى ينبنى عنه الحكم ويتوقف عليه ، هو الشعور بأصل معنى الشيء ، وهذا القدر من معنى الشرك حاصل للمسلمين ، ولهذا ينفرون منه ، بل يكاد تصور الشرك يكون ضرورياً لكل ناطق بالعربية ، ولذلك لم تعن كتب متن اللغة بتحديد معناه كما اعتنت بضبط ألفاظه . والتصور الذى نحاوله هنا ، هو تحرير معنى اللفظة لغة وشرعاً ، وضبطها نطقاً ووضعاً ، وهو بالعلم انسب ، وكلامنا فى الفصل الخامس إلى الوعظ أقرب . فآثرنا تقديم الوعظ الذى هو خطاب للقلوب ، على العلم الذى هو حديث إلى العقول ، لأنني أرى مصيبة هذا الجيل فى قلوبهم اعظم من مصيبتهم فى عقولهم .

معنى الشرك فى اللغة :

تقول شركته فى الأمر أشركه ـ من باب تعب ـ شركاً وشركة بفتح الأول وكسر الثانى فيهما ، ويخففان بكسر الأول وسكون الثانى . وذلك إذا صرت له شريكاً وشاركته كذلك وأشركته ؛ جعلته شريكاً قال

تعالى : ﴿وأشركه فى أمري﴾ . أى اجعله شريكي فيه وشركت بينهما فى المال تشريكاً واشتركنا وتشاركنا فى الشيء قال الجعدي :

وشاركنا قريشاً فى تقاها وفى أحسابها شرك العنان

والعنان سيرا اللجام المعترضان عن يمين عنق الدابة وشمالها ، يكنى به عن المساواة .

والشرك بالتخفيف ، أغلب فى الاستعمال ، ويكون مصدراً واسماً بمعنى النصيب . كما فى قولهم : أعتق الرجل شركاً له فى عبد . والشراك ككتاب سير النعل على ظهر القدم ، يقال : منه أشركت نعلي وشركتها تشريكاً ؛ إذا جعلت لها الشراك . والشرك بفتحتين حبالة الصائد واحدتها شركة . ويكون الشرك جمعاً لشركة ، بمعنى معظم الطريق ووسطه . هذا تلخيص كلام الجوهري فى صحاحه ، والفيومي فى مصباحه .

وقال الراغب الأصفهاني فى مفرداته : «الشركة والمشاركة ؛ خلط الملكين ، وقيل هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً ، عيناً كان ذلك الشيء ، أو معنى كمشاركة الإنسان والفرس فى الحيوانية ، ومشاركة فرس وفرس ، فى الكمتة والدهمة» . وعبارة الراغب الثانية فى شرح الشركة ؛ أعم من الأولى ، لأن كون الشيء لاثنين يشمل ما كان لهما ملكاً كالمال أو وصفاً كالبياض والكمتة ؛ أو جزءاً ذاتياً كالحيوانية .

ومرجع مادة الشرك . إلى الخلط والضم ؛ فإذا كان بمعنى الحصة من الشيء يكون لواحد وباقيه لآخر أو آخرين كما فى قوله تعالى : ﴿أم لهم شرك فى السموات ؟﴾ فالشريك مخالط لشريكه ، وحصته منضمة لنصيب الآخر ، وإذا كان بمعنى الحبالة فإن ما يقع فيها من الحيوان ،

يختلط بها وينضم إلى ملك الصائد. وإذا كان بمعنى معظم الطريق، فإن أرجل السائرين وأقدام الماشين، تختلط آثارها هنالك وينضم بعضها إلى بعض، وإذا كان بمعنى سير النعل، فإن النعل تنضم به إلى الرجل، فيخلط بينهما.

ثم اجتماع الشركاء في شيء لا يقتضي تساوي أنصبائهم منه، ولا يمنع زيادة قسط على آخر. فموسى يسأل ربه اشراك أخيه له في الرسالة، وقد أجيب سؤاله لقوله تعالى: ﴿**قد أوتيت سؤلك ياموسى**﴾. وضروري أن حظ هرون من الرسالة، دون حظ موسى. ولهذا تقول فلان شريك لغيره، في دار أو أرض أو بضاعة، ولولم يكن له منها إلا معشار العشر، بل الأجير على جزء من الربح كالخماس، وعامل القراض شريك لرب المال، من غير أن يكون له حظ من الأصل. هذا في الحسيات. ومثله في المعنويات تقول: الأبوان شريكان في طاعة ابنهما لهما وإن كان حق الأم في الطاعة أقوى. وتقول: أبنائي شركاء في محبتي، وأنت تحب بعضهم أشد من بعض. هذا تقرير معنى الشرك لغة.

معنى الشرك في الشـــرع:

أما في الشرع، فقد فسره صاحبا الصحاح والمصباح بالكفر، وجعله الراغب على ضربين فقال: «أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى يقال أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر. قال: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾، وقال: ﴿**ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾، ﴿**ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة**﴾، ﴿**يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً**﴾، وقال: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا**﴾.

والثانى : الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله : ﴿**شركاً فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ـ وما يؤمن أكثرهم بالله، إلا وهم مشركون**﴾ وقال بعضهم معنى قوله إلا وهم مشركون، أي واقعون فى شرك الدنيا أى حبالتها. قال : ومن هذا ما قال ﷺ : «الشرك فى هذه الأمة، أخفى من دبيب النمل على الصفا». قال: ولفظ الشرك، من الألفاظ المشتركة. وقوله: ﴿**ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾ محمول على الشركين. وقوله: اقتلوا المشركين. فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعاً.

هذا كلام الراغب، وقد اشتمل على آيات فى استعمال القرآن لمادة الشرك بالمعنى الشرعى، وهى تفصح عن موافقتها لأصل المعنى اللغوى سنة الحقائق الشرعية، فى انبنائها على الحقائق اللغوية. وبيان الشرك بالكفر، تساهل فى المعنى، قربه اتحادهما فى الحكم. وقد فرق بينهما أبو هلال العسكرى، فى كتابه الفروق اللغوية، فقال :

«الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب فمنها الشرك بالله، ومنها الجحد للنبوة، ومنها استحلال ما حرم الله، وهو راجع إلى جحد النبوة، وغير ذلك مما يطول الكلام فيه، واصله التغطية». (ص ١٨٩)
ثم قال :

«الفرق بين الكفر والشرك، ان الكفر خصال كثيرة على ما ذكرنا. وكل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان، لأن العبد إذا فعل خصلة من الكفر، فقد ضيع خصلة من الإيمان. والشرك خصلة واحدة، وهو إيجاد الوهية مع الله، أو دون الله. واشتقاقه ينبىء عن هذا المعنى، ثم كثر حتى قيل لكل كفر شرك، على وجه التعظيم له والمبالغة

فى صفته . وأصله كفر النعمة ، ونقيضه الشكر ، ونقيض الكفر بالله الإيمان ، وإنما قيل لمضيع الإيمان كافر لتضييعه حقوق الله تعالى ، وما يجب عليه من شكر نعمه ، فهو بمنزلة الكافر لها . ونقيض الشرك فى الحقيقة ، الإخلاص ، ثم لما استعمل فى كل كفر ، صار نقيضه الإيمان» . (ص ١٩١) .

ومحصل كلام أبي هلال ، أن الشرك والكفر مختلفان فى الأصل ، متحدان فى استعمال الشرع ، فهما كالإسلام والإيمان . واستعمال الكفر فى التغطية ، شائع فى لسان العرب ، قال لبيد فى معلقته : (فى ليلة كفر النجوم غمامها) . ويبين كون الشكر ، نقيضاً له قوله تعالى : ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ، إن عذابي لشديد**﴾ . ولم يحضرنى الآن ، مقابلة القرآن للشرك بالإخلاص ، ولكن فيه مقابلة النفاق ، الذي هو من شعب الشرك ، بأشياء منها الإخلاص . وذلك قوله : ﴿**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله**﴾ . وفائدة البحث ، عن مقابل كل من الشرك والكفر ، زيادة الكشف عن معناهما ، وفضل التمكن من تصورهما تصوراً واضحاً .

وكما لا تقتضي الشركة ، لغة تساوي الشركاء فى الحصص ، لا يقتضى الشرك شرعاً مساواة الشريك لله فى جميع صفاته ، أوفى صفة منها ، بل يسمى المرء مشركاً ، عند الشارع ، بإثباته شريكاً لله ، ولو جعله دونه فى القدرة والعلم مثلاً . فأما حكايته تعالى عن المشركين ، قولهم : ﴿**تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين**﴾ . فالتسوية

فيه تسوية فى الطاعة والانقياد، لا فى القدرة على الخلق والايجاد، فهى كآية البقرة : ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾ .

إن الله جل وعلا، لا يقبل أن يشرك به الأبرار ولا الفجار، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا يرضى شركه عظيم فى القدر والمنزلة، كمن أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا شركة عظيم فى الخلق والحجم، كالشمس والقمر، وسائر الكواكب، وقد رد القرآن كل شرك، كيفما كان اعتباره من القوة والضعف .

قال تعالى : ﴿**إن كل من فى السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً**﴾ ، ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً**﴾ ، ﴿**ولا يأمركم أن تتخذوا الملئكة والنبيين أرباباً، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**﴾ ، ﴿**وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟**﴾ . هذا بياننا للشرك الشرعى ، فإن كان فيه طول فإنا نقصد فيها نبسط إفهام العامة وإفحام المعاندين .

أقسام الشرك وأحكامها :

وأقسام الشرك، قد استوفتها آية سبأ . قال تعالى : ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ . فجعلت الآية أقسام الشرك أربعة ونفتها كلها ولنضع لكل قسم اسما يمتاز به . الأول : شرك الاحتياز، فنفى سبحانه أن يكون غيره مالكاً لشىء يستقل به، ولو كان فى الحقارة مثقال ذرة فى العالم العلوى، أوفى العالم السفلى، الثانى : شرك الشياع، فنفى سبحانه أن يكون لغيره نصيب يشاركه فيه كيفما كان هذا

النصيب، فى المكان والمكانة، الثالث : شرك الإعانة، فنفى جل شأنه أن يكون له ظهير ومعين من غير أن يملك معه، كما يعين أحدنا مالك متاع، على حمله مثلاً، الرابع : شرك الشفاعة، فنفى تعالى أن يوجد من يتقدم بين يديه يدل بجاهه ليخلص أحداً بشفاعته. فهو تعالى لم يقبل من أقسام الشركة حتى أضعفها وأخفاها؛ وهى الشركة بالجاه فى تحصيل السلامة والنجاة، إلا بعد الإذن للشفيع، وتعيين المشفوع له. وحينئذ لا تكون فى الشفاعة رائحة الشركة، بل الشفاعة كغيرها من وجوه النفع، هى : لله وحده. ولم يخرج عن الآية شىء من أقسام الشركة، لان الشريك إما فى الملك، وإما فى التصرف. والأول : اما أن يختار قسطه، وأما أن يكون على الشياع. والثانى : اما أن يعين المالك، واما أن يعين أحداً عند المالك، فتلك الأقسام الأربعة مرتبة ترتيبها فى الآية. وتلك الأقسام على ظهورها من الآية، لم أر من أعرب عنها هذا الإعراب.

وقسم أبو البقاء الحنفي فى كلياته الشرك إلى ستة أقسام، فقال : «والشرك أنواع : شرك الاستقلال، وهو إثبات شريكين مستقلين، كشرك المجوس. وشرك التبعيض، وهو تركيب الإله من آلهة كشرك النصارى. وشرك التقريب، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى، كشرك متقدمى الجاهلية. وشرك التقليد، وهو عبادة غير الله تبعاً للغير، كشرك متأخرى الجاهلية. وشرك الأسباب، وهو اسناد التأثير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبائعيين، ومن تبعهم على ذلك. وشرك الاغراض، وهو العمل لغير الله.

«فحكم الأربعة الأول الكفر بإجماع. وحكم السادس، المعصية من غير كفر باجماع. وحكم الخامس، التفصيل فمن قال فى الأسباب

العـاديـة انهـا تؤثـر بطبعها فقد حكي الإجماع على كفره ، ومن قال إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها ، فهو فاسق» . (ص٢١٦) .

وهذه الأقسام متفاوتة قوةً وضعفاً ، ولكنها متحدة فى الحكم عليها بالكفـر إذا استثنينـا أحـد وجهى النـوع الخـامس . امـا السادس ، فقد اخـرجـه أيضـاً أبـو البقـاء وحقه التفصيلِ كالذى قبله ، فإن العمل لغير الله ، إمـا نفـاق أو رياء . والأول كفر اتفاقاً ، والثانى معصية من غير كفر اجمـاعـاً . ولكن ما خرج من هذه الـوجـوه عن حكم الكفـر ، فإنه ذريعة إليه ، ولهذا تناوله لفظ الشرك كبقية الأقسام .

والنـوع الثـانى عنـد أبي البقـاء ، خارج عن الآيـة لبعـده عن العقـل ، والطبـع معـاً . والأول عنـده شامـل للأول والثـانى فى الآيـة ، والثـالث والـرابـع عنـده يشملهـما الـرابع فى الآية ، والخامس والسادس يتنـاولهـما الثـالث فى الآيـة ، الـذى هو شرك الإعـانـة لأن المعتمـد على الأسباب مستعين بها ، والمرائى والمنافق مستعينان بمن يعملان له .

نعوذ بالله من جملة الشرك ، وتفصيله قويه وضعيفه ، جليه وخفيه .

إن الأمور دقيقها   مما يهيج له العظيم

(٧)

الشرك فى قوم نــــــوح

مبـدأ الشـــــــــرك :

أول ما عرفـوا بالشـرك قوم نوح عليـه السلام ، وأول ما وقعوا فيه منهم : القبـوريـون ، المنصـرفـون بقلوبهم إلى المـوتى من صلحائهم ، فكـــان نوح أول رســـول من الله لمقـاومـة الشـرك وإقـامـة الحجـة على المشـركـين ، بتـذكـيرهم بنعم الله ، ووجوب شكرها ودلالتهم على سوء مغبة الشرك ولزوم التبري منه ، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك ، ففقدوا رشدهم ، ولم يفقهوا جدال نبيهم ، وأتوا فى الدفاع عن وثنيتهم ، بما هو خارج عن موضوع النزاع ، وهاك ما حكاه القرآن فى هذا الشأن :

خبط المشركين فى الانتصار لوثنيتهم :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، إني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله ، اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومـه : ما نراك إلا بشـراً مثلنـا ، ومـا نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ . فانظر إلى هذا السفـه والخبـال ، يدعـوهم إلى توحيد الخلاق المتعال ، فيردون عليـه بأنـه بشـر ، وأن من آمن به من الطبقـة المنحطة فى مجتمعهم ، وإنه وهؤلاء المؤمنين ، لا يعلمون لهم فضلاً عليهم ، كأنهم علموا للأصنام فضـلاً على جميـع الأنـام فعبـدوهـا ، واستمروا على هذا الضلال عدة أجيال ، يوصي فيها السلف الخلف بأن يعضوا بالنواجذ على وثنيتهم . وقـــالـوا : **﴿لا تذرن الهتكم ، ولا تذرن وداً ، ولا سواعـاً ، ولا يغـوث ويعوق ، ونسراً﴾** ، وأخذ الخلف بوصية السلف ، فلم يستمعوا لنبيهم ،

على قوة حجتـه ، ولم يتأثـروا بآدابـه على طول مدته ، ولما لم يجدوا مدفعاً لبرهـانـه ، واستبطؤوا عقـوبـة الله لهم ، بطـوفـانه ، قالوا : **﴿يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** .

ذكر نوح فى الكتـــــاب :

صبر صبر هذا الرسول ، وثبت ثباته ، فخلدت ذكره سور القرآن وآيـاتـه . تجد حديثـه فى الأعـراف ، ويـونس وهـود والأنبياء والمؤمنون ، والشعـراء والعنكبـوت والصافات والقمر . واختص بسورة من المفصل ، سميت سورة نوح . وتجـد اسمـه دون قصتـه ، فى سور أخـر . وفى تكرار قصتـه ، والعنـاية بتصريف القول فيها حض للدعاة على سلوك خطته ، وزجـر للأمم ، أن تحذو حذو أمتـه ، وفى ذكـرنـا لتلك السـور ، احـالـة للقارىء على ما فيها من عبر ، ونكتفى هنا بإثبات روايات فيها بيان عن الذريعة التى انتهت بهم إلى الشرك .

الأخبار فى منشأ الشـــــرك :

١ ـ ففى كتاب التفسير ، من صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ قال : «صـارت الأوثـان التى كانت فى قوم نوح ، فى العـرب بعـد . أمـا ود فكـانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ . وأما يعوق فكانت لهمذان . وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع . ـ أسماء رجـال صالحـين ، من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها باسمائهم ،

ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت» .

٢ ـ وأخرج الفاكهي، عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال : «أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح . وكانت الأبناء تبر الآباء . فمات رجل منهم، فجزع عليه فجعل لا يصبر عنه فاتخذ مثالاً على صورته، فكلما اشتاق إليه، نظره ثم مات، ففعل به كما فعل . ثم تتابعوا على ذلك، فمات الآباء . فقال الأبناء : ما اتخذ هذه آباؤ نا إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها» . نقله الحافظ فى الفتح (٨ : ٥٤٣)، والسيوطى فى الدر المنثور (٦ : ٢٦٩) والروايات الثلاث، بعد من الدر أيضاً . وقوله : فجزع عليه، كذا نقله من غير تصريح بفاعل الجزع، ولعل لفظه عليه، محرفة عن ابنه، فيكون هو الفاعل . وبذلك ينسجم الكلام .

٣ ـ وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب ـ رضى الله عنه ـ فى قوله : «ولا يغوث، ويعوق ونسرا، وقد أضلوا كثيراً قال : «كانوا قوماً صالحين، بين آدم، ونوح، فنشأ قوم بعدهم، يأخذون كأخذهم فى العبادة، فقال لهم ابليس : لو صورتم صورهم، فكنتم تنظرون إليهم، فصوروا ثم ماتوا، فنشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها فعبدوها» .

٤ ـ وأخرج أبو الشيخ فى العظمة، عن محمد بن كعب القرظي قال : «كان لآدم خمسة بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فكانوا عباداً . فمات رجل منهم، فحزنوا عليه حزناً شديداً فجاءهم الشيطان فقال : حزنتم على صاحبكم هذا . قالوا : نعم . قال : هل لكم أن أصور لكم مثله فى قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه ؟ قالوا : لا . نكره أن تجعل لنا فى قبلتنا شيئاً نصلى إليه، قال : فاجعله فى مؤخر المسجد،

قالوا : نعم . فصوره لهم حتى مات خمستهم ، فصور صورهم فى مؤخر المسجد وأخرج الأشياء حتى تركوا عبادة الله ، وعبدوا هؤلاء . فبعث الله نوحاً . فقالوا : ﴿**لا تذرن وداً** . . . ﴾ إلى آخر الآية» . وقوله : وأخرج الأشياء لا يظهر له معنى ولعل فيه تحريفاً وحذفاً وأصله : وأدرك الأبناء ، وتناسلوا كما يأتي نحوه ، فى الرواية التالية ، وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس : أن وداً ، ابن لآدم ، وأب لسواع ويغوث ، ويعوق ونسر .

٥ ـ وأخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر قال : «ذكروا عند أبي جعفر ، يزيد بن المهلب فقال : أما أنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله ثم ذكر وداً قال : وكان ود رجلاً مسلماً ، وكان محبباً فى قومه فلما مات ، عسكروا حول قبره فى أرض بابل ، وجزعوا عليه ، فلما رأى ابليس جزعهم عليه ، تشبه فى صورة إنسان ثم قال : أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكون فى ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله فوضعوه فى ناديهم ، وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن اجعل لكم فى منزل كل رجل تمثالاً مثله ، فيكون فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصور لكل أهل بيت تمثالاً مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك ابناؤهم ، فجعلوا يرون ما يصنعونه به وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه الهاً يعبدونه من دون الله . قال : وكان أول ما عبد غير الله فى الأرض ود الصنم الذى سموه بود» .

الجمع بين الأخبار فى منشأ الشرك :

وبين بعض هذه الروايات اختلاف من اربع جهات إحداها : هل الذين مع ود ابناء له أم إخوة له ؟ وليس لهذا الاختلاف اهمية ، فإن

العهد بعيد، والاعلام قد تتعدد والمقصود فى كل حال متحد. ثانيتها: هل حدوث الأصنام وقع على عهد نوح كما تصرح به الرواية الثانية ؟ أم قبله، كما هو ظاهر الروايتين بعدها ؟ ويمكن الجمع، بأن من سميت بهم تلك الأصنام، سابقون على نوح، وتسمية الأصنام بهم، تأخرت إلى زمنه. فترجع الروايتان: الثالثة والرابعة إلى الثانية، ولك أن ترجع الثانية إلى ما بعدها، بأن حدوث الأصنام كان قبل نوح. وإنما أضافته الرواية الثانية إلى عهده لما كان هو الذى عاب الأصنام وقبحها، وهذا الاحتمال الثانى أقرب لأن الارسال لانكار الشرك، إنما يكون بعد ذيوعه وانتشاره فى الأمة، وطول عهدهم بالتوحيد. ويتأيد ذلك بشدة اصرارهم عليه، مع لبث نوح فى محاربته ألف سنة إلا خمسين عاماً. ثالثتها: هل ابتداع التماثيل من برور الأبناء بالآباء كما فى الرواية الثانية، أم من ولوع المريد بشيخه كما فى الرواية الثالثة ؟ وليس هذا من الاختلاف المتعارض، إذ يمكن حدوثه من الفريقين مجتمعين، أو متعاقبين. رابعتها: نسبة هذا الابتداع إلى الناس تارة، وإلى ابليس أخرى، وإلى شيطان فى صورة إنسان فى رواية. وكل ذلك من اختلاف العبارات، الذى لا يختلف به المعنى، فإن شياطين الإنس والجن، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

(٨)

الشـــــرك فى قوم إبراهيم

نبات الشرك بعد الطوفـــــان :

غسـل الأرض الطـوفـان، من وضـر الشرك والعصيان. فلم يبق يومئـذ على وجههـا، إلا ناصع الإيمان. ثم تعاقبت الأجيال حتى حنت الطبـاع إلى معتـاد الضـلال. ففـاء الشـرك بعـد الـزوال، وأرسـل الله المرسلين مبشرين، ومنذرين : ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. . .**﴾.

بعـد الطـوفان بأزمان ظهرت ببابل من أرض العراق أمة الكلدان التى منها النبط : قوم إبراهيم عليه السلام. فكانوا يعرفون الله ويعبدونه ويشـركـون به الكـواكـب، ويتخذون لها الأصنام تماثيل. قال صاعد بن أحمد فى كتابه طبقات الأمم :

الكلدان ومعـــــارفهم :

«وكانت لهم علوم بأرصاد الكواكب، وتحقق بعلم أسرار الفلك، ومعـرفـة مشهـورة بطبائع النجوم وأحكامها، وخواص المولدات وقواها. وهم نهجـوا لأهـل الشق الآخـر من معمـور الأرض، الطريق إلى تدبير الهيكـل لاستجـلاب قوى الكـواكب واظهـار طبائعها، وطرح شعاعاتها عليهـا، بأنـواع القـرابين المؤلفة لها، وضروب التدابير المخصوصة بها. فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة، والنتائج العجيبة. من انشاء الطلسمات وغيرها من صناعة السر» (ص ١٨).

آلهة الكلدان وعبادتهم :

وقال أبو بكر الرازى الجصاص فى كتابه أحكام القرآن : «وكانت علوم أهل بابل، الحيل والنيرنجيات وأحكام النجوم، وكانوا يعبدون أوثاناً عملوها على اسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلاً فيه صنمه، ويتقربون إليها بضروب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم، من موافقة ذلك، للكوكب الذى يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر، فمن أراد شيئاً من الخير والصلاح يتقرب إليه بما يوافق المشترى من الدخن والرقى، والعقد، والنفث عليها. ومن طلب شيئاً من الشر والحرب، والموت والبوار لغيره، تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافقه من ذلك. ومن أراد البرق والحرق والطاعون، تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات.

وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب، إلى ما يريدون من خير أو شر، ومحبة وبغض، فيعطيهم ما شاءوا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ما شاءوا فى غيرهم من غير مماسة، ولا ملامسة سوى ما قدموه من القربان للكوكب الذى طلبوا ذلك منه. فمن العامة من يزعم أنه يقلب الإنسان حماراً أو كلباً، ثم إذا شاء أعاده ويركب البيضة والمكنسة والخابية، ويطير فى الهواء فيمضى، من العراق إلى الهند، وإلى ما شاء من البلدان ثم يرجع من ليلته. وكانت عوامهم تعتقد ذلك، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب، وكل ما دعا إلى تعظيمها اعتقدوه». (١ : ٤٤).

وقال رشيد رضا فى تفسير المنار : «اتخذوا الكواكب أرباباً لما لها من التأثير السببي أو الوهمى فى الأرض، وتوسعوا فى اسناد التأثير إليها،

حتى اخترعوا من ذلك مالا شبهة له، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب النار ونير الأرض والسماء يدبر الملوك، ويفيض عليهم روح الشجاعة والاقدام، وينصر جندهم ويخذل عدوهم، ويمزقه كل ممزق. ويعتقدون نحو ذلك فى زحل، واسمه (بيني) ويعتقدون أن مرداخ - وهو المشترى - شيخ الأرباب ورب العدل والاحكام، حافظ الأبواب التى يدخلها الخصوم، لفصل الخصومات. وأن رنكال، وهو المريخ - كمي الارباب ورب الصيد وسلطان الحرب، فهو يشترك مع زحل فى تدبيره. إلا أن هذا هو المقدم فى الصيد، وذلك المقدم فى الحرب. وأن عشتار - أو - نانا وهى الزهرة، ربة الغبطة والسعادة ومفيضة السرور على الناس. وتمثل فى الآثار بامرأة عارية. وأن نبو - وهو عطارد رب العلم والحكمة». (٧ : ٥٧٠).

عقائد الكلــــــــدان :

وقسم ابن حجر الهيثمي فى الزواجر، وأبو السعود فى تفسيره الكلدانيين باعتبار عقائدهم إلى صابئة دهرية، وإلى وثنية مشركة. ثم الوثنيون على طبقتين : فكانوا ثلاث فرق. الأولى تقول بقدم الكواكب والافلاك، وأنها المدبرة لعالم الكون والفساد، وغنية عن الخالق المدبر. والثانية تقول بألوهيتها، وتأثيرها فى الحوادث بانفسها. والثالثة تقول بحدوثها، وإن لها فاعلاً مختاراً ولكن منحها النفوذ فى العالم، وفوض تدبيره إليها .

موازنة بين شرك الكلدان وقوم نوح :

تطور الشرك عند الكلدانيين. فبعد أن كان بسيطاً مستمداً من حسن الظن ببعض العباد، والمبالغة فى تعظيمهم من غير وقوف عند حد

مشـــروع أصبـح نظـريـاً مستمـداً من خطـا العقـل ، وخيـال الفلسفـة الشعرية . فإذا كان شرك قوم نوح يرجع إلى مظاهر الصلاح في الناس ، فإن شرك قوم إبـراهيم ناشىء عن أسـرار الطبيعة ودقائق الفلك . فشرك الأولـين من شرك التقـريب والشفاعة . وشرك هؤلاء من شرك الأسباب والاعـانـة . ولكن فيـه روحـاً من شرك التقـريب أيضـاً ، لأن فيهم من يعبـدون الأصنـام التي تمثـل لهم الكـواكب باعتبارها واسطة بينهم وبين الله . وهؤلاء يستعظمون التوجه لله من غير واسطة . قال ابن النديم في الفهـرست : «ويقـول بعضهم انـه إذا قرب باسم البـاري كانت دلالـة القربان رديئة ، لأنه عندهم تعد إلى أمر عظيم ، وترك ما هو دونه لما جعله متوسطاً في التدبير» . (ص٤٤٣) .

دعوة إبراهيم للكلدان وما لقي منهم :

هؤلاء الكلدانيون هم الذين بعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السـلام . وحـاجهم فلم يدافعـوه بغـير التقليـد لآبـائهم . ونبههم إلى صفات المعبود بسؤالهم عن قدرة أصنامهم على النفع والضر وسماع من يستغيثهـا وتكليمهم ، فاعـترفـوا بعجـزهـا . ولكن حملتهم الحمية على الانتقـام لها كما تسـاءل عن أكـل تلك الأصنـام لما يقـدم لها تنبيهـاً على خطل رأي فاعليه . ففي الصافات : ﴿**فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقـون فراغ عليهم ضربـاً باليمـين فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبـدون ما تنحتـون والله خلقكم ومـا تعملون**﴾ ومعنى راغ : مال . ويزفون : يسرعون . والمعنى : ان إبراهيم كسر الأصنام بعد سؤاله لها سؤال استخفاف . فأسرع إليه عبدتها منكرين فوبخهم على عبادتهم لما صنعـوه بأيـديهم . وفي الشعراء : ﴿**واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقـومـه ما تعبـدون . قالـوا نعبـد أصنـامـاً فنظـل لها عاكفين . قال هل**

يسمعـونكم إذ تدعـون أو ينفعـونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلـك يفعلون﴾ وفي سورة الأنبيـاء قالـوا : **﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبـراهيم . قال بل فعله كبـيرهم هذا فاسألـوهم إن كانـوا ينطقـون . فرجعـوا إلى أنفسهم فقـالـوا إنكم أنتم الظـالمـون . ثم نكسـوا على رءوسهم ، لقـد علمت ما هؤلاء ينطقـون . قال أفتعبـدون من دون الله مالا ينفعكم شيئـاً ولا يضـركم أف لكم ولمـا تعبـدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾** .

ثبات إبراهيم واصرار قومـــــه :

أصـر الكلدانيـون على وثنيتهم ، مع قيـام الحجة عليهم ، ولجأوا بعـد هذا العنـاد إلى القـوة ، شأن أهـل البغي والاستبـداد . ولم يقطـع إبـراهيم امـام تصلبهم دعوته ، ولا خفف لتوعدهم إياه لهجته بل استمر يقـرع بآيـات التـوحيـد آذانهم حتى غصـوا به على انفراده واجتماعهم ، وكـون السلطـان سلطـانهم . وإذ لم ينتفعـوا برجـاحـة حجته ، وصراحة كلمته : «فما أضيع البرهان عند المقلد» وإذا هو لم يخضع لطغيانهم ، ولم يبـال بتهـديـدهم فإن سلطـان الله فوق سلطـانهم ووعـده أصـدق من وعيـدهم . فقـد جعله في سلام من الحـريق الأليم وبشره بغلام حليم . وتلك عقبـة المصلحـين التى وعـدهم بها رب العالمين إذ قال : **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** .

(٩)

الشرك في العـــــــرب

وجه الاقتصار على بيان شرك بعض الأمم :

قدمنا الخبر عن شرك قوم نوح لما كانوا أيمة المشركين وقدوتهم الأولين، وأعقبناه بشرك قوم إبراهيم إذ كانت وثنيتهم مركبة من وثنية قوم نوح، والضلال في درس الطبيعة واقتفاء خيال الشعر دون الاكتفاء بحقائق العلم. وقفينا على ذلك بشرك العرب، لأنه متصل بالفريقين بأوثق سبب، وختمنا به هذا الحديث، لانتهائه ببعثة خاتم النبيئين، الذي بشريعته ندين، ومنها تعرفنا أخبار المشركين.

علاقة العرب بإبراهيم وقومه وقوم نوح :

شرك العرب متحد النوع، بشرك قوم نوح حتى ان أوثان أولئك، وقعت إلى هؤلاء، وسبب ابتداع الشركين واحد عند الفريقين، وللعرب اتصال بالكلدانيين فإن الجميع أبناء سام، ولغاتهم متحدة الأصل. ولهم علاقة خاصة بإبراهيم فهو جد العدنانيين، ومن بني عمومة القحطانيين. ثم هو الذي رفع قواعد البيت معقد عزهم، ومنتهى مفخرهم، وترك بينهم ابنه اسماعيل ظهيره في مأثرة بناء الكعبة، ينشر فيهم الحنيفية، وينشر عليهم مما في صحف إبراهيم الذي وفى[1]. وكانوا يعرفون تلك الرابطة النسبية، ويعترفون له بتلك المأثرة التاريخية، ويزعمون انهم حنفاء على ملته، فلم ينكر القرآن عليهم إلا زعمهم

---

(١) لم يكن اسماعيل عليه السلام مقتصراً على تبليغ رسالة إبراهيم بل كان رسولاً نبياً مستقلاً عليه السلام.

هذا، إذ جاء فيه : ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن، كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾ .

العناية بتوضيح الشـــــرك :

والذى دعانا إلى بيان الشرك فى هذه الطبقات الثلاث، هو الرغبة فى شرح حاله، وتوضيحه فصل توضيح، وخصصنا هذه الأمم بالذكر لما بينها من الروابط والأشباه واقتصرنا عليهم لشهرتهم فى وصف الشرك، ولم نتوسع بالتعرض لغيرهم، لأنا لم نقصد إلى تاريخ الأديان، فى مختلف الازمان والأوطان، ولا إلى تقصى ما ذكرنا فى القرآن .

ابتداع الوثنية فى العــــرب :

وسبب مفارقة العرب للحنيفية، وتسرب الوثنية إليهم، ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه ﷺ قال : «رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعي يجر قصبه فى النار، وكان أول من سيب السوائب» . هذا لفظ البخاري فى كتاب أحاديث الأنبياء زاد مسلم فى روايته وبحر البحيرة، وغير دين إسماعيل، ولحي بضم ففتح، والقصب بضم فسكون يجمع على أقصاب، وهى الأمعاء وفى كتب الأخباريين، وأصحاب السير تفصيل عن نشوء الشرك فى العرب، وسبب وثنية عمرو بن لحي تجده فى سيرة ابن هشام، وفى أخبار مكة للأزرقى، ونسوقه هنا من لفظ ابن الكلبي قال فى فاتحة كتابه الأصنام :

«حدثنى أبى وغيره - وقد اثبت حديثهم جميعاً - ان اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملؤوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا فى البلاد والتماس

المعاش. وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له. وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث إبراهيم واسماعيل عليهما السلام. ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا (استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على ارث ما بقى فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه فكانت نزار تقول - : إذا ما اهلت : لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك. الا شريك لك. تملكه وما ملك. فيوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده، يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾. «أى ما يوحدوننى بمعرفة حقى، الا جعلوا معي شريكاً من خلقى».

«وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجاً، قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم. فكانا أمام ركبهم فيقولان : نحن غرابا عك. فتقول عك من بعدهما : عك إليك عانيه. عبادك اليمانيه. كيما نحج الثانيه. وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك، ووقفت فى المواقف نفرت من النفر الأول، ولم تقم إلى آخر التشريق».

«فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان،

وسيب السائبة. ووصل الوصيلة وبحر البحيرة، وحمى الحامية عمرو بن ربيعة - وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الازدي، وهو أبو خزاعة. وكانت أم عمرو بن لحي فهيرة بنت عمرو بن الحارث ويقال: قمعة بنت مضاض الجرهمي (قمعة بفتحتين وبكسر فتشديد) وكان الحارث، هو الذى يلى أمر الكعبة. فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه فى الولاية وقاتل جرهما، ببني إسماعيل، فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم.

ثم أنه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: ان بالبلقاء من الشام حمة ان أتيتها برأت. فأتاها فاستحم بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقى بها المطر، ونستنصر بها على العدو. فسألهم ان يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة (ثم ذكر اسافا ونائلة، والأصنام الخمسة التى كانت لقوم نوح) ثم قال: (فلما صنع هذا عمرو بن لحي دانت العرب للأصنام وعبدوها واتخذوها).

ومصير أصنام قوم نوح إلى العرب، تقدم عن ابن عباس فى الفصل السابع، ولم نرفى وجه ظهور تلك الأصنام فى العرب رواية تطمئن النفس، إلا ما نقله الحافظ فى الفتح عن السهيلى أنه قال فى كتابه التعريف: «ان يغوث هو ابن شيث ابن آدم فيما قيل، وكذلك سواع وما بعده، وكانوا يتبركون بدعائهم، فكلما مات منهم أحد، مثلوا صورته، وتمسحوا بها، إلى زمن مهلاييل، فعبدوها بتدريج الشيطان لهم. ثم صارت سنة فى العرب، فى الجاهلية ولا أدري من أين سرت لهم تلك الاسماء؟ أمن قبل الهند؟ فقد قيل: «انهم كانوا المبدأ فى عبادة الأصنام. بعد نوح أم الشيطان ألهم العرب ذلك؟» (٨ : ٥٤٢).

الجمع بين الأخبار في ابتداع وثنية العرب :

وكلام ابن الكلبي أولاً ، يعطى أن منشأ وثنية العرب ، تبرك المغلوبين من بني اسماعيل ، على الحرم بحجارته وذلك قبل رئاسة عمرو ابن لحي ، التي انتزعها من جرهم إخوال بني إسماعيل . وكلامه أخيراً صريح في أن عمرو بن لحي هو الذي أحدث هذه الوثنية ، فاقتدى به العرب . والأول بالبساطة انسب ، وإلى بداوة العرب أقرب ، وبسنة النشوء والارتقاء اشبه . والثاني هو صريح خبر المعصوم الذي هو حق لا ريبة فيه ، ولكنا نرى الجمع بين الأمرين ميسوراً . فلا ضرورة بنا إلى الترجيح .

ذلك أن عصر المنازعات بين بني إسماعيل ، الذي حدث فيه التبرك بحجارة الحرم قبل أيام عمرو بن لحي ، إنما وقع فيه ذلك التبرك ، من النازحين عن الحرم المتقلبين في البوادي . فكان ذلك التبرك ذريعة إلى الوثنية في بعض بنى إسماعيل ، ومن رأى رأيهم من القبائل البادية ، النائية عن الحرم . أما وثنية عمرو بن لحي التي نقلها من الشام ، فأظهرها بالحرم نفسه وفرقها في الحجاج ، فلم تكن قبله أصنام بالحرم ، حينما كان بنو إسماعيل ينقلون حجارته للطواف بها ولو كانت به يومئذ أصنام ، لقدموا نقلها على نقل مطلق الحجارة . وتقدم هذا الطواف بالحجارة خارج الحرم هو الذي سهل على عمرو بن لحي اعلان الوثنية داخله ، وخارجه ، إذ لو لم يأنس الناس قبله بمبادىء الوثنية ، ما قبلوها منه لما دعاهم إليها . فبنو إسماعيل أول من ابتدع في العرب مبادىء الوثنية ، ولكن على وجه ضعيف غير مشتهر ولا منتشر . وعمرو بن لحي أول من ابتدع فيهم صريح الوثنية على وجه قوي ، وبصفة عامة . هذا وجه الجمع عندي بين حديث المعصوم وخبر النقلة . واطلاق القول بأن

عمـرو بن لحى أول من غير دين إسـماعيـل صحيح ، نظراً لكونه الرئيس المطـاع بالحـرم . والحـرم معقـل الـدين وبأهله يقتـدى سواهم ، فظهور الوثنية منه هو الذى سهل تعميمها فى سائر الأحياء والقبائل ، وضمن لها الحياة والرسوخ . كما ان اسلام الحرم بعد فتح مكة ، هو الذى عمم هذا الـدين بين العـرب ، وسهـل عليهم مفارقة ما ألفوه فى جاهليتهم . فلولا ابتـداع عمـرو بن لحي لبقى الحـرم سالماً من الـوثنية ، فلم يكن لظهور مباديها ببعض البوادى ، شأن ، ولم ترسخ عروقها فى الجهات التى ظهرت بها ، ولم تقـو على الانتشـار منهـا إلى جهـات أخر ، ولم تتعاص على أى محارب لها . فكان المسؤول عن هذه الوثنية ، هم أهل الحرم . والمسؤول عنهم هو رئيسهم : عمرو بن لحي . فكان هو أول من غير الحنيفية باطلاق .

عقيدة العـــــــرب :

ومشـــركـو العـرب ، كأغلب من قبلهم ، لم يكـونـوا يعتقـدون فى شركـائهم أنهم يماثلون الله فى صفـاتـه ، أو يشـاركونه فى إيجاد مخلوقاته ، وإنـما كان شركهم ، شرك تقـريب وتقليـد . فقـد أخبر عنهم القرآن أنهم يفردون الله بالقدرة على الخلق والايجاد ، وبالملك للعالم علويه وسفليه . ونطقت أشعارهم باحاطة علم الله بكل شىء ، وحسابه الخلائق فى الدار الأخـرى . ومـا دلت عليـه الآيـات من انكـارهم للبعث ، لا يوجب ان يكـون ذلـك عقيـدة لهم عامـة ، فقد يكون عقيدة لبعضهم ، وقد يكون علالة للنفس واجابة لهواها فى الفرار من ضبط الإسلام لأعمالها ، وفطمه لها ، عن كثـير من شهـواتهـا . ولم تزد عقيدتهم ، فى أوليائهم وشركائهم ، عن تعليقهم الآمـــال عليهم ، فى تحقيق مآربهم من الله ، لما لهم عنـده فى زعمهم من المنـزلـة والجاه كما ينظر الناس إلى من يتصلون به من حاشية أمير أو ملك فى اسماعه مطالبهم .

عقيدتهم فى أوليائهم :

فأما عقيدتهم فى أوليائهم الذين يسميهم القرآن بهذا الاسم، وبالشركاء وبالشفعاء، وبالآلهة. فقد أعربت عنها آيتا يونس والزمر. وهما : ﴿**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾، ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ .

عقيدتهم فى الله وصفاته :

واما عقيدتهم فى ملك الله وقدرته. فقد افصحت عنها آيات، منها فى سورة المؤمنون : ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله. قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله. قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله. قل فأنى تسحرون**﴾. ومنها فى الزمر : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾. ومنها فى الزخرف : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾. وأما عقيدتهم فى علم الله والبعث، فقال زهير فى معلقته :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب، أو يعجل فينقم

والله فى الموضعين من البيت الأول منصوب. ويكتم وما بعده من الأفعال، مبنية للنائب ما عدا يعلم وينقم آخر البيتين. وتقدمت صيغة تلبيتهم المحددة لوثنيتهم .

الحاجة إلى رسالة عامة :

ولم تزل وثنية العرب من زمن عمرو بن لحي ، تطغى وتشتد وتنتشر وتمتد وتمتص على رقتها أزهار الفضائل ، وتقتص على ضعفها آثار الرذائل ، حتى عم الفساد كل حي وناد ، وقلبت الطباع جل ما للحياة من سنن وأوضاع ، فكان احتياج تام إلى إصلاح عام ، يشمل الفرد والمجتمع ، وينزع بهما أكمل منزع ، يرجع للعقول رشدها ، وللقلوب طهرها وللنفوس تقاها ولا يقوى ذلك الإصلاح على التغلب فى ميدان الكفاح ، الا أن يصدر عن نفس تثبت للعوادي التى تتزلزل لها الرواسى وتدفع عنها عدوى الأدناس ولو اختلطت بكل الناس ثم يقوم على أصول مجلوة ، كتلك النفس ثباتاً وقوةً ، لا تبلي الأيام جدتها ، ولا تنهى الطبيعة مدتها بل تصبو إليها العقول فى رقيها ، ولا تنبو هى عن الاذهان فى هويها .

رسالة خاتم النبيين :

ولقد من الرب الرحيم القادر الحليم ، بتلك النفس فكانت نفس محمد الفذة فى الطهارة والقدس ، وبتلك الأصول المجلوة ، فكانت آيات الكتاب المتلوة ، هنالك نهض الإصلاح نهضته ، وأبلغ العالم دعوته ، فسمع الأصم نبراته ، وأبصر الأعمى آياته ، ولم تزل سيرة ذلك الرسول هى السيرة الراقية ، ولم تزل حجة ذلك الكتاب هى الحجة الباقية .
﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ .

(١٠)

العبــــادة والنســــــك

المبالغــــــة فى التعظيم :

الـذى أوقـع الجهـال فى الشـرك والضـلال، هو المبالغة فى تعظيم بعض المـخـلوقــات، حتـى ألحـقــوه بالتعظيم الخــاص برب الأرض والسمـوات. ومن هنـا نشأت عبـادة غير الله، التى استحق أصحابها، وصف الشـرك واستـوجبـوا بها سخـط مالك الملك، فدعت الحاجة إلى بيان معنى العبادة، ليفرق بين ما هو منها شرعي، وما هو منها شركي.

العبادة فى اللغـــــــة :

فى المـصـبـــاح : «عبــدت الله أعبــده عبــادة. وهى الانقيــاد والخضــوع، والفــاعــل عابـد، والجمع عباد وعبدة. مثل كافر، وكفار، وكفـرة، ثم استعمـل فيمن اتخـذ إلهاً غير الله، وتقرب إليه فقيل : عابد الوثن والشمس، وغير ذلك».

وفى الصحــاح : «تقــول عبـد بين العبـودة والعبـوديـة. وأصـل العبـوديـة، الخضـوع والـذل. والتعبيد التذليل. يقال : طريق معبد. والبعير المعبد المهنوء بالقطران المذلل... والعبادة : الطاعة. والتعبد : التنسك».

وفى مفردات الراغب : «العبودية : اظهار التذلل، والعبادة أبلغ منهـا لأنهـا غايـة التـذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الافضال، وهو الله تعــالى. ولهـذا قال : ﴿**أن لا تعبـدوا إلا إيــاه...**﴾ ويقال : طريق

معبـد : أى مذلـل بالـوطء. وبعـير معبـد : مذلل بالقطران. وعبدت فلاناً : إذا ذللته، وإذا اتخذته عبداً. قال تعالى : ﴿**ان عبدت بني إسرائيل**﴾ .

الفرق بين العبادة والطاعــة :

وفى فروق العسكـرى : «الفرق بين العبادة والطاعة، أن العبادة غاية الخضوع، ولا تستحق إلا بغاية الانعام. ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعـالى، ولا تكـون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود. والطاعة : الفعل الـواقـع على حسب ما أراده المـريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلــك وتكــون للخـالق والمخلوق. والعبـادة، لا تكـون إلا للخـالق. والطاعة فى مجاز اللغة تكون : اتباع المدعو الداعى إلى ما دعاه إليه وإن لم يقصـد التبـع كالإنسـان، يكـون مطيعـاً للشيطـان وإن لم يقصـد أن يطيعه، ولكنه اتبع دعاءه وإرادته (ص١٨٢). ومجاز الطاعة الذى ذكره العسكـرى، لا يختص بها بل تستعمـل فيـه العبادة أيضاً. ففى الكتاب العزيز : ﴿**ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾. ﴿**ياأبت لا تعبد الشيطان، ان الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾. وقال الأعشى :

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تحرير القول فى العبادة لغة وشـرعا :

ودل كلام هؤلاء الأيمة أولاً : أن العبادة كيفما عبر عنها، وكيفما تصـرفت فى الاستعـمال، تحمـل معنى الـذل والسهولة، فالعبد المملوك ذليـل بالـرق، والطـريق المعبد سهل على المارة وتفسير العبادة بالانقياد والخضـوع لأنهـما لازمـان للذل والسهولة. وتفسيرها بالطاعة : توسع.

والعبارة المعربة عن العبادة، هى ما يعبر عنه الجمع بين كلام المصباح، أولـه وآخـره. وهـو الانقيـاد، والخضوع على وجه التقرب. وثانياً : أن سببهـا الـذى تستحق به : هو الانعـام والافضـال. وثـالثاً : أن شرطها معرفة المعبود. ورابعاً : أن مستحقها هو الله وحده.

والتعـريف الـذى استخلصنـاه من المصباح، يتضمن ذلك كله، فإن الانقيـاد والخضـوع إلى أحـد يبعث عليهـما الـرغبة، فيما يملك من نعمة، والتقرب إليه يستدعى معرفته. ثم من اعتقد انفراد الله بالنعم، تقـرب إليـه وحـده بالعبـادة، ومن جهـل فظن غير الله، منعـما بشيء، اعتقـد استحقـاقـه أيضاً للعبادة فوقع فى الشرك. فكان هذا التعريف، أصدق عبارة عن معنى العبادة.

وترى الشيخ محمد عبده، فى تفسير المنار، يتبرم من قصور عبارة المتقـدمـين، عن تحديـد معنى العبـادة، ويطيـل القول، فى تقرير ذلك القصور ثم يجهد نفسه فى استخراج معناها من تتبع آي القرآن وأساليب اللغة، واستعمال العرب فإذا هو لا يخرج عند التأمل عن التعريف الذى ذكرنا. ولكن ننقل من كلامه، ما يصلح إيضاحاً وافياً لتعريفنا، ونرضى عن طوله لبلاغته، وعظم فائدته. قال رحمه الله :

«تـدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على ان العبـادة ضرب من الخضـوع، بالـغ حد النهـايـة ناشىء عن استشعـار القلب عظمة للمعبود، لا يعرف منشأها. واعتقاده بسلطة له، لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق ادراكه».

«فمن ينتهى إلى أقصى الذل، لملك من الملوك، لا يقال انه عبده وان قبل موطىء أقدامه، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف

من ظلمـة المعهـود، أو الـرجاء بكرمه المحدود. اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقـدون أن الملك قوة غيبيـة سماويـة، أفيضت على الملوك، من الملأ الأعلى، واختـارتهم للاستعـلاء على سائـر أهـل الـدنيا، لأنهم أطيب النـاس عنصـراً وأكـرمهم جوهـراً، وهؤلاء هم الـذين انتهى بهم هذا الاعتقـاد إلى الكفـر والالحاد، فاتخذوا الملوك آلهة، وأربابا، وعبدوهم، عبادة حقيقية». (١ : ٥٧).

النســـــــــك :

وتقدم عن الجوهري قوله : والتعبد : التنسك فلنشرح هذه المادة أيضـاً، تمكينـاً لمعنى العبادة فى الذهن. تقول نسك ينسك، فهو ناسك وهم نسـاك، كعبـد يعبـد فهـو عابد، وهم عباد، وزناً ومعنى. والنسك بضمتـين، يكـون مصـدراً بمعنى التعبد والتطوع بالقربة، واسماً للقربة المتطوع بها، وجمع نسيكة. والمنسك : بفتح السين وكسرها، يرد مصدراً وزمـانـاً ومكـانـاً لذبـح النسيكـة. قال الله : ﴿**وأرنـا مناسكنا**﴾. يريد متعبداتنا. وغلبت المناسك فى طاعات الحج قال تعالى : ﴿**فإذا قضيتم مناسككم**﴾ وغلب النسك على الذبيحة، يجبر بها نقص فى الحج، قال تعـالى : ﴿**ففـديـة من صيام، أو صدقة، أو نسك**﴾ والنسيكة كذبيحة وزنـاً ومعنى وتكـون بمعنى السبيكـة من الفضـة. قال فى القـامـوس : «وكأمـير الـذهب والفضـة، وكسفينـة القطعـة الغليظة منه». وقوله منه صوابـه منهـا أى الفضـة كما نبـه عليـه ناقـدوه. وفى الصحاح : نسكت الشىء : غسلتـه بالمـاء وطهـرتـه، فهو منسوك. سمعته من بعض أهل العلم وأنشد :

ولا تنبت المـرعى سبـاخ عراعـر ولـو نسكت بالمـاء ستـة أشهـر

ونبه القرطبي فى تفسيره على ما بين العبادة، والغسل، والسبك، من التناسب فقال : فى المناسبة بين الأولين : «كأن العابد غسل نفسه، من أدران الذنوب بالعبادة» وقال فى مناسبة العبادة للسبك : «كأن العابد، خلص نفسه من دنس الآثام وسبكها». (٢ : ٣٨٦).

التأله :

ويقال بمعنى التعبد والتنسك : التأله أيضاً. تقول أله فلان، كفرح، الاهة إذا عبد عبادة وهو يتأله يتعبد ويتنسك. قال فى الصحاح : «والآلهة الأصنام سموها بذلك، لاعتقادهم أن العبادة تحق لها. وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم، لا ما عليه الشيء فى نفسه» قلت : ياحبذا لو أن عامتنا اليوم تسمى الأشياء تسمية تصور بها عقيدتها فيها، إذن لاسترحنا من عناء هذه الأبحاث، واستروحوا من كلفة التأويل، ولم يبق إلا تعريفهم بحكم الدين. فاما إيمان وتسليم، واما كفر وتصميم .

معنى الإله :

وإذا كانت العبادة هى الانقياد والخضوع على وجه التقرب، فإن الإله هو المعبود، تلك العبادة. فمن قصرها على الله، فقد وحده، وعبد عبادة شرعية، ومن وجد هذا المعنى فى نفسه لغير الله، فقد اتخذ ذلك الغير إلهاً وكانت عبادته شركية، سواء سماه إلهاً، أم لم يسمه إلهاً، وسواء عبر عن المعنى الذى فى نفسه بالعبادة، أم عبر عنه بعبارة أخرى، فإن تسمية الشىء بغير اسمه، لا يبطل حقيقته ولا يغير حكمه وهل ينتفى الاسكار أو الحرمة عن الخمر، إذا سميتها ماء مطلقاً ؟

صور العبادة عند العرب :

وإذا تصورنا معنى العبادة، فلنتعرف بعض صورها المعهودة عند العرب . . . ذلك أن عبادتهم لأصنامهم كانت بالمبالغة فى تعظيمها، والبناء عليها والطواف حولها والتمسح بها، واتخاذ ما يذكر بها فى منازلهم فلا يسافر مسافرهم حتى يكون آخر ما يصنع فى منزله، التمسح بصنمه، ولا يقدم قادمهم حتى يكون أول ما يصنع إذا دخل بيته التمسح به أيضاً. ومن صور عباداتهم لها زيارتها والنذر لها وجعل نصيب لها فى حروثهم، وأنعامهم، والذبح عندها ثم قسم ما ذبح على الحاضرين، واستشارتها فيما ينوون إحداثه ويعتقدون أنهم يكلمون منها، ووضع الاقداح عندها للاستقسام بها، وذلك من استشارتها فإذا عزموا على عمل أوسفر، أووقعت بينهم خصومة كانت الحكومة للأصنام بواسطة الاقداح، فإذا استقسموا بها، عملوا على ما خرج منها وانتهوا إليه. ومن ضروب عبادتهم لها، الحلف بها. قال أوس بن حجر :

وباللات والعزى، ومن دان دينها وبالله، إن الله منهن أكبر

وقد حكى الله عنهم نذرهم فى حروثهم وأنعامهم. فقال : **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم، فلا يصل إلى الله، وما كان لله، فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون﴾**.

قال البغوى : «كان المشركون يجعلون لله من حروثهم، وأنعامهم، وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً، وللاوثان نصيباً فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان، والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها، فإن سقط شىء مما جعلوه لله فى نصيب الأوثان تركوه

وقالوا : ان الله غنى عن هذا! وان سقط شىء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله، ردوه إلى الأوثان وقالوا : انها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص شىء مما جعلوه لله، لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شىء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوا لله» .

الفـــــرع :

ومن نسائكهم التى كانوا ينسكونها : الفرع، والعتيرة، أما الفرع، فهو بفتحتين والفرعة مثله . وهو أول نتاج من الإبل والغنم يقال : أفرع القوم، إذا ذبحوا الفرع، يتقربون بهذا الفرع لآلهتهم يطلبون البركة فى مواشيهم، كما نقله الحافظ فى الفتح عن الشافعى (٩ : ٤٩١) ويرون فى جلده من البركة نحو ما يراه عوامنا اليوم، فى جلد الأضحية، كما يؤخذ من أشعارهم .

العتيـــــرة :

أما العتيرة فعيلة من العتر، تقول عتر يعتر عتراً وزان، ضرب يضرب ضرباً إذا ذبح العتيرة، وتسمى الرجبية أيضاً، لذبحها فى رجب . يقولون : هذه أيام ترجيب، وتعتار. وهى العشر الأول من رجب كما فى الفتح . ينذر أحدهم لصنمه هذه العتيرة فيقول : ان بلغ الله غنمى مائه، ذبحت منها واحدة كما فى الزوزني، على المعلقات، وإن رزقنى الله مائة شاة، ذبحت عن كل عشر شاة فى رجب . كما فى شرح المعلقات للتبريزى وربما ضن الناذر بالشاة المنذورة، فيصطاد مكانها ظبياً . قال الحارث بن حلزة فى معلقته :

عننـا باطـلاً، وظلماً، كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض، الظباء

والعنن بنونين، الاعتراض من عن يعن . والحجرة الناحية وهى

هنـا موضـع الغنم ، والربيض : جماعة الغنم ومكانها ، يقال فيه ربض . والمعنى أنكم تطالبوننا بذنوب غيرنا ، كما ذبح أولئك الظباء عن الشياه .

وكـان من أصنـامهم نهم ، بضم فسكـون يسـدنـه رجـل يسمى خزاعي بن عبـد نهم ، من مزينــه فلما سمـع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره ، وأنشأ يقول :

ذهـبـت إلى نهم لأذبـح عنـده ... عتـيرة نسـك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها ... أهــذا إلــه أبـكـم ليس يعقــل
أبيت . فديني اليــوم دين محمــد ... إلــه السـماء المـاجـد المتفضـل

وقال أحد الكلبيين ، وقد مر بصنم يدعى سعيراً بالتصغير :

نفـرت قلوصى من عتائر صرعت ... حول السعـــير تزوره ابنـــا يقـدم
وجمـــوع يذكـر مهطعـين جنـابـه ... ما ان يحير الـــيـــهـمـــو بتـكـلم

هذه ضروب من عبــادة العـــرب لأصنـامهم ، تجد شواهـدهـا ، وتفـاصيلهـا فى كتـاب الأصنام لابن الكلبى ، وسيرة ابن هشام ، وأخبار مكـة ، للأزرقى . وقـد أفاض ابن النديم ، فى الفهرست القول فى عبادة الكلدانيين ، فاستغرقت أكثر من عشر صفحات (٤٤٢-٤٥٦) .

الغرض من العبـــــادة :

وكـان غرض المشـركـين من هذه العبـادة ، التـوقي من المكـروه ، والترجى للمحبوب ، باتخاذ الأصنام وسائط بينهم وبين الله ، لاعتقادهم أنهم أقـل من أن يرحمهم الله بدون توسطهـا . فاشتـد لذلـك خوفهم من الأصنـام ، وتعلقت قلوبهم بها فى الاستشفـاء والاستسقــاء واستـدرار الأمـوال ، واستيهـاب الـذريـة ، وتعرف العواقب للإقدام ، أو الاحجام على انشاء سفر، أوعقد نكاح ، أوغيرهما .

ومن العرب من أنكر عبادة الأصنام، قبل الإسلام. منهم : زيد بن عمرو بن نفيل. قال :

تركت اللات، والعزى جميعا كذلك، يفعل الجلد الصبور،
فلا العزى أدين ولا ابنتيها، ولا صنمى بني غنم أزور
ولا هبلا، أزور وكان رباً لنا فى الدهر، إذ حلمى صغير

تشديد القرآن فى نكران عبادة الأوثان :

ولكن، لم يقتد بهؤلاء العقلاء القليلين غيرهم، فلم يثمر انكارهم ثمرة، فى المجتمع حتى جاء الإسلام بقوته الروحية ومباديه الراسية، فأعلن القرآن : أن التقرب لغير الله لنيل غرض من أغراض الحياة، على غير الوجه المعتاد، شرك بالله، يبعد من رحمته، ويستنزل شديد نقمته. وكشف عن هذا الضلال بضرب كثير من الأمثال، ففى سورة النساء : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾. وفى الحج : ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح فى مكان سحيق**﴾، وفى العنكبوت : ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت، لبيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون**﴾. وفى النحل : ﴿**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوون. الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون**﴾. ﴿**وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شىء، وهو كل على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوى هو، ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾. وفى الزمر : ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون، ورجلاً سلماً لرجلٍ، هل يستويان مثلاً. الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون**﴾.

اتخـــــــاذ الوسائط :

ونفى تعالى اتخاذ الوسائط فى قبول التوبة، والجزاء على الأعمال. فقال : ﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾، ﴿**ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء**﴾، ﴿**إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون**﴾، ﴿**إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم**﴾. قال القرطبى فى تفسيره : «ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه، ولا أن يعفو عنه». قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدين. «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحبر، أو الراهب فيعطيه شيئاً، ويحط عنه ذنوبه، افتراء على الله. قد ضلوا، وما كانوا مهتدين.

الخوف من المخـــــلوق :

ونفى الخوف من المخلوق بلا سبب عادى، فقال عن ابراهيم : ﴿**ولا اخاف ما تشركون به، إلا ان يشاء ربى شيئاً. وسع ربى كل شىء علماً، أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما اشركتم، ولا تخافون انكم اشركتم بالله، ما لم ينزل به عليكم سلطاناً. فأى الفريقين احق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾. وحكى ما دار بين هود وقومه بقوله : ﴿**أن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال إنى أشهد الله، واشهدوا إنى برىء مما تشركون من دونه، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون**﴾. وخاطب خاتم النبيين بقوله : ﴿**أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾. وضرب مثلاً لهذا الخوف فقال : ﴿**ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم؛ فأنتم فيه سواء، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؛ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**﴾.

وقد عقد القرافي فى فروقه، الفرق الخامس والستين والمائتين للفرق بين خوف المخلوق المحظور، وغير المحظور، وأبدى وجهاً نفيساً للتشبيه فى قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ .

نسبة النفع والضر لغير الله :

وأنكر نسبة النفع والضر لسوى الله فقال : ﴿وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وان يمسسك بخير، فهو على كل شىء قدير - قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن إرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره؟ أو ارادنى برحمة، هل هن ممسكات رحمته؟ - قل ادعوا الذين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضر عنكم، ولا تحويلا : أولئك الذين يدعون، يبتغون إلى ربهم الوسيلة : أيهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، ان عذاب ربك كان محذورا﴾ .

افراد الله بالتصرف والغيب :

وقال فى الاستشفاء عن الخليل : ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ . وقال فى الاستمطار : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ . وقال فى الاستحفاظ من الآفات : ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾؟ وقال فى استمناح الذرية : ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾ . وقال فى استطلاع الغيب : ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ .

تحيل الشيطان لإحياء ما أماته القرآن :

وكل أنواع ضلال المشركين، قد تعددت فيها آيات القرآن

وتنـــوعت لها أســـاليبـه فكشفتهـا كل الكشف ووصفت ادواءهـا غايـة الوصف، وأبانت وجه الحق فيها أبلغ ابانة، وأعانت على سلوك الكمال لمن وفق إليه أنفع اعانة، فولى الشرك إذ ذاك الأدبار، واختفى أيام ظهور القرآن عن الأبصار، فأصبح اسمه من أنصاره بالأمس مهجوراً، ولم يبق في مظاهره بالاحترام مذكوراً، فلما اختفت عنا معاني القرآن، خلع عليه الشيطان ما شاء من ألوان وقدمه لنا بعناوين أخر، غرت من لم يكن تحت رايـة القـرآن والأثـر، فقبلوا آثـاره دون اسمه، ولم يهتم ابليس للنفار من اسمه، بعد حياة رسمه، وتمثل الشرك لهذه الحال، بقول من قال :

تلك آثــارنــا تدل علينـــا   فانظــروا بعــدنــا إلـى الآثــار

(١١) التبرك وسد الزرائـــع

انبناء الحياة على الأسباب :

ان الباحث في أسرار الحياة، وما يحدث في هذا العالم من أحداث يجد لكل شيء سبباً وينتهي إلى الشعور بقوة غيبية تعلو عن الأسباب، وتستغنى عنهـا. ونفتقـر نحن إليها في تيسير الأسباب، لتسيير الأعمال. ومن أظهر مقومات الإيمان، توحيد تلك القوة الغيبية، وتخصيصها بالله. وفي الذكر الحكيم : ﴿**ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله. والله هو الغنى الحميد**﴾.

الخوارق والمخاريـــــق :

ثم إن من الأعمـال، ما تكـون له أسبـاب خفية، لا يدركها قاصر النظـر فيرى أن أصحـابهـا ارتفعـوا عن الحـاجة إلى الأسباب العادية، وأصبحـوا ذوى مكـانـة غيبيـة، وأولى منزلة خصوصية. ومن الناس من تظهر على أيديهم وفي أحوالهم آيات يعبر عنها المتكلمون بالمعجزات في حق الأنبيـاء، وبـالكـرامـات في حق الأوليـاء، فيكـون هؤلاء الأنبيـاء والأولياء مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى، يدعو المتبصر إلى احترامهم والائتساء بهم.

الاعتقاد في أصحاب الخوارق والمخاريق :

ولضعـاف الإيـمان وقليلي المعرفة وبسطاء العقول، امام الفريقين أهـل الآيـات الغيبيـة وأصحـاب الأسباب الخفية، موقفان : **أحدهما**، اعتقـاد ان ذواتهم مصـدر لتلك الخـوارق الحقيقة أو الوهمية فلا يضيفونها إلى الله، **وثانيهما** : اعتقاد أن لهم نفوذاً في إرادة الله، وتحكماً في قدرته،

يستوجبان التوسط بهم إليه فى تحصيل ما قصرت عنه الأسباب. ومن اعتقد أحد هذين الاعتقادين فقد اعتقد عقيدة الكلدان فى الكواكب أو عقيدة العرب فى الأصنام فكان مشركاً صرفاً، وان أشبه الموحدين في شيء من أقوالهم وأفعالهم الدينية.

التبـــــرك :

وهنالك موقف ثالث مع ذينك الفريقين : وهو التبرك بآثارهم وأماكنهم وما يضاف إليهم فى حياتهم من نحو ثيابهم وحيواناتهم، أو ينسب إليهم بعد مماتهم من مثل تماثيلهم وأبنية قبابهم. وليس هذا التبرك نفسه شركاً ولكنه قد يكون ذريعة إليه، كما وقع لقوم نوح فى التبرك بصالحيهم، وللعرب فى التبرك بحجارة حرمهم. وتشابه الباعث على الوثنية، فى أمتين بينهما آلاف السنين، مما يبعث على الحذر من هذا التبرك، ويقوى الظن فى اقتضائه للشرك.

معنى التبـــرك :

ونحن نشرح مادة التبرك ثم نقفى عليه بما جاء فيه إثباتاً ونفياً، ونعقبه بوجه الجمع بين الروايات. قال فى الصحاح : «البركة : النماء، والزيادة. والتبريك : الدعاء بالبركة. وطعام بريك : كأنه مبارك. ويقال : بارك الله لك وفيك وعليك وباركك. وقال تعالى : ﴿**بورك من في النار، وتبارك الله**﴾. أى بارك مثل قاتل، وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى، وتفاعل لا يتعدى. وتبركت به أى : تيمنت به» وقال الراغب : «البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء». قال تعالى : ﴿**لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾. وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البركة والمبارك ما فيه ذلك الخير . . . ولما كان

الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة، هو مبارك وفيه بركة» .

ما جاء فى التبـــرك :

١ ـ وفى كتاب الصلاة من صحيح البخارى «باب المساجد : التى على طرق المدينة والمواضع التى صلى فيها النبي ﷺ» ثم أسند إلى موسى بن عقبة أنه قال : «رأيت سالم بن عبد الله، يتحرى أماكن من الطريق فيصلى فيها ويحدث أن أباه كان يصلى فيها، وأنه رأى النبي ﷺ يصلى فى تلك الأمكنة» ففى فعل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وابنه اثبات للتبرك بآثار النبي ﷺ .

٢ ـ وفى موطأ مالك وسنن النسائى عن محمد بن عمران الأنصارى عن أبيه أنه قال : «عدل إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وأنا نازل تحت سرحة بطريق مكة فقال : ما أنزلك تحت هذه السرحة ؟ فقلت : اردت ظلها فقال هل غير ذلك ؟ فقلت : لا، ما أنزلنى إلا ذلك. فقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : إذا كنت بين الأخشبين من منى، ونفخ بيده نحو المشرق، فإن هنالك وادياً يقال له : السُّرر، به شجرة سر تحتها سبعون نبياً، والسرحة : كتمرة شجرة طويلة ذات أغصان. والأخاشب جبال مكة ومنى. والأخشبان هنا : ما تحت العقبة بمنى، وفوق مسجدها. ونفخ : أشار. والسرر بضم السين وكسرها، وسر بالبناء للنائب يحتمل أن يكون من السرة أى قطعت سرتهم هنالك وقال مالك وابن حبيب : هو من السرور، أى : بشروا عندها بالنبوة. ودل الحديث على التبرك بمواضع النبيين، كما قاله الزرقانى فى شرحه (٢٠ ٢٨٥) .

٣ ـ وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما : كان النبي ﷺ يزور قباء راكباً، وماشياً، فيصلي فيه ركعتين. وفيه اثبات للتبرك أيضا .

٤ ـ وفى الموطأ وكتاب الحج من صحيح البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال للحجر الأسود : «أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبي ﷺ استلمك ما استلمتك» هذا لفظ البخارى. وفيه نفي للتبرك. قال الباجى فى المنتقى ما خلاصته، بيّن عمر للناس أن تقبيل ذلك الحجر، إنما هو اقتداء بالرسول، وليس تعظيماً لذات الحجر أو لمعنى فيه، حتى يكون من تعظيم الجاهلية أوثانها، لاعتقاد النفع والضر فيها. (٢ : ٢٨٧)

٥ ـ وفى رسالة البدع والنهى عنها أن مؤلفها ابن وضاح قال : «سمعت عيسى بن يونس مفتى أهل طرسوس يقول : أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم من الفتنة. قال عيسى بن يونس، وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع» (ص٤٢).

٦ ـ وقال الحافظ فى الفتح : «ثبت عن عمر أنه رأى الناس في سفر يتبادرون إلى مكان فسأل عن ذلك، فقالوا قد صلى فيه النبي ﷺ فقال : من عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض فإنما هلك أهل الكتاب، لأنهم تتبعوا آثار أنبيائهم، فاتخذوها كنائس، وبيعا». (١ : ٤٥٠) ورواه ابن وضاح فى رسالته بنحوه، وبين فى روايته ان ذهاب الناس إلى مصلاه ﷺ كان للصلاة فيه. ثم نقل عن مالك وغيره من علماء المدينة، كراهية اتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ماعدا

قبـاء وحـده، ونقـل عن سفيـان الثـورى ووكيع وغيرهما، ممن يقتدى به عدم تتبع الآثار والصلاة فيها ثم قال :

«فعليكم بالاتبـاع لأيمـة الهـدى المعـروفين، فقد قال بعض من مضى : كم من أمـر هو اليـوم معـروف عند كثير من الناس، كان منكراً عنـد بعض من مضى، ومتحبب إليـه بما يبغضـه عليه، ومتقرب إليه بما يبعده منه، وكل بدعة عليها زينة وبهجة». (ص٤٣).

الجمع بين ما جاء في التبـــــرك :

فأنت ترى من هذا إثبات بعض الأخبار للتبرك، ونفى بعضها له حتى أن عمـر وابنـه لم يتـواردا على التبرك بآثاره ﷺ ومنزلتهما عظيمة فى العلم والـدين ومحبـة أكـرم المـرسلين. ثم التبرك حيث أثبت فى روايات الإثبات فإنما المقصود منه طلب الزيادة، فى ثواب الطاعة. وقال الباجى فى المنتقى موجهاً اعلامه ﷺ لأمته بقصة وادى السرر «وإنما أعلم بذلك ﷺ فيما يظهر إلي والله أعلم لفضل الذكر عندها لمن مر بها، ورجاء اجابة الدعاء وتنزل الرحمة عندها». (٣ : ٨١)

والتـــبرك على هذا الـوجـه عنـدى معقـول لأن ذكـرى الأنبيـاء والصالحين، ورؤ ية آثارهم مما يزيد الموحدين خشوعاً وتعريفاً بتقصيرهم فى طاعـة خالقهم، فتخلص بذلـك عبوديتهم لله تعالى، وحينئذ تكون الإثـابـة على عبادتهم اسمى، وقبول دعائهم أرجى، وطمعهم فى تنزل الـرحمـة اقوى. وروايات نفى التبرك، غير معارضة لروايات إثباته بهذا المعنى، لأن النـافـين إنـما يقصـدون الاحتيـاط، على عقائد العامة أن تزيغ، كما سبق فى توجيه مخاطبة عمر للحجر الأسود، وانه قطع الشجرة خوف الفتنة، وأنه حذرهم أن يهلكوا بتتبع الآثار، هلاك أهل الكتاب .

الاحتيـــــاط :

والاحتيـاط من الضلال مشروع ، ففى الموطأ والصحيحين ، عن عائشـة رضى الله عنهـا أن النبي ﷺ قال : «ألم ترى أن قومـك حين بنوا الكعبـة ، اقتصـروا عن قواعد إبراهيم . قالت : فقلت يارسول الله أفلا تردهـا على قواعـد إبـراهيم ؟ فقال رسول الله ﷺ : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت .

شروط التبـــــرك :

والـذى تفيـده النقـول السابقة فى مجموعها إثباتاً ونفياً وتوجيهاً أن التبرك مشروع ، ولكنه مقيد بقيود . أحدها أن يكون التبرك بفعل طاعة مشـروعـة كصـلاة ودعاء رجاء القبول ، وزيادة الأجر ، لا يحمل تراب أو بخور وغيرهما من أجزاء المكان المتبرك به ، أو الأشياء الموضوعة فيه ، نعم ثبت عن الصحـابـة أنهم تبركـوا بالتمسـح بفضـل وضوئه ﷺ والتدلك بنخامته ، بل ان منهم من شرب دم حجامته ﷺ ولكن لم يرد انهم فعلوا نحـو ذلـك مع غيره ﷺ من خلفـائـه الراشدين ، وأهل بيته الطاهرين . فيكـون هذا الضـرب من التـبرك ، مقصـوراً على ذاته الشريفة منقطعاً بمـوتـه . وقـد بسـط الحـديث فى ذلـك صاحب الاعتصـام (٢ : ٦-٩) **ثانيهـا** : ان لا يحمـل المتـبرك غيره على التـبرك ، ولا أن يدعوه إليه فلا ينصب شىء للعمـوم يتـبركـون به . **ثالثهـا** : أن يتفق له المـرور بمكان التبرك ، لا أن يقصد إليه من بعيد ، ويقتحم السفر من أجله . **رابعها** : أن يكون من المعرفة بدينه بحيث لا تضله خطرات النفس ، ولا نزعات الشيطان ، لا أن يكون ضعيف الإيمان قليل المعرفة . ولقلة اطلاعى لم أر من افصـح عن هذه الشـروط ، ولكنها مقتضى العلم ووحى النصيحة .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، يحتاطون على الاعتقاد أى احتياط حتى لا يزل أو يكدر بالاختلاط .

سـد الذرائـع :

ومن الاحتياط القول بسد الذرائع، وهو مذهب مالك وأصحابه ومروى عن أحمد بن حنبل. وبهذا الأصل منع المالكية صوراً من بيع العينة وبيوع الآجال .

معنى الذريعة لغة وشرعاً :

وضبط ذلك خليل فى مختصره بقوله : «ومنع للتهمة ما كثر قصده» قال فى الصحاح : «والذريعة الوسيلة وقد تذرع فلان بذريعة أى توسل والجمع الذرائع» وفرق أبو هلال العسكرى فى فروقه بين الذريعة والوسيلة فقال : الوسيلة عند أهل اللغة هى القربة والذريعة إلى الشىء هى الطريقة إليه، وليست الوسيلة هى الطريقة نفسها (ص٢٤٨) ومعناها فى الشرع ما قاله القرطبى فى تفسيره : «الذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من أرتكابه الوقوع فى ممنوع (٢ : ٥٨) وبنحو هذا عرف الفقهاء بيوع الآجال، ويشهد لسد الذرائع من الكتاب والسنة نصوص وظواهر نقتصر منها على مايلى :

أدلة سد الذرائـع :

١ ـ قال تعالى : ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم**﴾، فنهى عن سب الآلهة الباطلة حتى لا يسب الإله الحق .

٢ ـ وقال أيضاً : ﴿**واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون**

لا تأتيهم﴾ . وذلك أن الله حرم عليهم الصيد يوم السبت فأمنتهم الحيتان وصارت تظهر لهم ذلك اليوم ، فسدوا عليها فيه تذرعاً بالسد للصيد يوم الأحد، فعاقبهم الله على ذلك، وحكاه على معنى التحذير .

٣ ـ وفى الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهن ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتاها بالحبشة ، فيها تصاوير فقال إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله .

٤ ـ وفيهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : «ان الحلال بيّن وان الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الحديث .

٥ ـ وفيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : «ان من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا يارسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه» ، فجعل التعرض لسب الآباء كسبهم . ولقد أصاب من قال :

ان السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواديها

(١٢) آثار الشرك فى المسلمين

آثار فقد العلم النافع فى الأمم :

ان الأمم متى فقدت العالم البصير والدليل الناصح، والمرشد المهتدى تراكمت على عقولها سحائب الجهالات، وران على بصائرها قبائح العادات وسهل عليها الإيمان بالخيالات، فانقادت لعالم طماع، وجاهل خداع، ومرشد دجال، ودليل محتال، وازدادت بهم حيرتها، واختلت سيرتها والتبست عليها الطرائق وانعكست لديها الحقائق. فتتهم العقل، وتقبل المحال وتشرد من الصواب، وتأنس بالسراب. هذا يتقدم إليها بما له أسباب خفية فتراه تصرفاً فى الكون، وذلك يلقى إليها بأقوال مجملة ينزلها كل سامع على ما فى نفسه فتراه من علم الغيب، وتقول : «سيدى فلان جاء بالخبر» ثم نجد من تسميه عالماً يثبت قدمها فى هذا الخبال، ويزعم لها أن الحقيقة فى هذا الخيال. وفى مثل هذه الحالة جاء حديث الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» .

موازنة بين الجاهلية الغابرة والجاهلية الحاضرة :

ولقد سادت هذه الحالة العالم الإسلامى، فانتهوا إلى جاهلية كجاهلية العرب فى الدين لا فى اللسان والبيان، فقد ارتقى العرب أيام جاهليتهم فى معرفة معانى الكلام والإبانة عما فى أنفسهم بالألفاظ

المؤدية لأصل المعنى، ولكن المسلمين شمل انحطاطهم هذه الناحية أيضاً فلم يكونوا مثل أولئك العرب فى فصاحة اللسان، ووضع الأسماء على مسمياتها فتراهم يعتقدون فى الغوث والقطب وصاحب الكشف، والتصريف معنى الألوهية، ولكن لا يسمونهم آلهة. ويخضعون لأوليائهم ويخشونهم كخشية الله أو أشد، ولا يسمون ذلك عبادة.

محاولة التفرقة بين الجاهليتين فى الدين :

ويفرقون بينهم وبين من سماهم القرآن مشركين بأنهم لم يعبدوا غير الله، ولم يتخذوا معه إلهاً آخر كأولئك المشركين. وربما مازوا أنفسهم من الجاهلية الأولى بأن وصفهم بالشرك جاء من قبل اعتقادهم فى الجماد وغير الصالحين من العباد، أو أن أحداً غير الله يماثله فى الخلق والإيجاد ويقولون نحن إنما نعتقد فى الصالحين الاخيار أن الله جعل لهم النفع والضر فى هذه الدار وتلك الدار فهم يعطون أو يمنعون وبأيديهم مفاتح غيبه، وتحت قبضتهم خزائن فضله، ينزلون الأمطار متى شاءوا ويعافون من أحبوا ويبتلون من أبغضوا، ويهبون لمن أرادوا ذكوراً أو إناثاً أو يزوجونهم ذكراناً وإناثاً، ويجعلون من غضبوا عليه عقيما.

عدم جدوى هذه التفرقة :

وقد قدمنا بيان معنى الألوهية والعبادة فتذكره، ثم أجد النظر فى حال مسلمى اليوم تجد منهم من ألهوا المخلوق وعبدوه. وتبرؤ هم من اللفظ إنما هو لضرورة حكمه الشرعى وجهلهم بالمعنى اللغوى. وما مازوا به أنفسهم عن الجاهلية الأولى فراراً أيضاً من حكم الشرك الذى هو ضرورى وجهلهم بمدلوله فى الشرع والوضع. وقد كشفنا الغطاء على معنى الشرك وصورنا حقيقته عند العرب، ومن قبلهم فى فصول

مرت. فارجع إليها تر تلك التفرقة غير مجدية عند الشارع ولا صحيحة فى الواقع. ثم ان من هؤلاء المسلمين من يعتقدون فى الاحجار، وغير الصالحين من الأشرار ولا يفرقون بين قدرتهم وقدرة الواحد القهار. وهم بعد مسلمون سنيون، متى رضى عنهم شيوخ الطرق أو المرابطون!!

مساواة هذه الأمة لمن قبلها فى حكم السنن الإلهية :

إن ما وقع فيه العرب ومن قبلهم يقع فيه غيرهم بعدهم إذا ما جهلوا مثلهم أصول الدين، وبالغوا فى التبرك بالصالحين. فإن الله يقول : ﴿**سنة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾. وعلماء الاجتماع يقولون «التاريخ يعيد نفسه»، والمتكلمون يحكمون بأن «ما جرى على المثل يجرى على المماثل» فإذا كان مجموع المسلمين قد انتهوا فى الدين إلى جهالة المشركين، فمحاولة تبرئتهم من الشرك غش وتضليل وجحد للشريعة وتعطيل.

صور من الوثنية الحاضرة :

ألست ترى فى أوساطهم قباباً تبذل فى شيدها الأموال، وتشد لزيارتها الرحال، أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات ؟ أم لم تعلم بدور تنعت بدار الضمان تشترى ضمانتها بالأثمان ؟ أم لم تجتمع بذرية نسب للمرابطين اعطاؤها بقوة غيبية. أم لم تتكرر عليك مناظر مكلفين اباحيين يقدسون بصفتهم مرابطين أو طرقيين هذا إلى اجتماعات تنتهك فيها كل الحرمات باسم الزردات، أو تحت ستار الاعتقادات والدعوة إلى أوضاع مبتدعة صدت الناس عن اتباع السنة المطهرة. والخبير بحياة أهل عصره العالم بأصول دينه لا يتردد فى ظهور الشرك وانتشاره، وتعدد مظاهره وآثاره. والعامى الفطرى

لو سألتـه وأفهمتـه لوجـدت عنـده الخـبر اليقـين لإثبات أن أمثاله ـ وما أكثرهم ـ فى ضلال مبين هذا إجمال تفصيله فيما بعد من الفصول .

دخول الوثنية فى أركان الإسلام الخمس :

وارجـع البصـر نحـو أركـان الإسـلام الخمس التى ليس فى كونها عبـادة لبس ، هل تجد المسلمـين يأتـون بها على وجههـا أم يخصـون بها الخـالق جل وعـلا ؟ أنـك تجدهم يشهـدون شهـادة الإخـلاص ثم لا يخلصـون لله ، بل يفـزعـون لأوليـائهم ، ويخشونهم خشية تأليه . وتراهم يصلون ولكن لا يخشعون ، إلا بين يدى من به يتبركون ، ويتساهلون فى اخـراج الـزكوات ويتشددون فى الوفاء بها ينذرون للمزارات والمقامات ، بل يشحـون بما هو منهـا واجب مشـروع ، ويسخـون بالمقـدار المبدوع ، كالمكيـال المقـرر فى الحبـوب للشيـخ عبـد القـادر الجيـلانى . ويصومون رمضـان معـرضـين عن الحجـة الشـرعيـة فى ثبوته وانقضائه ، متعمدين مخالفتهـا إلى أوامـر رؤ سـائهم الـروحيـين من المـرابطـين والطـرقيـين ، ويصبر ون على الجوع والعطش فى زيارة هؤ لاء الرؤ ساء ويألمون لذلك فى الصيام لله ويحجون بقلة ، ويزورون سادتهم بكثرة ، ويطوفون ببعض المـزارات ، ويـوقتـون لها الأوقات ، ويجعلون اعداداً منها تقوم مقام الحج إلى البيت الحـــرام . فهـل تفـرق مع هذا بين جاهليـة عصـر الـوحى ، وجاهلية زمن الاستعباد والبغى ؟

وجوه الشبه بين الوثنيتين الحاضرة والغابرة :

لا فرق بينهـــما فى الجهـــل بما ينـــافي التـــوحيـد ، ولا فى الابتـلاء بالمبتـدعـين والـدجالين ، ولا فى التبرك بالآثار احتماء من الأقدار ، ولا فى التقرب من الاحجار ، والنفور من المرشدين الأخيار ، ولا فى عصيان من

خلقهم وعبادة ما نحتوه، ولا فى افتراق الكلمة والانقسام إلى شيع متعادية أما الذل والخوف والفقر، فحظ زماننا منها أوفر .

علة الانحطاط الحاضر :

ان لم نخسر أنفسنا ، وبقى فيها مكان للأنصاف ، وشعور بحب السلامة اعترفنا بدائنا ، وبحثنا عن دوائنا . ولا داء إلا ما نزل بالعقول من الجهالة ، وران على القلوب من الضلالة ، فلا علم بما يصحح العقيدة ، ولا شعور بما يبعث على الفضيلة ، إلا من رحم ربك . وقليل ما هم . وعلى قلتهم لم تعرفهم العامة فتحتذيهم فى العقيدة والسيرة ، ومن عرفت منهم لم تعرف غير أسمائهم ، فاكتفت بمجرد محبتهم . فهى لا تفتح أبصارها إلا على مناظر البدعة ، واجتماعات التدجيل ، ولا تعرف بصائرها إلا الاعتماد على البركات ، التى ألصقها الوهم ببعض الجمادات ، أومن يرون لهم من الناس خصوصيات ، ولا تعد من صالح أعمالها الذى تعده ليوم مآلها ، إلا المبالغة فى تعظيم آباء وشيوخ ، وكل ما يجعل قدمها راسخة فى الشرك والرذيلة ، كل الرسوخ . أما العز والأمن ، أما السيادة والغنى ، أما الإباء ، والشمم ، فتلك صفات ذهب بها أمس ، وتوارت عن الحس ، لم يعرفها جيلنا حتى ينشدها ، ولم يتذوقها حتى يألم لفقدها ، بل انعكست حقائقها لديه ، فيما انعكس عليه ، من الحقائق . فالعز جبروت ، والأمن جبانة ، والسيادة وظيف حكومى ، والغنى فسوق عمومى ، والإباء جناية ، والشمم كبر .

ان للشرك آثاراً تختفى فى العقائد الباطنة ، وتجرى مع الأقوال اللفظية ، وتظهر فى الأفعال البدنية ، وتبدو فى النفقات المالية . وفى الفصول الآتية نعرض - إن شاء الله - لفصول من تلك الآثار، ونفصل منها ما يلتبس شركية وشرعية ببيان فيه مقمع للمكابر، ومقنع للمتردد

الحائر، وجلاء للعقول الصدئة، وطهارة للنفوس الدنسة، وحياة للقلوب الآثمة. ومن شعر عبدالله بن المبارك :

نصيحة :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب، حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وتلك هى التقوى التى قال فيها ابن المعتز :

خل الذنوب، صغيرها وكبيرها، ذاك التقى
واصنع، كماشٍ فوق أر ض الشوك، يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة : ان الجبال، من الحصى

(١٣) الولايـــــــة

وجه الابتداء فى مظاهر الشرك بالولاية :

الـولاية والكرامة من الألفاظ الدينية المشهورة عند العامة. ولكن التبس عليهم المعنى الشـرعى لها بالمـدلـول الشـركى، فاستغـل ذلـك الالتباس لتضليل الناس. أهل الزهد فى العلم والحرص على المال، من رؤ ســاء الطــرق، وكـل من شايعهم وخـدمهم من علمائهم أضـل من الجهـال. ولبسـوا بتلك الألفـاظ على النقـاد والـوعاظ، فكادوا يلبسون دعـوة المصلحـين، غير لبـاسهـا، ويصلون الى أمنيتهم فى نقضهـا من أسـاسهـا. ولكن الثقـة بالله حصن لا يقوض، وسنته فى علو الحق على البـاطـل ثابتـة لا تنقض. فكم عولوا على ما قولوا، وأجملوا فيما هولوا، وبهتوا فيما نعتوا، وشتموا بما لم يعلموا. كالقائهم الى الحكومة بأنا وطنيون نعمـل للاستقـلال، وبثهم بين العامة إنا وهابيون معتزليون الى أقوال، هى ابعـد فى الخيـال من أحـاديث الاغوال، وإن كانت إياها فى التهويل والتضليـل، عنـد من ليس له فى دينـه كبير تحصيل، وأقوى دعاية أثرت فيمن لم يعنوا بالبحث عن الحق بعض عناية، نسبتنا الى نكران الكرامة والولاية، وما أكثر فى أمتنا اليوم هذا الفريق الذى هو بالرثاء له لا بالجزع منـه خليق. ولهـذا قدمنـا القول فى الولاية وقفينا عليه بالكرامة، بعد ان ازحنا الشك عن معنى الشرك.

المعنى اللغـــــوى :

الولى بفتح فسكون : القرب والدنو، وحصول ثان بعد أول من غير فصـل يقـال : تبـاعد بعد ولى، وكل مما يليك أى يقاربك. ويقال

سقط الولى وهو المطر يلى الوسمي ويحصل بعده. والمطر الولى يقال ايضاً بوزن فعيل.

والولاء بالفتح : القرابة والنصرة يقال بينهما ولاء. وبالكسر الموالاة والمتابعة تقول أفعل هذه الأشياء على الولاء وتوالى عليه شهران. والموالاة بين شخصين تكون أيضاً مضادة للمعاداة .

والولاية بالكسر السلطان يقال وليت الأمر اليه فأنا وال. ونحن ولاة وبالفتح النصرة يقال هم على ولاية إذا اجتمعوا على النصرة. وتكون الولاية بالكسر على هذا المعنى عند الجمهور، وجعلها سيبويه اسماً لما توليته وقمت به .

والمولى ابن العم، والعاصب، والحليف والناصر، والجار .

والولى وزان فعيل ضد العدو من وليه إذا قام به يكون بمعنى فاعل وبمعنى مفعول فمن الأول الله ولى الذين آمنوا، ومن الثانى المؤمن ولى الله للمطيع له. وكل من ولى أمر غيره فهو وليه. ويطلق على ابن العم والناصر والصديق والمحب. تقول توليته إذا جعلته ولياً. ومنه : «ومن يتولهم منكم فإنه منهم». كل هذا من الصحاح والقاموس والأساس والمصباح .

العـــــــداوة :

وفى فروق أبي هلال العسكرى (ص١٠٦) : «العداوة البعاد، من حال النصرة. ونقيضها الولاية وهى القرب من حال النصرة» وفى الأصل الهرب مكان القرب وهو تحريف بين. ثم قال فى الصفحة بعدها : «العداوة إرادة السوء لما تعاديه. وأصله الميل ومنه عدوة الوادى : وهى جانبه ويجوز أن يكون أصله البعد ومنه : عدواء الدار أى

بعدها. وعدا الشيء يعدوه إذا تجاوزه كأنه بعد عن التوسط»، وقال أيضاً (ص١٥٦) : «الولاية قد تكون بإخلاص المودة. والنصرة تكون بالمعونة والتقوية وقد لا تمكن النصرة مع حصول الولاية. . . والولاية بالفتح النصرة لمحبة المنصور لا للرياء والسمعة لأنها تضاد العداوة. والنصرة تكون على الوجهين»، ونقلنا كلامه فى أصل العداوة زيادة فى توضيح ضدها الولاية .

الولي والمولى :

وقال فى المولى والولي : «الولي يجرى فى الصفة على المعان والعين تقول : الله ولى المؤمنين أى معينهم، والمؤمن ولى الله أى المعان بنصر الله عز وجل. ويقال أيضا : المؤمن ولى الله والمراد أنه ناصر لأوليائه ودينه، ويجوز أن يقال : الله ولى المؤمنين : بمعنى أنه يلى حفظهم، وكلاءتهم كولى الطفل، المتولى شأنه .

«ويكون الولى على وجوه منها : المسلم الذى يلزمه القيام بحقه إذا احتاج إليه، ومنها الولى المحالف المعاقد ومنها ولى المرأة القائم بأمرها، ومنها ولى المقتول الذى هو أحق بالمطالبة بدمه .

«وأصل الولى : جعل الثانى بعد الأول من غير فصل من قولهم : هذا يلى ذاك والياً، وولاه الله كأنه يلى أمره ولم يكله إلى غيره. وولاه أمره وكله إليه كأنه جعله بيده وتولى أمر نفسه قام به من غير وسيطة. . . ويجوز أن يقال معنى الولى : أنه يحب الخير لوليه كما أن معنى العدو أنه يريد الضرر لعدوه .

«والمولى على وجوه، هو السيد والمملوك والحليف وابن العم والأولى بالشيء الصاحب. . . وتقول الله مولى المؤمنين بمعنى أنه

معينهم ولا يقـال انهم مواليـه بمعنى أنهم معينـوا أوليائه كما تقول : إنهم أولياؤه بهذا المعنى» (ص٢٣٥) .

وفى مفردات الراغب «الولاء والتوالى ، أن يحصل شيآن فصاعداً حصـولاً ليس بينهـما ما ليس منهـما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبـة ، ومن حيث الـدين ، ومن حيث الصـداقة والنصرة ، والاعتقـاد والـولايـة النصـرة والـولاية تولى الأمر وقيل : الوَلاية والوِلاية واحدة نحو الدلالة ، والدلالة وحقيقته تولى الأمر .

«والولى والمولى يستعملان فى ذلك كل واحد منهما يقال فى معنى الفاعل : أي الموالى ، وفى معنى المفعول : أى الموالى يقال للمؤمن هو ولى الله عز وجل . ولم يرد مولاه وقد يقال : الله تعالى ولى المؤمنين ، ومولاهم .

فمن الأول قال تعـالى : ﴿**الله ولى الـذين آمنـوا ـ ان وليى الله ـ والله ولى المؤمـنين ـ ذلـك بأن الله مولى الـذين آمنـوا ـ نعم المولى ونعم المصـير ـ واعتصمـوا بالله هو مولاكم ، فنعم المـولى**﴾ . ومن الثـانى قال تعـالى : ﴿**قـل ياأيهـا الـذين هادوا إن زعمتم أنكم أوليـاء لله من دون الناس ـ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ـ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق**﴾ .

وفى تفسير الثعالبى : «إذا لازم أحد أحدا ، بنصره ووده واهتباله فهو وليه ، هذا عرفه لغة» (١ : ٢٠٣) .

خلاصة معنى الولايـــــــة :

وإذا أجـدت النظـر فيما جلبناه ألفيت مرجع الولاية إلى النصرة ، والعـون فى محبـة وعطف . وإنما أطلنا فيما نقلنا من تفاصيل استعمالاتها ،

ليسهل عليك فهم تصرفات القرآن فيها إثباتاً ونفياً ومدحاً وذماً وإفراداً وعطفاً .

الولاية الدنيوية الناقصـــة :

فقد أثبتها تعالى بين الكفار والشياطين على معنى الذم لهم فى آيات منها فى النساء : ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان**﴾ . وفى الأعراف : ﴿**إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون - إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون انهم مهتدون**﴾ . وفى الأنفال : ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض**﴾ . وهذا الضرب من الولاية موالاة دنيوية غير خالصة ولا نافعة فى الأخرى لقوله تعالى فى أهلها : ﴿**تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى - كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر فلما كفر ، قال إني بريء منك - يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً**﴾ .

نفى الولاية بين أهل الحق وأهل الباطل :

ونفاها تعالى بين المؤمنين والكافرين ونهى عنها فى مثل آيات العقود والأنفال ، وبراءة ، والممتحنة ، فقال : ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء - مالكم من ولايتهم من شيء - ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان - ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾ .

إثبات الولاية بين أهل الحق :

وأثبتها بين المؤمنين تشريفاً فى مثل ما فى الأنفال وبراءة . فقال : ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ،**

والـذين آووا ونصـروا، أولئـك بعضهم أوليـاء بعض ـ والمؤمنـون والمؤمنات، بعضهم أولياء بعض﴾ .

إفراد الله بالولايـة :

وخص تعـالى نفسـه بها وأبطـل ولايـة غيره فى آيـات بالبقـرة، والأنعـام، والأعـراف، وهود، ويوسف، والشورى. فقال : ﴿الله ولى الـذين آمنـوا يخرجهم من الظلمات إلى النـور، والذين كفروا اولياؤهم الطـاغـوت، يخرجـونهم من النـور إلى الظلمات ـ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطـر السمـوات والأرض وهـو يطعم ولا يطعم ـ ولا تتخـذوا من دونه أولياء. ان وليي الله الذى نزل الكتاب ـ وما لكم من دونه من أولياء ثم لا تنصـرون ـ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويـل الأحـاديث فاطـر السمـوات والأرض أنت وليي فى الـدنيـا والآخـرة، توفني مسلما والحقنى بالصـالحين ـ أم اتخـذوا من دونـه أوليـاء، فالله هو الولي . وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ .

الولايـة التى تختص بالله :

وعطف تعـالى غيره عليـه فيهـا فى مثـل ما فى العقـود والتحـريم فقـال : ﴿إنـما وليكم الله ورسـولـه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ـ وإن تظاهرا عليه، فإن الله هو مولاه، وجبريل وصالح المؤمنين﴾ .

الولاية الخاصـة :

واختص تعـالى من خلقـه طبقـة سماهم أوليـاء، وأثنى عليهم وبشرهم. فقال فى سورة يونس : ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا

هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ .

بيان المراد من تصرفات القرآن فى الولاية :

وليس بين كل هذه المواضيع تعارض، بل هى تجرى على سنن من الارتباط إلى غاية من البيان . فالولاية بين العباد معناها التناصر والتعاون بما يملكون من أسباب النصر، والاعانة حسب جرى العادة، وذلك ممدوح فى الحق والخير ، مذموم فى الباطل والشر، ممكن فى الدنيا بين الأبرار وبين الفجار. وتختص الولاية بالله إذا كانت للفاعل من وليه إذا قام به وأعانه، وتولى حفظه ورعايته ، لأنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت، والناصر للعبد الذى يهيىء له الأسباب العادية، ويعينه بما هو خارج عن الأسباب، ويلطف به فيما يلم به . فمن اتخذ ولياً غير الله ، بهذا المعنى فقد اتخذ معه شريكا ولهذا قال فى سورة الرعد : **﴿افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء﴾** . ويشترك غير الله به فيها إذا كانت للمفعول فإن العبد يوالى الله وأولياءه . فمعنى إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، إنما الولي الذى توالونه، وتتولونه لقوله بعد ومن يتول . ومعنى فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين المولى الذى يتولاه رسول الله ﷺ ولهذا جعل الراغب فيما تقدم عنه المولى هنا بمعنى اسم المفعول .

معنى الولي فى الشرع :

والأولياء الذين شرفهم الله بإضافتهم إليه فى سورة يونس، يصح كما سبق عن العسكرى أن يكونوا بمعنى الفاعل لنصرهم دين الله والدعاة إليه، وأن يكونوا بمعنى المفعول لإعانة الله لهم على الإخلاص

فى الطاعة. وعلى التقديرين فهم من جمع إلى صحة العقيدة القيام بالفرائض، والوقوف عند الحدود والتزود بالنوافل، وهذا معنى وصفهم فى نفس الآية بالإيمان والتقوى، ووصفهم فى غيرها بالإيمان مع الإسلام، أومع الاستقامة أومع العمل الصالح أوما فى معنى ذلك.
قال تعالى فى البقرة، وفى النحل، وفى الزمر، وفى فصلت، وفى الزخرف :

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار - ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه - ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملئكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون - ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ .

وفصل هذا المعنى أول سورة قد أفلح المؤمنون وحكم لأهله بقوله : **﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾** .

ووردت فى هؤلاء الأولياء أحاديث أشرفها كما قال ابن رجب فى جامع العلوم والحكم حديث البخارى : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلي مما افترضته عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه. قال القشيرى فى باب الولاية من رسالته : «الولي له معنيان : أحدهما فعيل بمعنى مفعول وهو من يتولى الله سبحانه وتعالى أمره قال الله سبحانه :

﴿**وهو يتولى الصالحين**﴾ . فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته . والثانى فعيل مبالغة من الفاعل وهو الذى يتولى عبادة الله وطاعته فعبادته تجرى على التوالى من غير ان يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى ولياً» .

ومراده بكون عبادة الولى لا يتخللها عصيان ، أنه إن وقع منه الذنب تاب ، ولم يصر عليه كما صرح به فى موضع آخر . وقد قال تعالى : ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ . والوصفان اللذان يجبان لاستحقاق العبد الولاية ليسا جميعاً من كسبه . وإنما الذى من كسبه هو الوصف الثانى بمعنى الفاعل ، ولكن متى صدق العبد فيه أنعم الله عليه بالوصف الآخر الذى بمعنى المفعول .

التحذير من الغلو فى الولي :

وإذا عرفت معنى الولي شرعاً من القرآن والحديث وكلام أهل السنة والجماعة ، فإياك أن تعدو ذلك الحد فيه إن كنت تؤمن بكتاب الله وما صح عن نبيه ﷺ . أما إن كنت تركن إلى علم المتقدمين أو تقبل أقوال الأشاعرة ، أو تثق بآراء الصوفية ، فإن القشيرى ولد فى القرن الرابع وهو من الطبقة الرابعة فى الأشعريين . قال ابن عساكر فى تبيينه : ولولا تأخر وفاته لذكرته فى الثالثة ثم هو فى الصوفية أشهر ، وعلى الحسن من أحوالهم أغير ، وإن بقى بعد هذا فى قلبك من شىء : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء» .

منزلـــة الولي بين الناس :

وحق الـولي حقـاً على العبـاد أن يوالوه ولا يعادوه، وأن يحبوه ولا يبغضـوه، وأن يحترمـوه ولا يهينـوه، فقد جاء عنه ﷺ : «الحب فى الله، والبغض فى الله من الإيـمان». أخـرجـه أبـو داود وغـيره، عن أبي أمامة رضى الله عنــه ومن أحب أحـداً احـترمـه وتقـدم حديث البخـارى فى الأوليـاء وشـدة توعـد من آذاهم وعـاداهم. وعـد ابن حجـر الهيتمي فى الزواجر : معاداة الأولياء من الكبائر.

خفـــاء الولي على الناس :

والـولايـة راجعة فى الحقيقة إلى أمر باطن لا يعلمه إلا الله، فربما ادعيت الـولايـة لمن ليس بولي، أو ادعـاهـا هو لنفسه أو أظهر خارقة من الخـوارق. لكنهـا سحـر أو شعـوذة لا أنهـا كرامة فيظنها من لا يفرق بين الكـرامـة وغـيرها كرامة، ويعتقد أن صاحبها ولي فيضل ضلالاً بعيداً. هذا كلام صاحب الاعتصام (٢ : ٨).

الحـــكم لمعين بالجنة :

ثم من صحت ولايتـه فهـو من أهـل الجنـة قطعاً. ولكنا لا نجزم لأحد بالجنة إلا عن نص وارد فيه لحديث أم العلاء الأنصارية رضى الله عنها : عند البخارى أنه لما توفى أبو السائب عثمان بن مظعون رضى الله عنه ودخل عليه النبي ﷺ قالت : «رحمة الله عليك أبا السائب شهادتى عليك : لقد أكرمك الله عز وجل. فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت : لا أدرى، بأبي أنت وأمى. فقال رسول الله ﷺ : أمـا هو فقـد جاءه اليقـين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله لا أدرى ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بي. قالت فقلت : والله لا أزكي أحداً

بعده أبداً» . قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده فى تفسيره عن البخارى وأحمد : «وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقع لمعين بالجنة، إلا الذين نص الشارع على تعيينهم» (٧ : ٤٥٧)

الحكم لمعين بالولاية :

وإذا لم يجز لنا الجزم لأحد بالجنة مع عدم ورود النص فيه لم يجز لنا الجزم بولايته. قال القرطبى فى تفسيره : «قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات، فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة . . . ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولي لله تعالى، لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمناً، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمناً لم يمكننا أن نقطع على أنه ولى لله تعالى (١ : ٢٩٧) نعم نحسن الظن بمن صلح ظاهره ونرجوله الخير. وقد نقل الفخر الرازي فى تفسيره عن المتكلمين : أن ولي الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل، ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة (٥ : ١٤). ومحصله أن الولاية تقوم على ثلاث قواعد إحداها الإيمان الصحيح، وثانيتها العمل الخالص لله، وثالثتها موافقة السنة. فمن ظهرت عليه هذه الأشياء وتحققت فيه، فهو الولي الشرعي .

الولي عند العامة وعقيدتهم فيه :

أما الولى عند الناس اليوم، فهوإما من انتصب للأذن بالأوراد الطرقية ولوكان فى جهله بدينه مساوياً لحماره. واما من اشتهر بالكهانة وسموه حسب اصطلاحهم «مرابطاً» ولوتجاهر بترك الصلاة، وأعلن شرب المسكرات. وأما من انتمى إلى مشهور بالولاية ولوكان اباحياً لا

يحرم حراماً. وحق هؤلاء الأولياء على الناس الجزم بولايتهم، وعدم التوقف فى دخولهم الجنة، ثم الطاعة العمياء ولو فى معصية الله، وبذل المال لهم ولو اخل بحق زوجته وصبيته، والثقة بهم ولو خلوا بالخرد العين. وبعد فهم المطلوبون فى كل شدة، ولكل محتم بهم عدة. وهم حماة للأشخاص وللقرى والمدن، كبيرها، وصغيرها، حاضرها وباديها. فما من قرية بلغت ما بلغت فى البداوة أو الحضارة، إلا ولها ولي تنسب إليه، فيقال سيدى فلان هو مولى البلد الفلانى. ويجب عند هؤلاء الناس أن يكون علماء الدين خدمة لهؤلاء الأولياء، مقرين لأعمالهم وأحوالهم، غير منكرين لشىء منها، وإلا أوذوا بضروب السباب، ومستقبح الألقاب، وسلبوا الثقة بعلمهم، ووشى بهم إلى الحكام. وذلك حظ الدعاة إلى السنة من مبتدعى هذه الأمة. قال أبو إسحاق الشاطبي فى الاعتصام :

حرص المبتدعة على بدعهم وسلاحهم فى حمايتها :

«ان شأن البدعة فى الواقع، المداومة والحرص على أن لا تزال من موضعها، وأن تقوم على تاركها القيامة وتنطلق عليه ألسنة الملامة، ويرمى بالتسفيه والتجهيل، وينبز بالتبديع والتضليل، ضد ما كان عليه سلف هذه الأمة والمقتدى بهم من الأيمة .

«والدليل على ذلك الاعتبار والنقل. فإن أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السنة، إن كان لهم عصبة أو لصقوا بسلطان تجرى أحكامه فى الناس، وتنفذ أوامره فى الأقطار. ومن طالع سير المتقدمين، وجد من ذلك مالا يخفى (لعله مالا يحصى). وأما النقل فما ذكره السلف من ان البدعة إذا احدثت لا تزيد إلا مضياً. (٢ : ٥٧)

حكم التعيش بالسعايـــــة :

ومن النـاس من يرى معيشتـه فى السعاية بالعلماء المرشدين، وفى مثلهم جاء حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه أنه ﷺ قال : «من أكـل بمسلم اكلة، أطعمـه الله بها أكلة من نار جهنم يوم القيـامة. ومن قام بمسلم مقـام سمعـة، اقـامه الله يوم القيامة مقام رياء وسمعة، ومن اكتسى بمسلم ثوبـاً كسـاه الله ثوباً من نار يوم القيامة. أخرجه الحاكم. قال ابن القيم فى اعلام الموقعين : «ومعنى الحديث أنه توصل إلى ذلك وتـوسـل إليه بأذى أخيه المسلم، من كذب عليه أو سخرية، أو همزة، أو لمزة أو غيبـة. والطعن عليـه والازدراء به، والشهـادة عليه بالزور، والنيل من غرضه عند عدوه ونحو ذلك» ساق ذلك فى جملة الكبائر. (٣ : ٥٦٣)

حكم الولاية العامية :

ان الــولايـة التي صورنـاهـا، ولايـة بدعيـة شركيـة نهى الله عن اتخاذ هـا بمثل قوله : ﴿**ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾. قال البغوي : أي لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله. وهو تفسير بما هو اخفى في الشرك، يشير بالأولى إلى المنع من الاعتماد عليهم فيما هو خارج عن الأسبـاب العـادية. وقد سئل الجلال السيوطي عن قول الناس : «مالي إلا الله وأنت» هل يجوز عمـلا بقـولـه تعالى : ﴿**ياأيها النبي حسبُك الله ومن اتبعـك من المؤمنـين**﴾. فأجـاب بأن ذلك القول لا تشهد لصحته الآية، لأن قوله ومن اتبعك معطوف على الكاف لا على لفظ الجلالة، فيكـون المعنى : الله حسبـك وحسب من اتبعك، واستدل لعدم الجواز بما ورد، ان رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت. فقال له ﷺ : «بل

ما شاء الله وحـده» . وقـد تقـدم الحـديث في الفصـل الخامس . وجواب السيوطي ذكره في الحاوي (١ : ٣٣٧) .

غرور من حكم للولاية العامية بحكم الولاية الشرعية :

علم العلماء الناصحون الفرق بين الولايتين الشرعية ، والشركية ، فاعلنـوا به . وجهله خصـومهم المغـرضون ، وأخفاه من علمه منهم ايثاراً لدنيـا يصيبهـا . أو امـرأة ينكحهـا ، فشـوهـوا ومـوهوا ، ولبسوا ودلسوا ، وبدعوا ، وشنعوا ، ولمزوا ، ونبزوا . ولقن ذلك من اعماه الغرض ، كل من في قلبـه مرض ، ثم اغـتر وا ، فهنئوا نفوسهم بالمحافظة على عقيدة أهل السنـة والجـماعـة . ومـا سنتهم إلا سنـة القبـوريـين ، والطـرقيـين ، وما جماعتهم ، إلا جماعة المغرورين ، والطماعين .

واجب العامة في طلب الحـق :

ونصيحتنـا لهؤلاء ، أن يربعوا على أنفسهم ، ويسألوا أهل الذكر عن حقـائق دينهم ، ولا يقفـوا ما ليس لهم به علم ، ويخلصـوا في طلب الحق ، عسى أن يوفقـوا للظفـر به ، ولا يخدعـوا في علمائهم المـرشـدين ، فإنهم هم من النـاصحـين ، ومن عاقبـة سكـوتهم وضـلال ابنـاء دينهم مشفقـون ، وأن لا تستحـل اعراضهم ، فإن اذايتهم محاربة للدين ، قال ابن عساكر في تبيينه (ص ٢٩) .

التحذير من الوقيعة في علماء الدين :

واعلم يأخي : ـ وفقنـا الله وإيـاك لمرضـاتـه ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيـه حق تقـاته ـ أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم ، والتنـاول لأعـراضهم بالـزور والافتراء مرتع وخيم ، والاختلاق

على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم ، والاقتداء بها مدح الله به قول المتبعين من الاستغفار، لمن سبقهم ، وصف كريم ، إذ قال مثنياً عليهم في كتابه ، وهو بمكارم الأخلاق وضدها عليم : ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم**﴾ . والارتكاب لنهي النبي ﷺ عن الاغتياب وسب الأموات جسيم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم .

(١٤) الكرامــــة

الكرامة في اللغـــــة :

كرم الشيء بضم الـراء كرمـاً بفتحتين ، وكرامة إذا نفس وعز فهو كريم ، وله على كرامة أي عزازة . وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم ، ولا يقال في الإنسان كريم حتى تظهر منه أخلاق وأفعال محمودة .

وكـرمتـه تكـريماً ، وأكرمته اكراماً . عظمته ونزهته ، والمكرمة بضم الـراء : اسم من الكـرم ، والتكـريم . تقـول : فعـل الخير مكرمة ، أي سبب للكـرم ، أو التكـريم . وتكـون الكـرامـة اسـماً أيضاً من الاكرام ، والتكـريم . تقـول : نعم وحبـاً وكـرامـة . وليس ذلـك لهم ولا كرامـة . والاكرام والتكريم ، أن يوصل إلى الإنسان اكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضـاضـة ، أو ان يجعـل ما يوصل إليه شيئا كريماً ، أي شريفاً . هذا كله من الصحـاح والقـامـوس والمصباح ومفـردات الراغب . وقابل الشاعر الكرامة بالمساءة فقال :

جزاني الــزهــدمـان جزاء سوءٍ   وكـنت المـرء يجزى بالكــرامــة

الكرامة في الشـــــرع :

فإذا عرفنـا الكـرامـة في اللغـة ، سهـل علينا أخذ المعنى الشرعي منهـا ، فتكـون في الشرع عبارة عما يصل من الله إلى الولي ، ويظهر عليه من كل نافع عزيز ، نفيس شريف . وقد اختلف علماء الكلام في تحديد هذا الـواصـل من الله إلى الـولي . والمعروف عن الأشاعرة في ذلك ثلاثة

أقـوال : على طرفـين، وواسطة، والطرفان لأبي إسحاق الاسفراييني، وأبي بكر الباقلاني، والواسطة لأبي القاسم القشيري .

تحديد الأشاعرة للكرامـــــة :

فأمـا أبـو إسحق فيقول : ان الكرامة لا تبلغ مبلغ خرق العادة، وإنـما هي اجـابـة دعـوة، أو موافـاة ماء، في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلـك. وكـل ما جاز معجـزة لنبي، لم يجز كرامة لولي. وضبط أبو الحسن المـاوردي الشـافعي ما يخرج عن العادة في عشرة أقسام، ومنع من ظهور أحـدهـا على غير وجـه الاعجاز، حتى لا تلتبس المعجزة بغيرها، ولأن صدق النبي لا يعلم إلا بها، وغير النبوة من الأقوال والأفعال، قد يعلم الصـدق فيهـا بالعيـان، والمشـاهدة. ذكر ذلك في رسالته أعلام النبوة. (ص : ٢٠-٢٢).

وامـا البـاقلاني ومن معه، فيقولون : كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي، جاز أن يكـون كرامـة لولي، من غير استثناء، ومنعوا الالتباس بما لا ضرورة بنا إلى بسطه .

وامـا القشـيري، فيقيـد اطـلاق الباقلاني وموافقيه. قال في باب كرامات الأولياء من رسالته : «ثم هذه الكرامات قد تكون اجابة دعوة، وقد تكون اظهار طعام في اوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمـان عطش، أو تسهيـل قطـع مسـافـة في مدة قريبة، أو تخليصاً من عدو، أو سماع خطـاب من هاتف، أو غير ذلــك من فنـون الأفعــال الناقضة للعادة .

«واعلم أن كثيراً من المقدورات، يعلم اليوم قطعاً انه لا يجوز أن يظهـر كرامـة للأوليـاء. وبضـرورة، أو شبـه ضرورة يعلم ذلك. فمنها

حصـول إنسـان لا من أبـوين، وقلب جماد بهيمة، أو حيواناً وأمثال هذا كثيرة» ومال التاج السبكي في طبقاته إلى تقييد القشيري فقال «وهو حق لا ريب فيه» (٢ : ٦٠).

شرط الكرامـــــة :

وقيـد النـووي في بستـان العـارفين : الكرامة، بأن لا تؤدي إلى رفع أصل من أصول الدين. نقله ابن علان في شرح رياض الصالحين. (٧ : ٣٦٢) وهو كقول أبي إسحاق في الموافقات : «لا يصح أن تراعى وتعتبر، إلا بشرط ان لا تخرم حكماً شرعياً، ولا قاعدة دينية. فإن ما يخرم قاعدة شرعية، أو حكماً شرعياً، ليس بحق في نفسه، بل هو اما خيال أو وهم، واما من القـاء الشيطـان». (٢ : ٢٦٦) ولا نشـك أن هذا القيد مراد لأصحاب الأقوال الثلاثة.

ضابط الكرامـــــة :

وبعـد، فنحن نثبت كرامـات الأولياء، ولا نقيد من ناحية العقل قدرة الله بنوع منها، ولكنا نقيدها من طريق الشرع، بغير ما اعلمنا الله انـه من خواص الألـوهيـة، حتى لا نغلو فيهـا غلواً ينتهي إلى الشـرك، والعياذ بالله. وليست الكرامة هي دليل الولاية، لالتباسها على كثير من النـاس، بما ليس بكـرامة، بل الولاية هي دليل الكرامة، وليس للكرامة تأثـير في الأحكـام الشـرعيـة، ولكنها كما قال أبو إسحاق في الموافقات : «تفيـد لأصحـابهـا يقينـاً وعلماً بالله تعـالى وقوة فيما هم عليه» (٤ : ٨٥) وهـذا صريـح كلام أبي الحسن الشـاذلي إذ قال : «الكـرامة كرامتان : كرامـة الإيـمان بمـزيـد الايقـان، وشهـود العيـان، وكرامة العمل على الاقتـداء والمتـابعـة، ومجـانبة الدعاوي، والمخادعة، فمن اعطيهما، ثم جعـل يتشـوف إلى غيرهما فهـو عبـد كذاب، مفـتر قد اخطأ في العلم

والعمل بالصواب» نقله العروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية (٤ : ١٥٥) وأصل هذا كله قوله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾ .

الحكم على حادث معين بالكرامة :

وقال الشيخ محمد عبده آخر رسالة التوحيد بعد ما ايد قول مثبتي الكرامة : «وإنما الذي يجب الالتفات إليه، هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على انه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة، على يد ولي معين، بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم باجماع الأمة ان ينكر اية كرامة كانت، من أي ولي كان، ولا يكون بانكاره هذا مخالفاً لأصول الدين، ولا مائلاً عن سنة صحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم» .

الكرامة عند العامة :

«أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام، حيث يظنون ان الكرامات، وخوارق العادات، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الأولياء، وتتفاخر فيها هم الأصفياء، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه، واولياؤه، أهل العلم اجمعون» .

ولقد صدق هذا الإمام فيما وصف، ونصح فيما إليه ارشد، ولكنه لم يفصح رحمه الله عن الخسران المبين، الذي أدى إليه هذيان أولئك المسلمين. فإنهم لا يقفون بالكرامة دون التصرف في الكون، وعلم الغيب، بل لا يكادون يفهمون منها غير هذين الأمرين اللذين استأثر الله بهما، فهدموا بكرامتهم أصلين عظيمين، من أصول الدين المقررة،

وصاحوا في وجه من أنكر عليهم هذا المعنى منشدين :

وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

وإذا دعوتهم لتفصل لهم هذا الاجمال : ﴿**لوَوا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون**﴾ .

(١٥) التصرف في الكــون

أقسام نسبة الفعل للمخلوق :

التصــرف في الكــون خاص بالله سبحانه . . . وكل لفظ فيه نسبة الفعــل للمخلوق ، لا يخلومن ثلاث حالات ، احــداهــا : أن تكــون النسبــة على معنى التأثـير في الفعــل من دون الله . ثانيتهــا : أن تكون على معنى التأثـير بجعــل الله وتفويضه ، ثالثتها : أن تكون على معنى الاخبار عن عادة اجراها الله من غير تأثير ذاتي أو جعلي .

حكم نسبة الفعل للمخلوق :

والحــالتــان الأوليان ، هما المحكيتان في الفصل الثامن ، عن وثنيي الكلدانيــين . وعليهــما حمل حديث زيــد بن خالد الجهني ، كل من رأيناه تكلم عليــه . مثــل أبي بكــر بن العــربي ، الــذي نقل كلامه الزرقاني في شرح المــوطأ ، (١ : ٣٤٧) وأبي الــوليد الباجي في المنتقى ، (١ : ٣٣٤) وقبلهما الإمام الشافعي .

حــــديث الجهني في النوء :

ونذكر عبارته بعد إيراد حديث زيد الذي أخرجه مالك والشيخان عنــه . والحــالــة الثالثة ليست كفراً ولكن يمنع منها ما فيه ألهام كما صرح بذلــك البــاجي في المنتقى . وحــديث زيد في الموطأ والصحيحين هوقوله رضي الله عنه : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال : أصبح من عبادي مؤمن بي ، وكــافــر بي ، فأمــا من قال مطُــرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ،

كافر بالكواكب، واما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب» .

معنى النـــــــوء :

وقوله على أثر سماء يريد المطر. والنوء اشتقاقه من ناء ينوء : إذا نهض بجهد ومشقة، أو سقط فهو من الأضداد. كما في الصحاح قال : «والنوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق، يقابله من ساعته في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً. وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة، ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً.

قال أبو عبيد : ولم نسمع في النوء أنه السقوط، إلا في هذا الموضع. وكانت العرب تضيف الأمطار، والرياح، والحر، والبرد، إلى الساقط منها، وقال الأصمعي إلى الطالع منها في سلطانه، فتقول : مطرنا بنوء كذا .

عبارة الشافعي في شرح حديث الجهني :

وعبارة الشافعي شاملة للأحوال الثلاثة، لكنه أجمل الحالتين الأوليين في وجه واحد. وهي قوله في الأم : «من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من اضافة المطر إلى انه مطر نوء كذا، فذلك كفر. كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً. ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفراً وغيره من الكلام، أحب إليه منه» نقله الحافظ في الفتح (٢ : ٤١٩) وقال عقبةيعنى حسماً للمادة، وعلى ذلك يحمل اطلاق الحديث. وحكى ابن قتيبة في كتاب الأنواء، ان العرب كانت في ذلك على مذهبين، على نحو ما ذكره الشافعي .

ما جاء في اختصاص الله بالتصرف :

وهذا الحديث إنباء عن اختصاص الله بالتصرف في الكون، كما أنبأت عنه آيات آل عمران، والانعام، والاعراف، والقصص، والمنافقون، وكثير في معناها. قال تعالى : ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾، ﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك**﴾، ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله. ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء**﴾، ﴿**انك لا تهدي من أحببت**﴾، ﴿**ولله خزائن السموات والأرض**﴾ .

عقيدة العامة في تصرف الأولياء :

ومن وقف على مقاصد الكثير من عوامنا في نسبة الأفعال إلى الأولياء، وتصرفهم في الكون، لم يشك في انطباق الحالة الثانية عليهم، إذ يعتقدون أن الأولياء أعزاء على الله، وقد فوض إليهم التصرف وأنابهم عنه فيه، فما قضوه للناس وافقهم الله عليه. وقد سمعنا من يعبر عن ذلك بقوله : «انا نكذب والله يصدق» وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أنه ﷺ قال : «قال رجُل والله لا يغفر الله لفلان قال الله عز وجل من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؟ اني قد غفرت له، واحبطت عملك». بل منهم من ينتهي به الأمر إلى الحالة الأولى، فيعتقد في الولي أنه يفعل ما يفعل بقوته لا بقوة الله، وتجد من المخذولين من يدعى ذلك لنفسه .

حكايتان عن العامة :

فقد حدثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلساً فيه كاهن سكير، ممن يعرفون في العرف بالمرابطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولداً ذكراً

فأعطـاه إيـاه، وعين له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له : ان وضـع بها فهـو مني، وان خلا منهـا فهـو من الله. ولهـذه الطـامـة أشبـاه ونظـائـر، يعرفها من اختلط بالعامة، وسمع أخبارهم مع أوليائهم، وقد كنت سنـة أربـع واربعين مع فقيه ميلي بمقهى في قسنطينة، فقص علينا رجـل مصيبـة أيس من السـلامـة منهـا، ثم حصل له الفرج، فعبر عن خطورتها قائلاً : «لوما الناس الصالحين...» فقال له صاحبي مرشداً أو منكتاً «وربي» ؟ فأجابه : «ربي والناس الصالحين» فقال له : «وربي وحـده». فلم يجاره وقـال له : «هكذا سمعنا الناس يقولون». ﴿**ربَّنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةً، انك أنت الوهاب**﴾.

(١٦) علم الغيب

معنى الغيب :

قال في الأساس : «أنا معكم لا أغايبكم واراهم يتشاهدون مرة، ويتغايبون أخرى، وأوحشتني غيبة فلان. وقد أطلت غيبتك، وفلان حسن المحضر والمغيب. ولقيته عند غيبوبة الشمس، وتكلم بذلك عن ظهر الغيب، وسمعت صوتاً من وراء الغيب، أي من موضع لا أراه، وشربت الدابة حتى وارت غيوب كلاها، وهي هزومها جمع غيب، وهي الخمصة التي في موضع الكلية. والقوه في غيابة الجب، وهي قعره، وكل ما غيب شيئاً فهو غيابة. ووقعوا في غيابة من الأرض، أي في هبطة، وكأنه ليث غابة، وهو من ليوث الغاب» .

وفي مفردات الراغب أن ما غاب عن الحاسة وعلم الإنسان فهو غيب، وفي منتقى الباجي : «الغيب هو المعدوم وما غاب عن الناس» . (١ : ٣٣٤) وفي أحكام ابن العربي : «حقيقة الغيب ما غاب عن الحواس، مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر» . (١ : ٥) .

ما جاء في اختصاص الله بعلم الغيب :

وقد جاءت آيات وأحاديث، في افراد الله وحده بعلم الغيب. وهي كثيرة تقدم بعضها. ونقتصر هنا من الآيات على ما في الأنعام، والنمل، والجن، قال تعالى : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾ ، ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾ ، ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، الا من ارتضى من رسول**﴾ . ومن الأحاديث على حديثي ابن عمر عند البخاري وعائشة عند مسلم

فالذي في البخاري قوله ﷺ : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة ، ويُنزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير﴾ . ورواه أحمد بلفظ : أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس وذكر الآية . والذي في مسلم هو قول عائشة رضي الله عنها : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، إلى ان قالت في بيان الثالثة «ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية . والله يقول : ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾ .

حكم اضافة علم الغيب للمخلوق :

وقد بسط القول في تحليل مفاتح الغيب أبوبكر بن العربي في أحكامه أول سورة الأنعام ، وحكم بكفر من ادعى علم واحدة منها ، الا من استند في الساعة إلى اماراتها التي أخبر بها النبي ﷺ ، أو من جرى في تعيين ما في الرحم من ذكر أو أنثى على تجربة عادية لم يوجبها في الخلقة ، أو من أخبر بالكسوف والخسوف ، اعتماداً على الحساب لكن هذا الحاسب يؤدب ويسجن لادخاله الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف ، وهم لا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره ، فتشوش عقائدهم في الدين . هذا تحصيل كلامه رحمه الله .

وحكى ابن الحاج في حاشيته على صغير ميارة الاتفاق على كفر من يقول : ان الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . (٢ : ٥٩) ونقل ابن حجر الهيتمي في رسالته : «الاعلام بقواطع الإسلام» عن الرافعي وغيره : كفر من ادعى علم الغيب ، لكنه بحث في هذا الاطلاق وقيده بمن ادعى الغيب في سائر القضايا دون من ادعاه

في بعضها، وجرى على هذا التفصيل في فتاويه الحديثية أيضاً، وهي تفرقة حمله عليها حكايات عن الأولياء، رآها من قبيل علم الغيب. ولكن الصحيح من تلك الحكايات، لا يتناوله علم الغيب. والذي يدخل منها فيه لا يقوم له سند، والصواب الاطلاق. وهو الذي يتمشى مع اطلاق الكتاب والسنة. قال أبو إسحاق في الموافقات: «وقد تعاضدت الآيات والاخبار وتكررت في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو يفيد صحة العموم من تلك الظواهر حسبما مر في باب العموم من هذا الكتاب. فإذا كان كذلك، خرج من سوى الأنبياء من ان يشتركوا مع الأنبياء صلوات الله عليهم، في العلم بالمغيبات» (٤ : ٨٤) ومراده بعلم الأنبياء بالغيب ما كان عن طريق الوحي كما لا يخفى.

ابتداع نسبة علم الغيب للمخلوق:

وقد بين ابن قتيبة لسان أهل السنة في القرن الثالث، مبتدعي نسبة علم الغيب للمخلوق مع الحكم بكفرهم، فقال في رسالة الاختلاف في اللفظ: «غلت الرافضة في حب علي، وتقديمه على من قدمه رسول الله ﷺ وصحابته عليه، وادعائهم له شركة النبي في نبوته، وعلم الغيب للأيمة من ولده. وتلك الأقاويل والأمور السرية التي جمعت إلى الكذب والكفر، افراط الجهل والغباوة». (ص ٤٧) وقد سرت هذه البدعة من الرافضة إلى متأخري الصوفية لاندماج الطائفتين بعضهما في بعض، وانتحال الصوفية كثيراً من العقائد التي ابتدعها الرافضة.

كلام الرازي في علم الغيب:

وقال الفخر الرازي أوائل تفسير سورة البقرة: «الغيب ينقسم إلى ما عليه دليل، وإلى ما لا دليل عليه، أما ما لا دليل عليه فهو

سبحـانـه وتعـالى العالم به لا غيره، وأما الذي عليه دليل، فلا يمتنع ان تقـول نعلم من الغيب ما لنـا عليـه دليـل» . (١ : ٢٥١) وذكر في تفسير آل عمـران، أن الحكمـة فيـما أصاب المؤمنين يوم أحد، تمييز المنافق من المؤمن. ثم قال : «بيّن سبحانه أنه لا يحصل ذلك التمييز بأن يطلعكم الله على غيبـه، فيقـول ان فلانـاً منافق، وفلاناً مؤمن، وفلاناً من أهل الجنـة، وفـلانـاً من أهـل النـار. فإن سنـة الله جارية بانه لا يطلع عوام النـاس على غيبـه، بل لا سبيـل لكم إلى معـرفـة ذلـك الامتيـاز، إلا بالامتحانات مثل ما ذكرنا من وقوع المحن والآفات، حتى يتميز عندها المـوافق من المنـافق. فأمـا معرفة ذلك على سبيل الاطلاع من الغيب، فهـو من خواص الأنبيـاء فلهـذا قال : «ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء» . (٣ : ١٥٥) .

تأويل الرازي لآية الجـن :

وتأول الـرازي آيـة سورة الجن على التخصيص وصـرفهـا عن العمـوم لكـل المغيبـات. واستدل لتأويله بأربعة أمور : الأول : صدق بعض أخبار شق، وسطيح، الكاهنين قبل الإسلام وشيوع ذلك عنهما في العـرب. ثانيهـا : اعتبـار جميـع الملل والأديـان، لعلم التعبير الذي فيه الاخبـار بالمغيبـات. ثالثهـا : صدق أخبـار مغيبـة وقعت من الكـاهنـة البغـداديـة، التي نقلهـا السلطـان سنجـر بن ملك شاه، من بغداد إلى خراسـان. رابعهـا : تحقق إلهـامـات وقعت من الأوليـاء، وغـيرهم من السحـرة، ومطـابقة بعض الأحكام النجومية. هكذا رتب أدلته، وحقه ادخـال الـدليل الثالث، في الأول لشمول الكهانة لهما ثم تفصيل الرابع إلى دليلين. لأن أحكام النجوم غير الالهامات، فلا يجمعها دليل واحد .

بحث في مستند الرازي في ذلك التأويل :

وليس في أدلته تلك ما يفيد تخصيص الآية ، أما أولاً فإنها معارضة بكثرة الظواهر التي تخص الله بعلم الغيب . وذلك يفيد العموم كما قدمنا عن الموافقات ، وأما ثانياً فإن تلك الوجوه التي جلبها ليست من علم الغيب . أما الكهانة فيختلط حقها بباطلها . وذلك يمنع من اطلاق العلم عليها . وكذلك ما لم يضبط من أحكام النجوم ، وما ضبط منها بالحساب ، لم يبق في طي الغيب عند العارفين بقواعده . وأما التعبير والإلهام ، فهما من غير المعصوم غير معصومين من الخطأ . فلا يسميان علماً ما داما في الغيب فإذا تحققا في الخارج ، وصدق عليهما وصف العلم ، ارتفع عنهما حكم الغيب . فإلهام الولي ورؤياه لا يتناولهما علم غيب . وهذا بخلاف رؤيا الأنبياء وإلهاماتهم . فإنها حق يصدق عليها علم الغيب باعلام الله لهم . وقد جعل رسول الله ﷺ رؤيا الأولياء جزءاً ضعيفاً من النبوة . نازلاً عنها بخمسة وأربعين جزءاً فقال : «الرؤيا الحسنة من الرجال الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . أخرجه مالك والبخاري .

الباعث على تأويل المتأولين لنصوص اختصاص الله بعلم الغيب

وقد وعد بعض المتكلمين في كرامات الأولياء رؤاهم وإلهاماتهم في علم الغيب . وكثرت عندهم حتى قامت مقام التواتر المعنوي فلم يجدوا بداً من تأويل نصوص الدين في اختصاص الله بعلم الغيب . والحق ابقاء تلك النصوص على عمومها . واخراج ما هو من قبيل الالهام والرؤيا عن علم الغيب . وصرف ما يراد منه علم الغيب من الحكايات عن باب الكرامات . بما يناسبها من وجوه الصرف .

هذا تقويمنا لكلام الرازي في تفسير سورة الجن، الذي نقض به ما صرح به في تفسير سورتي البقرة وآل عمران. والذي أوقعه في هذه المناقضة وأنساه ما أصلّه أولاً، ولوعه بمناقضة الزمخشري فإنه ادعى في كشافه، ان آية الجن مبطلة للكرامات، ولكن ابن المنير في حاشيته عليه اقام حيفه من غير أن ينقض ما أصله القرآن فقال: «ادعى عاماً واستدل خاصاً فإن دعواه ابطال الكرامات بجميع أنواعها، والمدلول عليه بالآية ابطال اطلاع الولي على الغيب خاصة».

بيان وجهة نظر ابن خلدون في كلامه على علم المخلوق الغيب

وكلام ابن خلدون في بعض فصول الفصل السادس من مقدمته لم ينظر فيه إلى الناحية الدينية، وإنما تأثر فيه بالحكايات التي ظاهرها عدم اختصاص الله بعلم الغيب، مما هو منتشر بين العامة أكثر مما هو معلوم للخاصة. فحاول تعليلها تعليلاً فلسفياً فكان بذلك متطلعاً لفهم أسرار الطبيعة لا متقيداً بتقرير أحكام الشريعة. ونحن نعتقد أن عقول البشر قاصرة عن الإحاطة بأسرار الخليقة، وأن التسليم لنصوص الكتاب والسنة، أولى من التخرص في تعليل مظاهر الكون بما يخالف تلك النصوص.

الالهام والتحديث والفراسة:

وإذ فرقنا بين علم الغيب وما يلتبس به من الرؤيا والالهام، فلنذكر كلمة الشارع في الرؤيا والالهام، ثم نمثل لهما بمثالين كثر ايرادهما في مبحث الكرامات. أما الالهام: فالمراد به الالهام الخاص دون العام الذي قال الله فيه: ﴿**ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها**﴾. والالهام الخاص هو الذي عبر عنه النبي ﷺ بالتحديث إذ قال: «لقد

كان فيـما قبلكم من الأمم ناس محدثـون، فإن يكن في أمتي أحـد فإنـه عمـر». اخـرجـه الشيخان. وعبر عنه أيضاً بالفراسة فقال ﷺ: «اتقوا فراسـة المؤمن فإنـه ينظـر بنـور الله. ثم قرأ قولـه تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيـات للمتـوسمـين**﴾ قال المتفرسين». أخرجه عن أبي سعيد الخدري البخـاري في تاريخـه، والـترمـذي وابن جريـر، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبـونعيم معـاً في الطب وابن مردويـه والخطيب. قالـه في الـدر المنثـور: (٤: ١٠٣). وهذه الفراسة الناشئة عن الإيمان، غير الفراسة الطبيعية والرياضية. كما في شرح العقيدة الطحاوية. (ص ٤٢٥).

قول عمر ياســـــارية:

ومثـالـه قول عمـر رضي الله عنه ياسارية، الجبل قاله وهو يخطب على منـبر المـدينـة المنورة. وسارية أمير جيشه عند جبل نهوند من أرض العجم، وقـد كاد يغلبـه العـدو. فلما قال عمـر كلمتـه، سمعهـا سارية وانحـاز إلى الجبـل. أخـرج القصة غير واحد وحسن سندها الحافظ في الإصابة. فأنت ترى أن عمر ألهم حالة أمير جيشه مع عدوه، وألهم تلك الكلمة التي أبلغها الله إلى اذن سارية، فنبهته إلى ما كان غافلاً عنه من التحصن بالجبل.

الرؤيـــــا:

وأمـا الـرؤيـا، فأخرج البخاري في كتاب التعبير: من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة».

صدق اخبار أبي بكر عما في بطن زوجه:

ومن أمثلتها أخبار أبي بكر رضي الله عنه عما في بطن زوجه حبيبة

بنت خارجة رضي الله عنها بأنه أنثى . فكان كذلك ، ووضعت بعد موته حبيبة بنتاً سميت أم كلثوم . وقد أخرج مالك في المؤطأ قصة ذلك عن الزهري عن عروة ، عن عائشة فالسند كما ترى من الصحة والعلو، والاشتمال على الأئمة . وملخص القصة : أن أبابكر كان نحل ابنته عائشة مبلغ عشرين وسقاً من ماله بالغابة . فلما حضرته الوفاة ، رده إلى الورثة ، وطيب خاطرها بقوله : «إنما هو اليوم مال وارث وإنما هما أخواك وأختاك» ولم يكن لعائشة يومئذ أخت غير أسماء ، فاستفهمته عن الأخرى فقال : «ذو بطن بنت خارجة أراها جارية» . وإنما جعلنا هذا الخبر من أمثلة الرؤ يا لقول ابن مزين : قال بعض فقهائنا وذلك لرؤ يا رآها أبوبكر تأول فيها ذلك ، نقله الباجي في المنتقى . (٦ : ١٠٤) ولولا هذا النقل لعددناها من الالهام .

خروج الالهام والرؤيا عن علم الغيب :

وتأمل قول أبي بكر رضي الله عنه أراها جارية على الظن من غير جزم : تجده كما قلنا آنفاً ان الهام وتعبير غير المعصوم ، غير معصومين . قال أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات : «إذا لاح لأحد من أولياء الله شيء من أحوال الغيب فلا يكون على علم منها محقق لاشك فيه ، بل على الحال التي يقال فيها أرى أو أظن . فإذا وقع مطابقاً في الوجود ، وفرض تحققه بجهة المطابقة أولاً والاطراد ثانياً فلا يبقى للاخبار به بعد ذلك حكم ، لأنه صار من باب الحكم على الواقع» . (٤ : ٨٥) .

بشرى الأوليــــــاء :

وقد جعل الله لأوليائه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ففسرت البشرى الدنيوية بالرؤ يا ، كما روى عن جمع الصحابة مرفوعاً وموقوفاً تتبعها صاحب الدر المنثور . (٣ : ٣١١) . وتنزل الملائكة عليهم ، كما في

آية فصلت، يكون عند الموت وفي القبر وحال البعث كما في تفسير البغوي، عن وكيع بن الجراح، وتفسير ابن كثير عن زيد بن أسلم. وذلك خارج عن حكم الدنيا فلهذا خص الحديث المبشرات بالرؤ يا، ولم يبق بعد خاتم النبيين وحي، تنزل به الملائكة على أحد ولا علم غيب يجزم به قبل تحققه وارتفاع الغيب عنه.

الكشـــــــف :

ولم يبق بعد بيان حكم الرؤ يا والالهام إلا الكشف الذي كثر من يلفظ به ويردده، وقل من يفهمه أو يحدده. وقد فسر القشيري في رسالته كلمة المكاشفة بعبارات غامضة، مرجعها إلى التمكن في العلم حتى يصير النظري عند المكاشف، في حكم الضروري. ومثل في الموافقات للمكاشفات، بالامتناع من تناول أشياء ظاهرها الجوار، كامتناع الشبلي من تناول التين من شجرة ببادية ظنها مواتاً، فأخبرته أنها مملوكة. وكندامة عباس بن المهتدي على التزوج بامرأة فامتنع من البناء بها وبعد ثلاثة أيام تبين أن لها زوجاً. وكما كان للحارث المحاسبي عرق في بعض أصابعه، يتحرك إذا مد يده إلى ما فيه شبهة فيمتنع عنه. (٢ : ٢٦٩) ثم بين أن مثل هذه الحكايات يرجع إلى اجتناب حزاز القلب، لا إلى الحكم بعلم الغيب، وذلك لحديث وابصة بن معبد رضي الله عنه. قال : أتيت النبي ﷺ فقال : «جئت تسأل عن البر والاثم ؟ قلت : نعم. قال : استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والاثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر. وان افتاك الناس وأفتوك». أخرجه أحمد والدارمي في مسنديهما وحسنه النووي في الأربعين. وذكر له الحافظ بن رجب في شرحه المسمى جامع العلوم، والحكم روايات وشواهد.

نسبة العامة علم الغيب لبعض الناس :

والعـوام ينسبـون علم الغيب المطلق إلى من اتخـذوهم أوليـاء، سواء سماهم الشـرع أوليـاء، أوكهـانـاً، أوسحرة، أومردة، أومجانين، فيخشون في غيبتهم أن يطلعوا على ما لا يرضونه منهم، ويشدون إليهم الـرحـال، استعـلامـاً عن سرقـة، أو استفتاء عن عاقبة حركة. وبوادى القطن قرب ميلة شرقيها، كاهن اسمه «سيدي مبارك» يأتيه المستطلعون للغيب، من مئـات الأميـال، كسـوق هراص وأراضي الحراكتة. ومات فقـام ابنـه مقـامـه، ولم يزل حياً أوحية على الجهال. ومثله كثير ون وان اختلفت شهرتهم ضيقاً واتساعاً .

حكايتان عن العامـــــة :

وحـدثني ميليـان لم يزالا حيين قال أحدهما كنت عند باش تارزي شيـخ الطـريقـة الـرحمـانيـة بقسنطينة اعلم القرآن، وكنت فتى تدعوني نفسي إلى غشيـان النسـاء، فلم يكن يمنعني إلا خشية الشيخ ان يطلع علي من طريق الغيب. وقـال الآخـر : كنت ذا سوق في تاجنـانت من أرض أولاد عبد النور، وبقربي اثنان يتنازعان، فحلف أحدهما للآخر، بسيـده عبـد الرحمان بن الحملاوي، شيخ من شيوخ الطريقة الرحمانية، قرب سقـان فتغـير وجـه المحلوف له وأنكـر على الحـالف قائلاً : أليس الشيخ عالماً بما يجري الآن بيننا ؟ قال محدثي ظننته لأول سماع انكاره أنه ينهـاه عن الحلف بالمخلوق، فإذا هويكـبره عن الحلف به، ويشركه مع الله في غيبــه. والحكـايـات في مثـل هذه الضـلالات، مما لا تسعـه المجلدات. فإن نسبـة الغيب المطلق إلى الأوليـاء، مما شاع وذاع وملأ الحـزن والقـاع وهوشرك باجماع، وإنما حسنه الجهل والقعود عن العلم،

حتى فقد طلابه وتنوعت عقباته وصعابه، ولم يبق من أهله إلا من يدعى فقه الفروع على قلة، وجمود .

الفقه الأكبر :

اما الفقه الأكبر بالتفقه في الكتاب، والسنة، وتصحيح العقائد، والأعمال عليهما، وأخذ المواعظ منهما، فقد انقطع منذ أزمان، من وطننا حتى أحياه من ارتحلوا في طلبه، ممن تكونت منهم جمعية العلماء فكانت بهم للوطن توبة. عملوا فيها بآية التوبة : ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾ .

(١٧) الكهانة وما في حكمها

معنى الكهانـــــة :

الكهـانـة مما فيـه معنى الغيب، ومثلهـا في ذلـك العرافة والعيافة والطـيرة والطـرق والتنجيم. قال في القـاموس : «كهن له كمنع ونصر، وكرم كهانة، بالفتح وتكهن تكهناً، قضي له بالغيب فهوكاهن، والجمع كهنة وكهان، وحرفته الكهانة بالكسر».

الفرق بينها وبين العرافـــة :

وفي المصباح : «العراف مثقل: بمعنى المنجم والكاهن، وقيل : العـراف يخبر عن المـاضي، والكـاهن يخبر عن المـاضي والمستقبل» وفي مفـردات الـراغب : «الكـاهن هو الـذي يخبر بالاخبـار المـاضية الخفية بضرب من الظن. والعراف هو الذي يخبر بالأخبار المستقبلة، على نحو ذلك».

أقسام الكهانـــــة :

وفي معـالم السنن للخطـابي : «الكـاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخـبر النـاس عن الكـوائن. وكان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئياً من الجن وتابعة تلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يدعي أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيـه، وكـان منهم من يسمى عرافاً وهو الذي يزعم أنه يعرف الأمور، بمقـدمـات أسبـاب يستـدل بها على مواقعهـا كالشيء يسـرق فيعـرف المظنون به السرقة. وتتهم المرأة بالزنية فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور. ومنهم من يسمي المنجم كاهناً». (٤ : ٢٢٩).

معنى العيافـــــة :

والعيـافـة الزجر قال في القاموس : «وعفت الطير أعيفها عيافة . زجرتها وهو أن تعتبر باسمائها ، ومساقطها ، وأنوائها . فتتسعد أو تتشاءم . والعـائف المتكهن بالطـير أو غيرهـا» ونحـوه في الصحـاح لكنـه قال : وأصواتها مكان أنوائها .

معنى الطيـــــرة :

والطـيرة التشـاؤم . يقـال تطـيرت من الشيء وبـالشيء ، إذا تشـاءمت به كما في الصحـاح . وقـال القرافي في فروقه : التطير هو الظن السيء الكائن في القلب . والطيرة الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره . (٤ : ٢٣٨) . وقال الحافظ في الفتح : أصل التطير أنهم كانوا في الجـاهليـة يعتمـدون على الطـير ، فإذا خرج أحدهم لأمر ، فإن رأى الطـير طار يمنـة تيمن به واستمـر . وإن رآه طار يسـرة تشاءم به ورجع . وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها . وليس في شيء من ذلك ما يقتضي ما اعتقدوه . وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له إذ لا نطق للطـير ولا تميـز . فيستـدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظـانـه جهـل من فاعله . وقـد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ، ويمتدح بتركه ، وكان أكثرهم يتطير ون ويعتمدون على ذلك . ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك . وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين (١٠ : ١٧٤) وقد حذفنا من كلامه ما لا تمس الحاجة إليه .

الفرق بين الطيـــرة والفـال :

والفـال عكس الطـيرة ، وقـد يلتبس بها فيلحق بها فأصـل الفال

المستحسن شرعاً أن تسمع كلمة توافق ما أنت بصدده، وتبعثك على المضي فيه، قال في الفروق: «وأما الفال الحرام فقال الطرطوشي في تعليقه: أن أخذ الفال من المصحف، وضرب الرمل والقرعة، والضرب بالشعير، وجميع هذا النوع حرام لأنه من باب الأستقسام بالأزلام. والأزلام: أعواد كانت في الجاهلية مكتوب على أحدها افعل، وعلى الآخر لا تفعل، وعلى الآخر غفل، فيخرج أحدها فإن وجد عليه افعل أقدم على حاجته التي يقصدها، أو لا تفعل أعرض عنها واعتقد أنها ذميمة، أو خرج المكتوب عليه غفل أعاد الضرب فهو يطلب قسمه من الغيب بتلك الأعواد، فهو استقسام أي طلب القسم الجيد يتبعه، والرديء يتركه. وكذلك من أخذ الفال من المصحف أو غيره، إنما يعتقد هذا المقصد ان خرج جيداً اتبعه، أو ردياً اجتنبه. فهو عين الاستقسام بالأزلام الذي ورد القرآن بتحريمه فيحرم. وما رأيته حكى في ذلك خلافاً». (٤: ٢٤١).

معنى الطرق والتنجيم :

والطرق قال في الصحاح: «الضرب بالحصى. وهو ضرب من التكهن، والطراق المتكهنون، والطوارق المتكهنات» وفي مفردات الراغب التنجيم الحكم بالنجوم ونحوه في الأساس، وقد بسط القرافي حكم تعلم النجوم في الفرق الحادي والسبعين والمائتين.

نظر الشريعة إلى بعض علوم العرب :

وكل هذه الأشياء من علوم العرب في الجاهلية. قال في الموافقات أثناء تعداده لعلوم العرب: «ومنها ما كان أكثره باطلاً أو جميعه، كعلم العيافة والزجر والكهانة، وخط الرمل والضرب بالحصى، والطيرة.

فابطلت الشريعة من ذلك الباطل، ونهت عنه، كالكهانة والزجر، وخط الرمل، وأقرت الفال لا من جهة تطلب الغيب. فإن الكهانة والزجر كذلك، وأكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل. فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، وهو الوحي والالهام، وابقى للناس من ذلك بعد موته ﷺ جزءاً من النبوة وهو الرؤيا الصالحة، وانموذجاً من غيره لبعض الخاصة، وهو الالهام والفراسة» (٢ : ٧٤).

ضروب من الكهانـــــة :

وذكر ابن الحاج في كتاب التصوف من حاشيته على صغير ميارة، ضروباً من الكهانة بعضها منظوم في أبيات لابن عرضون من مشطور الرجز فيها اخطاء عربية، والشطر السادس منها غير مستقيم الوزن، ولا ظاهر المعنى، ولكنا لم نرها في غير تلك الحاشية وأحببنا ايرادها فهاهي كما هي :

وقرعة النساء والرجال، وأخذ مصحف لأجل الفال
والخط والجزم الصغير والكبير، من الكهانة، ووزرهم كبير
فاعلهم مجرح الشهادة، ولا يوم لها على السهادة
وما به اكتسبه حرام، نص على ذا كله الأعلام
وكل من يسمع كاهناً فقد عصى إلهه، ودينه فقد
لا يعلم الغيب سوى الله العظيم، سبحانه جل إلهنا العليم.

حكم حلوان الكاهن ومن في معناه وحكم اتيانهم :

وفي زاد المعاد عن ابن عبد البر، لا خلاف في حلوان الكاهن أنه ما يعطاه على كهانته هو من أكل المال بالباطل. والحلوان في أصل

اللغة : العطية. وقال اثره «وتحريم حلوان الكاهن تنبيه على تحريم حلوان المنجم، والزاجر وصاحب القرعة، التي هي شقيقة الأزلام، وضاربة الحصى، والعراف، والرمال، ونحوهم. ممن تطلب منهم الاخبار عن المغيبات. وقد نهى النبي ﷺ عن اتيان الكهان، وأخبر أن من أتى عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل عليه ﷺ. ولا ريب أن الإيمان بما جاء به محمد ﷺ وبما يجيء به هؤلاء لا يجتمعان، في قلب واحد. وإن كان أحدهم قد يصدق أحياناً، فصدقه بالنسبة إلى كذبه قليل، من كثير، وشيطانه الذي يأتيه بالاخبار لابد أن يصدقه احياناً ليغوي به الناس، ويفتنهم به. وأكثر الناس مستجيبون لهؤلاء، مؤمنون بهم، ولاسيما ضعفاء العقول، كالسفهاء والجهال والنساء، وأهل البوادي ومن لا علم لهم بحقائق الإيمان، فهؤلاء هم المفتونون بهم. وكثير منهم يحسن الظن بأحدهم ولو كان مشركاً كافراً بالله، مجاهراً بذلك ويزوره، وينذر له ويلتمس دعاءه. فقد رأينا وسمعنا من ذلك كثيراً. وسبب هذا كله، خفاء ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق على هؤلاء وأمثالهم. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور». (٤ : ٢٥٤).

ما جاء في الكهانة وما في حكمها :

ولنختم هذا الفصل بأخبار وأشعار في الكهانة وما في حكمها :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». أخرجه أحمد ومسلم ورواه البزار عن جابر بن عبد الله مرفوعاً وعن ابن مسعود موقوفاً، والطبراني عن أنس، وواثلة مرفوعاً. ذكر رواياتهم الهيثمي في مجمع الزوائد. (٥ : ١١٧ـ١١٨) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة بنحو ما تقدم.

٢ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان فقال : «ليسوا بشيء . فقالوا يارسول الله انهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً . فقال رسول الله : تلك الكلمة من الحق يخطفهُا الجني فيقرُها في اذن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة» . أخرجه الشيخان . وقوله يقرها بوزن يردها من القر، وهوترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهم .

٣ ـ وعن أبي مسعود رضي الله عنه رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن . أخرجه الشيخان وغيرهما .

٤ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل» . أخرجه أبو داود والترمذي ، وصححه هو وابن حبان وبين الحافظ في الفتح أن قوله وما منا من كلام ابن مسعود . (١٠ : ١٧٤) .

٥ ـ عن رويفع بن ثابت رضي الله عنه أنه ﷺ قال : من ردته الطيرة عن شيء ، فقد قارف الشرك . رواه البزار عن شيخه إبراهيم غير منسوب ، وفيه سعيد بن أسد بن موسى ، روى عنه أبو زرعة الرازي ، ولم يضعفه أحد ، وبقية رجاله ثقات قاله في مجمع الزوائد . (٥ : ١٠٥) .

حكمة مدح الفال وذم الطيرة :

٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «لا طيرة ، وخيرها الفال . قالوا وما الفال ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم» . أخرجه الشيخان . وفي فتح المجيد عن الحليمي : «وإنما كان ﷺ يعجبه الفال لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق .

والتفاؤل حسن ظن به. والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال. (ص ٣٢٥).

٧ ـ وعن عمران بن حصين رضي الله عنه انه ﷺ قال: ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن له، أو سحر أو سحر له. رواه الطبراني وفيه إسحق بن الربيع العطار. ووثقه أبو حاتم وضعفه عمرو بن علي وبقية رجاله ثقات. وأخرجه البزار أيضاً ورجاله رجال الصحيح خلا إسحق بن الربيع، وهو ثقة قاله في مجمع الزوائد. (٥: ١٠٤، ١١٧).

٨ ـ وعن ابن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة، فالتفت إليها فقال: «إن الله قد برّأ هذه الجزيرة من الشرك». وفي رواية: أن الله قد طهر هذه القرية من الشرك إن لم تضلهم النجوم. رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط. وفيه قيس بن الربيع ووثقه شعبة والثوري، وضعفه الناس، وبقية رجاله ثقات قاله في مجمع الزوائد.

حكم التنجيم:

٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد رجاله ثقات وصححه النووي في رياض الصالحين. قال ابن رسلان في شرح السنن: «والمنهي عنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث، والكوائن التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، وهذا تعاط لعلم استأثر الله بعلمه... وأما علم النجوم الذي يعرف به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى وكم بقي، فغير داخل

فيما نهى عنه. ومن المنهي عنه: التحدث بمجيء المطر، ووقوع الثلج، وهبوب الرياح، وتغير الاسعار». نقله الشوكاني في نيل الأوطار. (٧: ١٥٢).

١٠ ـ وقال ﷺ: العيافة والطيرة والطرق، من الجبت. رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، وحسنه في رياض الصالحين. والجبت: كل ما عبد من دون الله. ويطلق على الساحر والكاهن. قاله الراغب في مفرداته، والجوهري في صحاحه.

ومما قاله الشعراء في هذا الباب قول لبيد:

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير، ما الله صانع

آخر:

تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور

آخر:

الزجر، والطير، والكهان كلهمو، مضللون، ودون الغيب أقفال

(١٨) السحـــــــر

السحر بكسر فسكون مما يلتبس بالكرامات، ويظن صاحبه قادراً على التصرف في الكائنات، نافذاً علمه في حجب المغيبات فلزم ان نتحدث عنه .

السحر في اللغـــــة :

السحر بفتحتين وبسكون ثانية مع ضم أوله أو فتحه : هو الرئة يقال : كل ذي سحر يتنفس ويتطلب الغذاء، ثم قد يطلق على الغذاء نفسه وعلى آخر الليل لأنه متنفس الصبح . وكل هذا فيه معنى الخفاء فإن الرئة خفية في ذات الحيوان، والنفس ألطف شيء فيه . والغذاء تخفي مجاريه في البدن ويدق تأثيره . ويطلق السحر بمعنى التعليل والتلهية . وقوله تعالى : ﴿إنما أنت من المسحرين﴾، فسر بالمعللين، وبمن خلق ذا سحر . ويطلق بمعنى الخداع تقول سحرت الصبي إذا خدعته، وبمعنى الصرف والاستمالة . وعليه حمل حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند أحمد والبخاري وغيرهما أنه ﷺ قال : ان من البيان لسحراً . قال في القاموس : «معناه ـ والله أعلم ـ أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف قلوب السامعين إليه، ويذمه فيصدق فيه حتى يصرف قلوبهم أيضا عنه» .

السحر في الشــــرع :

فالسحر يرجع في معناه إلى الخفاء واللطافة، وإلى الخداع والتمويه وإلى التلهية والتعليل، وإلى الصرف والاستمالة . وعرفه الجصاص في أحكامه بقوله : «كل أمر خفي سببه وتخيل على غير

حقيقتـه ، وجـرى مجرى التمويه والخداع» . (١ : ٤٢) وقال ابن العربي في أحكـامـه «حقيقتـه أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى ، وتنسب إليه فيه المقادير والكائنات» . (١ : ١٤) .

أنواع السحـــــر :

ونـوع الـراغب في مفـرداته السحر إلى ثلاثة أنواع ، ونوعه الفخر الـــرازي في تفســيره إلى ثمانيـة ، تدخـل فيهـا أنـواع الـراغب . ونحن نلخصها فيمايلي : توضيحا لمعناه وتفصيلاً لأحكامه .

سحـــــر البابليين :

النـوع الأول : سحـر البابليين من الكلدان الذين كانوا يعبدون الكـواكب ، ويـرونهـا مدبـرة هذا العـالم فيستميلونها إليهم ، أويصرفون ضررها عنهم بالرقى والدخن ، وكل ما يناسب الكواكب ويقرب منها في رأيهم .

سحر أصحاب الأحوال :

النـوع الثـاني : سحـر أصحـاب الأحـوال ذوي النفـوس القوية المؤثـرة عنـدهم ، يعملون لتقـويتهـا بتقليل الغذاء والعزلة عن الناس ، وقطع المألوفات والمشتهيات ، ويستعينون على تأثيرها بالرقى والدخن . قال ابن كثير في تفسيره : «والتصرف بالحال على قسمين : تارة تكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ، ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع . وتارة تكون الحـال فاسـدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ، ولا يتصرف بها في ذلـك فهـذه حال الاشقيـاء المخـالفـين للشريعة . ولا يدل اعطاء الله

ايـاهم هذه الأحوال على محبـة لهم، كما أن الـدجـال له من الخـوارق للعـادات، ما دلت عليـه الأحـاديث الكثـيرة مع أنـه مذموم شرعاً لعنه الله». (١ : ٢٦٦).

سحر أصحـــاب العزائم :

النـوع الثـالث : سحر عبدة الشياطين، وخدمة الجان، يتقربون إليهم بالرقى والعزائم والدخن : يزعمون عن خيال ووهم زعماً لا يشهد له عقل، ولا أثارة من علم أن ما يعزمون به أسماء الله تعالى، التي كانت الملائكـة تتصـرف بها في الجن على عهـد سليـمان. فمتى ذكرها المعزم انقادت له الجن في استخراج الخبايا، أو الخروج من الممسوس .

سحر أصحاب الشعوذة :

النوع الرابع : سحر المشعوذين يخدعون الناس بحركات خفيفة يصـرفـون بها الأنظار عما يريدون فعله، والاحتيال فيه إلى شيء معين، يحدق الحاضرون إليه بأعينهم .

سحـر أصحاب التخييل بالصنعة :

النـوع الخـامس: سحر حذاق أهل الصنعة كتركيب آلات على نسب هندسية، تظهر منها أعمال عجيبة. والصناعات كالعلوم منها الجلي الـذي يدركـه كل عاقـل رآه، أو سمعه، ومنها الخفي الذي لا يدركه إلا الخـواص ممن عنـوا به. وقـد قيـل: ان السحـر القبط من النوع الرابع. وقيـل: من هذا النـوع عمـدوا إلى الحبـال والعصي، فحشـوهـا زئبقـاً وصارت تتلوى، فخيل للناظرين أنه تسعى باختيارها، وانما يعد هذا في السحـر، اذا كتم الصـانـع أسبـاب عمله الخفية، وزعم أنه يفعل ذلك خارقـاً للعـادة بقـوة نفسـه، أو يجاهـد عنـد الله كالذين يحملون العصي

الخاصة لصرخ البارود، يوهمون العامة أنها عصي عادية تصرخ كرامة لهم.

سحر أصحاب التخييل بالخواص:

النوع السادس: سحر الواقفين على خواص الأشياء، كخواص الأعداد المعبر عنها عندنا بعلم الجدول، وكخواص الأعشاب وكخواص الأحجار، مثل المغناطيس فإن للأشياء كما للعباد طبائع وخواص إنما بعضها ضروري كارواء الماء، واحراق النار، وبعضها نظري غامض، لا يهتدي إليه إلا القليل من الباحثين قال ابن كثير في تفسيره: «يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعياً أنها أحوال له مخالطة النيران، ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات». قلت وقد ارتقى اليوم علم الكيميا ارتقاء بديعاً، وصارت المركبات الكيميوية بضائع مبتذلة، فتجد عبدة الخوارق يقتنون منها، ويدجلون بها على البداة الذين لم يزالوا على الفطرة، لم يشعروا بالمدنية الحاضرة وغرائبها.

سحر أصحاب التنويم:

النوع السابع: سحر التنويم وعبر عنه الرازي بتعليق القلب، وهو أن يهول الساحر على ضعيف العقل قليل التمييز، ويوهمه أنه يتصرف في الجن حتى يؤثر عليه فيصدقه، ويتعلق قلبه به ويسلب شعوره من الرعب، فيكون معه كالنائم. وهنالك يفعل الساحر به ما شاء. وعامتنا تعبر عن هذا الساحر بالمصروع، وعن حركاته بالتهوال.

سحر النمام:

النوع الثامن: سحر النميمة بالسعي بين الناس من وجوه خفية

لطيفة ولم ينفرد الرازي بادخال النميمة في السحر، بل سبقه إليه أبو بكر الجصاص في أحكامه، وفعله أيضاً الراغب في مفرداته وهو مقتضى ما أخرجه مسلم عن ابن مسعود (رض) أنه ﷺ قال: ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة والقالة بين الناس، والعضه بفتح فسكون السحر في لغة قريش، والعاضه الساحر عندهم، قاله في الصحاح. وقال يحيى ابن أبي كثير: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة. ومقتضاه أن النمام غير الساحر، ولكن يلتحق به في المعنى. والهيثمي في الزواجر تبع الرازي في عدة أنواع السحر بترتيبه وألفاظه، إلا في هذا النوع فإنه أسقطه. وصرح في الفتاوى الحديثة بأن من السحرة أو في معناهم، من تجتمع عليهم الخلق في الطرقات لالهاء الناس بأشياء عجيبة كقطع رأس الانسان، واعادتها ونداءهم له بعد ذلك فيجيبهم. وجعل نحو دارهم من التراب وغير ذلك مما هو مشهور عنهم. وكذلك من يكتبون للمحبة والقبول واخراج الجان.

ما يقع بالسحر:

قال القرطبي في تفسيره: «قال علماؤنا لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس في مقدور البشر من مرض، وتفريق وزوال عقل، وتعويج عضو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر. قالوا ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج في الكوّات، والخوخات، والانتصاب على رأس قصبة، والجري على خيط مستدق والطيران في الهواء، والمشي على الماء، وركوب كلب وغير ذلك. ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً، ولا يكون الساحر مستقلاً به، وإنما يخلق الله تعلى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر، كما يخلق

الشبع عند الأكل والري عند شرب الماء.

«وروى سفيان عن عمار الذهبي، أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، يمشي على الحبل، ويدخل في است الحمار، ويخرج من فيه. فاشتمل له جندب على السيف فقتله جندب. هذا هوجندب بن كعب الأزدي، ويقال البجلي، وهو الذي قال في حقه النبي ﷺ: يكون في أمتي رجل يقال له جندب، يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل. فكانوا يرونه جندباً هذا قاتل الساحر[1].

ما لا يقع بالسحر:

«وأجمع المسلمون على أنه ليس من السحر ما يفعل الله عنده انزال الجراد والقمل والضفادع، وفلق البحر وقلب العصا واحياء الموتى وانطاق العجماء. وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عيهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون، ولا يفعله الله عند ارادة الساحر، قال القاضي أبوبكر بن الطيب وإنما منعنا ذلك بالاجماع ولولاه لأجزناه» (٢ : ٤٧).

ساحر الوليد:

وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب والحافظ في الاصابة جندباً هذا والحديث الذي ورد في حقه وحديثه مع ساحر الوليد، وأن ذلك الساحر كان يلعب بين يدي الوليد بن عقبة وهو أمير بالعراق فيرى أنه يقطع رأس رجل ثم يعيده، أو يضرب رأس نفسه فيرمي به ثم يشتد فيأخذه، ثم يعيده مكانه، فجاءه جندب فضرب عنقه وقال قولوا له فليحي نفسه الآن.

---

(١) قلت الحديث رواه ابن السكن بلفظ «ساق رسول الله بأصحابه فجعل يقول جندب وما جندب حتى أصبح فقال أصحابه لأبي بكر لقد لفظ بكلمتين ما ندري ما هما فسأله فقال يضرب ضربة فيكون أمة وحده» وذكر بقية القصة المذكور طرفها هنا ذكره الحافظ في الاصابة انظر جـ١ ص٢٥٤.

حكم السحـــــر :

وقـال القـرطبي في تفسـيره أيضا : «من السحر ما يكون كفراً من فاعله، مثل ما يدعون من تغيير صور الناس واخراجهم في هيئة بهيمة، وقطع مسافة شهر في ليلة، والطيران في الهواء، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه بحق فذلك كفر منه». وفي تفسير ابن كثير عن ابن هبيرة أنه قال في كتابه ـ الاشراف على مذاهب الأشراف : «واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله فقال أبـو حنيفـة ومـالـك وأحمد : يكفر بذلك. ومن أصحـاب أبي حنيفـة من قال : ان تعلمه ليتقيه أو يجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمـه معتقـداً جوازه أو أنـه ينفعـه كفـر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعي رحمه الله : اذا تعلم السحر قلنا له صف لنـا سحـرك فان وصف ما يوجب الكفـر، مثـل ما اعتقده أهل بابـل من التقـرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يُلتمس منها فهو كافـر، وان كان لا يـوجب الكفـر فان اعتقد اباحته فهو كافر» (١ : ٢٧٠) ومـا نسبـه لبعض أصحـاب أبي حنيفة من عدم تكفير متعلمه اتقاء له، ليس معناه الجواز، فان بين الكفر والجواز درجات. قال أبو البقاء الحنفي في كليـاتـه : «والصحيـح من مذهب أصحابنا، أن تعلمه حرام مطلقاً، لأنـه توسـل إلى محظـور، عنـه غني. وتـوقيه بالتجنب أصلح وأحوط». (ص٢٠٨) وقـال الهيتمي في الفتـاوى الحـديثية : «الصواب أن التقرب إلى الـروحـانيـات، وخـدمـة ملوك الجان من السحر، وهو الذي أضل الحـاكم العبيـدي لعنـه الله، حتى ادعى الألـوهيـة ولعبت به الشياطين حتى طلب المحال». (ص٨٨).

ما جـاء في السحــــر :

وهذا بعض ما جاء في السحر:

١ ـ قال تعالى : ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سُليمان ، وما كفَر سُليمان ولكنّ الشياطين كفروا**﴾ الآية .

٢ ـ وقال حكاية عن موسى وخطابه للسحرة : «ما جئتُم به من السحر إن الله سيبطله إن الله لا يُصلح عمل المفسدين» .

٣ ـ وقال جل شأنه : ﴿ولا يُفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾ .

٤ ـ وفي الصحيحين عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه ﷺ قال اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» . فجعل ﷺ السحر متصلا بالشرك العلني ومتقدماً على القتل .

٥ ـ وأخرج النسائي عن الحسن عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه . قال فى الزواجر ولم يسمع الحسن من أبي هريرة عند الجمهور» . **(٢ : ٩٣)** .

٦ ـ وروى البزار أن عبد الله (رضى الله عنه) قال : «من أتى كاهنا أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل الله على محمد» . قال ابن كثير واسناده صحيح وله شواهد أُخر.

ضرر السحر في الدين :

تلك أقوال الفقهاء مجمعة على أن السحر معصية ثم جلهم يرونها معصية شرك وكفر باطلاق ، وبعضهم لا ينتهي بها إلى الكفر ما لم ينضم إليها إما استحلال لها وإما اعتقاد ينافي التوحيد وإما فعل يخالف الاسلام . وهذه الآيات والآثار تنكر على الساحر أي انكار وتحذر من

السحر كل تحذير وما ذلك إلا لشدة ضرر هاته الآفة في الدين والدنيا، وأول أضرارها الصد عن كتاب الله. وهذا ما وقع فيه قبلنا بنو إسرائيل فعابه القرآن عليهم في آية: ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أُتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سُليمان**﴾.

ولوغ بعض الطبقات به:

أبَعْدَ هذا التنبيه وذلك التحذير يتسابق أصحاب هذا الكتاب وأتباع ذلك الرسول إلى ضروب السحر ويتنافسون في اتقانها ويفخر فاخرهم بالمهارة فيها؟ تجد بعض المنتسبين إلى بيوت الصلاح أو دور الطرق الصوفية - وما أكثرهم - يدجلون على بله العوام بمخاريق سحرية يوهمونهم بها أنهم ذوو كرامات وأولو تصرف في الروحانيات. وترى بعض من تعلموا القراءة والكتابة يكبون على شمس المعارف للبوني، يأخذون منها أقوالاً وأعمالاً مبنية على علم الحروف المنظور فيه إلى طبائع الكواكب المزعوم أنها الحاكمة في هذا العالم فيعتقدون اعتقاد الكلدان ويلبسون لباس أهل القرآن، كل ذلك لينعتوا بالحكمة ويشار إليهم بتطويع ملوك الجان.

العبيدي الميلي:

وقد أدركت بميلة جيلاً كله اعجاب برجل يدعونه «العبيدي» وينقلون في مجالسهم أحاديث تصرفه في الجنون فهذا يقول أخرجه من فلانة وسجنه في زجاجة، وذاك يحدثك عن احراقه وتصاعد دخانه، وآخر يروي لك توبيخه لهم وتهديده إياهم. فهذا الحكيم «العبيدي» بميلة يكاد يحظى حظوة ذلك «الحاكم» العبيدي بمصر. وقد قرأت القرآن على من ورث العبيدي الميلي في صنعته وان كان دون شهرته

وكنت أتمنى لو يطلعني شيخي على هذا السر فحفظني الله من ذلك الشر.

ولـــوع النساء بالسحـــر :

أمـا النسـاء فلا تسأل. . هذه تربـط الـزوج عن زوجـه أو تحله، وتلك تبلد الرجل حتى تروج عليه زوجه كل شيء، وماهرة تنزل القمر في القصعة كأن القمر خبزة ولا تجد في الأغلب من تتزوج إلا وهي متزودة من العجـائـز بوصـايـا سحـرية ورقى وأدوية (وفيهن ـ لا نكذب ـ نساء صوالح). ولو عنيت أمتنا بالعلم عنايتها بالسحر لم تنحرف في حياتها عن سلم الـرقي ولكنهـا حادت عن سنة التقدم وأحاطت بها خطاياها فحاق بها سوء عملهـا: ﴿**من عمـل صالحـاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**﴾.

(١٩) الرقيـــة والعزيمـــة

الرقيـــة في اللغـــة :

الـرقيـة المرة من الرقي والاسم للألفاظ التي يرقى بها وجمعها رقى كمدية ومدى. والفعل رقى كرمى. ومعناها التعويذة بقراءة كلمات على المصـاب رجـاء الـبرء. تقـول اسـترقيته فرقاني فهوراق وهي راقية وهن رواق. قال الراجز:

لقـد علمت ـ والأجـال البـاقي ـ أن لا تَرُدّ الـقـدَرَ الـرواقـي

أمـا الـرقي بمعنى الصعـود: فهوبضم أوله وكسر ثانيه وشد آخره وفعله رقي كرضي. يقال رقي فهوراق. وارتقى مثله. والترقوة ما يترقى فيه النفس من مقدم الحلق في أعلى الصدر.

معنى العزيمـــــة :

ويقـال للرقيـة: عزيمة وجمعها عزائم. تقول عزم الراقي كضرب وعـزم تعـزيماً اذا قرأ العزيمة والرقية. وأصل العزم والعزيمة عقد القلب على امضـاء الأمـر. تقول: عزمت الأمر وعلى الأمر واعتزمته واعتزمت عليـه. قال الـراغب: «والعـزيمـة تعويذ كأنه تصور أنك قد عقدت بها على الشيطان أن يمضي إرادته فيك».

الفرق بين الرقيـة والسحـر :

هذا كلام اللغـويـين وظـاهـره اتحاد الرقية والعزيمة في الاستعمال واختصـاصهـما بما يراد به نفـع المـرقي. وصـرح القـرافي في فروقه بذلك الاختصاص فقال: «ولا يقال لفظ الرقى على ما يحدث ضرراً بل ذلك يقـال له السحـر» (٤ : ١٤٧) فأفـاد مبـاينة الرقية للسحر. ولعل هذا في

أغلب الاستعمال. وإلا فإن تصرف الأخبار والآثار على أن بينهما عموماً وجهياً.

الفرق بين العزيمة والرقيـة :

وفـرق القـرافي بين الـرقيـة والعزيمة. فشرح الأولى بقوله: «هي ألفـاظ خاصـة يحدث عنـدهـا الشفـاء من الأسقـام والأدواء والأسبـاب المهلكة». شرح الثانية بما حاصله: «كلمات تعظمها ملائكة متصرفة في قبـائـل الجن متى اقسم المعـزم عليهـا بها أجـابت إلى ما طلب منهـا». والعـزيمـة بهذا المعنى من السحـر كما تقـدم وهـو المعروف عند عامتنا. ويعبرون عن الرقية بالتسبب فيقولون: «تسبب لي سيدي فلان في هذا الماء أو الزيت». ولفظ الرقية موجود في لسانهم ولكنهم يريدون منه معنى الطريق المتقدم في فعل الكهانة.

اتحاد حكم الرقية والعزيمة :

وســواء كانت العـزيمـة بمعنى الـرقيـة أم خصت بما يقـرأ على المصاب بالجن، فان حكمها وحكم الرقية واحد، كما قال ابن الشاط في حاشية الفروق. فكل ما ورد في أحدهما ينسحب على الآخر اذناً ونهياً.

النهى عن الرقيـة :

١ ـ قال تعالى فيما يستعاذ منه: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾. وهن السواحر يرقين بكلام فيه شرك وينفثن حال الرقي. قال الجصاص في أحكامه عن قتادة: «اياكم وما يخالط السحر من هذه الرقى». (٣: ٤٧٨).

٢ ـ وقـال في التـذكير بحال الاحتضار: «كلا اذا بلغت التراقي وقيـل من راق؟» اذا كان الـراقي من الـرقيـة والاستفهام للانكار أفاد ذم

الرقية. ويكون المعنى كما قال الشاعر:

هل للفتى من بنـات المـوت من واقي   أم هل له من حمام المـوت من راقـي

وهـذا المعنى للآيـة أحـد قولـين فبهـا نظمهـما الـديريني في رجزه التيسير بقوله:

(وقـيـل من راق) لمن يرقـيـه   من الـرقـى لعـلـه يسـقـيـه
وقـيـل من يرقـي من المـلائـكـة   بالـروح هل ناجـيـة أم هالـكـه

٣ ــ وعن زينب عن زوجها عبد الله بن مسعود (رضى الله عنهما) أنـه قال لها سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «ان الـرقى والتـمام والتـولـة شرك». قالت: قلت لم تقـول هذا؟ والله لقـد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيني فاذا رقاني سكنت. قال عبد الله: انما ذلـك عمـل الشيطـان كان ينسخهـا بيده فاذا رقاها كف عنها. إنما كان يكفيـك أن تقـولى كما كان رسـول الله ﷺ يقـول: اذهب البأس رب النـاس، اشف أنت الشـافي لا شفـاء إلا شفـاؤك شفاء لا يغادر سقماً. أخـرجـه أبـو داود وابن ماجـه والحـاكم وصححه هووابن حبان. والتولة كهمـزة وتكسـر ما تتحبب به المـرأة إلى زوجها من ضروب السحر. قال ابن العـربى فى أحكـامـه: «من أقسـام السحر فعل ما يفرق به بين المرء وزوجـه ومنـه ما يجمع بين المرء وزوجه ويسمى التولة وكلاهما كفر والكل حرام كفر، قاله مالك» (١ : ١٤).

٤ ــ وعن أبي أمامة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال ثلاثة من السحـر: الـرقى والتـول والتـمام. رواه الطـبراني وفيه على بن يزيد الألهاني وهو ضعيف قاله في مجمع الزوائد لكنه يصلح شاهدا للحديث قبله.

الترخيص في الرقيـــة :

وهـذه الأدلـة تفيـد ذم الرقى والعزائم والنهى عنها ، وجاء ما يفيد الاذن ورفع الحرج .

٥ ــ فعن عائشة (رضى الله عنها) رخص النبي ﷺ في الرقية من كل ذي حمة . والحمة بضم ففتح السم من الحية والعقرب وغيرهما .

٦ ــ وعن عوف بن مالــك (رضى الله عنـه) قال : «كنـا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك فقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك» ، أخرجه مسلم وأبو داود .

٧ ــ وعن عبــادة بن الصـامت قال كنت أرقي من حمة العـين في الجاهلية فلما أسلمت ذكرتها لرسول الله ﷺ فقال اعرضها علي فعرضتها عليـه فقـال : ارق بها فلا بأس بها . ولـولا ذلك ما رقيت بها إنساناً أبداً . رواه الطبراني باسناد حسن .

أقســام الرقيـة وأحكامهـــا :

واختلاف الأحاديث في شأن الرقية ليس اختلافاً في حكمها وإنما هو لاختـلاف أحـوالها ، فإن الرقية على أربعة أوجه . أحدها : أن تكون بألفاظ شركية أو ينسب إليها النفع والضر فذلك كفر وشرك . ثانيها : أن تكـون بألفـاظ منقـولـة غير معقـولة المعنى فهى ذريعة إلى الشرك محرمة أفتى بحـرمتهـا ابن رشـد المالكي وابن عبد السلام الشافعي وجماعة من أيمة الحنفية وغيرهم . نقل ذلك الهيتمي في الفتاوى الحديثية . ثالثها أن تكــون بأســماء غير الله من ملك أو نبي وكـــل معظم شرعــاً فهي غير مشـــروعـــة وحكمهـــا حكم الحلف بغـــير الله ، كما نقله في الفتـح عن

القرطبي. (١٠ : ١٦١) رابعها: أن تكون بأسماء الله أو بكلامه أو ما أثر عن النبي ﷺ فهذا مشروع. وكلام الله وحديث رسوله مقدمان على سواهما مما هو بأسماء الله.

شروط الرقيـــــة :

قال الـــزرقاني في شرح الموطا: «الرقية المأذون فيها ما كانت باللسان العربي أو بما يفهم معناه ويجوز شرعاً، مع اعتقاد أنها لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله. والمنهى عنها ما فقد منها شرط من ذلك» (٤ : ١٥٢) وقال الباجي في منتقاه: «في المتخرجة عن مالك لا أحب رقي أهل الكتاب» وكرهه.

قول مالك في بعض ضروب الرقية :

وذلك والله أعلم إذا لم تكن رقيتهم موافقة لما في كتاب الله تعالى وإنما كانت من جنس السحر وما فيه كفر مناف للشرع. وروى ابن وهب عنه عن المرأة التي ترقي بالحديدة والملح وعن الذي يكتب الحرز ويعقد فيما يعلقه به عقداً. والذي يكتب حرز سليمان أنه كره ذلك كله. وكان العقد في ذلك عنده أشد كراهية لما في ذلك من مشابهة السحر، ولعله تأول قول الله تعالى: «ومن شر النفاثات في العقد، والله أعلم» (٧ : ٢٦١).

حكم ما يعطى على الرقيـــة :

وفي الفتاوى الحديثية عن ابن أبي زيد: «لا يجوز الجعل على اخراج الجان من الانسان لأنه لا يعرف حقيقته ولا يوقف عليه ولا ينبغي لأهل الورع فعله ولا لغيرهم، وكذا الجعل على حل المربوط والمسحور» (ص٨٨) وفعل هؤلاء ان كان على الوجه المشروع فالجهل بحقيقة

الاصـابـة غير ضار لأن الجعـل على الشفاء وهو معلوم . إلا أن يريد أن الجن قد يعود وأن الجعل على اخراجه الذي لا عود معه وإلا تنافي مع ما في صحيـح البخـاري عن أبي سعيـد الخدري (رضى الله عنه) أن ناساً من أصحـاب النبي ﷺ أتـوا على حي من أحيـاء العرب فلم يقروهم . فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك فقالوا : هل معكم من دواء أو راق . فقالوا إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً . فجعلوا لهم قطيعاً من الشـاء فجعـل يقـرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ فأتوا بالشاء . فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبي (ﷺ) فسألوه فضحك وقال : وما أدراك أنها رقية خذوها واضربوا لي بسهم . وفيه أيضاً عن ابن عباس (رضى الله عنهـما) حيث هذه القصـة وأن رسـول الله (ﷺ) قال فيهـا : ان أحق ما أخذتم عليه أجرا ، كتاب الله .

صفـــة الرقيـــة :

وصفــة الـرقيـة : أن يقـرأ القـارىء على محل الألم أو على يديـه للمسح بهما ، أو في ماء ونحوه وينفث أثر القراءة نفثاً خالياً من البزاق وإنما هو نفس معــه بلل من الـريق . روى البخـارى عن عائشـة من حديث معمـر عن الـزهري قالت : كان النبي (ﷺ) ينفث على نفسه في المرض الـذي مات فيـه بالمعـوذات ، فلما ثقل ، كنت أنفث عنه بهن وأمسح بيد نفثه لبركتها . فسألت الزهري كيف ينفث؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمســح بهما وجهــه . والمعـوذات هن : سورة الاخــلاص ، والفلق ، والناس كما في الفتح .

صفـــة العزيمـــة :

وصفـة العـزيمة جاءت في حديث أبي بن كعب قال : كنت عند

النبي (ﷺ) فجاءه أعرابي فقال يانبى الله ان لي أخاً وبه وجع قال وما وجعـهُ؟ قال: به لمم قال فائتني به قل فوضعه به بين يديه فعوذه النبي (ﷺ) بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين: «وإلهُكم إلهٌ واحد» وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران، «شهد الله أنه لا إله إلا هو»، وآية من الأعراف: «ان ربكم الله»، وآخر آية المؤمنين: «فتعالى الله الملك الحق»، وآية من سورة الجن. «وانه تعالى جد ربنا»، وعشر آيات من أول سورة الصافات وثلاث آيات من أول سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشتك قط. رواه عبد الله بن أحمد وفيه أبو جناب وهو ضعيف لكثرة تدليسه وقد وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح. قاله في مجمع الزوائد (٥ : ١١٥) واللمم ما ينزل بالمرء ويلم به من الجن.

صفة العزيمة اليوم:

وصفة العزيمة اليوم عندنا اليوم أن يقرأ القارىء على من يظن به مس الجن بسورة الجن غالباً وبيده فتيلة قد أحرق رأسها، يكوي بها أنف المصاب وقد يدخن له ببخور وقد يكتب له مما هو مدون في نحو شمس المعارف. وأكثر من يدعى الصرع بالجن النساء وأكثرهن فاجرات، يتخذن الصرع وسيلة إلى أهوائهن في المعروفين بالعزائم. فترى المعزم يتلو القرآن بلسانه ويهوى إلى لمس الصريعة بأركانه ويتحرق لبلوغ أمنيته منها بجنانه.

فهو كالجزار فينا   يذكر الله ويذبح

مفاسد أصحاب الرقية والعزيمة:

قد احترف اناس مما أصيبوا فى مروءتهم بالافلاس الرقية بكل ما

ليس بمشروع والعزيمة بها في نحو كتاب: «الرحمة» على كل مصروع، وأحدثوا في ذلك الأحداث وأرخوا الستائر دون الحرائر: والأحداث وهم بين منحل جملة من الدين ومصر على الحرام المهين ولهم قبول عند ضعفة العقول، يزين لهم تلك الحال ويغريهم بالمضي في هذا الضلال: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفُسكم وأهليكم ناراً وقُودها الناس والحجارة عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يعصون الله ما أمَرهم ويفعلون ما يؤمَرون**﴾.

(٢٠) التميمـــة

التميمـــة في اللغـــة :

التميمة في الأصل، وصف للذات التامة الخلق تقول: رجل تميم وامرأة تميمة وتم الشيء يتم بالكسر اشتد وصلب. والمراد هنا: ما يعلق على الانسـان لدفـع الآفـات عنه. وأكثر ما تعلق على الرضيع. ويقال فيهـا عوذة بالضم ومعـاذة بالفتـح وتعـويـذة. تقـول تعلق عوذة ومعـاذة وتعـويـذة كما تقـول تعلق تميمة. وفي القاموس: «التميمة: خرزة رقطاء تنظم في العنق» وفي الأساس «صبي متمم، علقت عليه التمائم وتممت عنه العين: أتمها تما: أى دفعتها عنه بتعليق التميمة عليه».

تعليق التميمـــة :

وتعليق التـمائم من فعـل الجاهلية، كانوا يعتقدون أنه يدفع عنهم الآفات. قال أبو ذؤيب الهذلي:

واذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفـع

وقال امرؤ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول

إنكـار الشرع لتعليق التميمة :

ولمـا في هذا التعليق من اللجـوء إلى غير الله في جلب الخير ودفع الضر، بما لم يجعله الله سبباً لذلك جعله الاسلام من الشرك والسحر كما في حديثي ابن مسعـود وأبي أمـامـة المتقدمين في فصل الرقية. وسبق في فصـل السحـر حديث أبي هريرة وفيه: من تعلق شيئاً وكل إليه. وذلك كاف للمؤمن في النفـور من هذه التـمائم. وقـد وردت في المـوضـوع

أحاديث نقتصر على بعض ماجاء منها في مجمع الزوائد:

١ ـ فعن عقبة بن عامر (رضى الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من يعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن يعلق ودعة فلا ودع الله له. رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني، ورجالهم ثقات. وذكر في فتح المجيد أن الحاكم رواه أيضاً وصححه وأقره الذهبي (ص٨٦) وودع فعل ماض بمعنى ترك. والكثير في استعماله أن يجيء مضارعاً وأمراً. والودعة خرزة بيضاء يلفظها البحر. وهي بفتح الدال وسكونها والتاء وتركها. قال:

ان الرواة بلا فهم لما حفظوا   مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له   ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

٢ ـ وعنه أيضاً أن رهطاً أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقيل يارسول الله بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ قال: إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها، فبايعه. وقال: من علق تميمة فقد أشرك. . رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات.

٣ ـ وعن عيسى قال دخلنا على أبى معبد نعوده فقلنا ألا تعلق شيئاً؟ فقال: الموت أقرب من ذلك إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من علق شيئاً وكل إليه. رواه الطبراني وفي اسناده محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ وبقية رجاله ثقات. قلت يقويه حديث أبي هريرة عند النسائى وقد مر في السحر.

٤ ـ وعن عمران بن حصين (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة ـ أراه قال من صفر ـ قال ويحك ما هذه قال من الواهنة. قال: اما أنها لا تزيدك إلا وهنا، انبذها عنك فانك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً. رواه أحمد والطبراني وفيه مبارك بن فضالة

وهـو ثقـة وفيـه ضعف. (والصفـر بضم فسكـون): النحـاس الأصفـر والـواهنـة: الضعف أو ريـح تأخـذ في المنكبـين أو في العضـد. وفي فتح المجيـد أن عمـران أخـرجـه أيضـاً بنحوه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبي. (٨٤).

الاصرار على تعليق التميمـة:

ومـا زال النـاس بعـد هذا التشديد ممن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ينظمـون الـودعـات للصبيـان أو يضعـون لهم عقـرباً في جعبة ثم تعلق بأعنـاقهم إلى غير ذلـك من التـمائم الجـاهليـة. قال السنـدي في شرح حديث النسـائي ومن تعلق شيئـاً، أي تعلق شيئاً بعنقه أو عنق صغير - من التعلق بمعنى التعليق - قيـل المـراد تمائم الجـاهليـة مثـل الخـرزات وأظفـار السبـاع وعظـامهـا وأمـا ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم بل هو جائـز لحديث عبـد الله بن عمـرو أنـه كان يعلق على الصغار بعض ذلك، وقيل القبح إذا علق شيئاً معتقداً جلب نفـع أو دفـع ضر، امـا للتـبرك فيجـوز. وقـال القاضي أبو بكر في شرح الترمذي: تعليق القرآن ليس من طريق السنة وانما السنة فيه الذكر دون التعليق». (٧: ١١٢).

صور تعليق التميمة وأحكامها:

وقـول السنـدي قيل المراد تمائم الجاهلية ثم قوله وقيل القبح ليس حكاية خلاف معنوي بل الحالتان معاً ذميمتان، لأن اعتقاد جلب النفع أو درء الضـر من غير الطـريق المشـروع شرك والحـاد ومشـابهـة الجاهلية ضلال يشبه العناد. ويخرج من كلام السندي أن للتعليق ثلاث صور، احـداهـا: اعتقـاد نفـع المعلق وهـذا شرك، ومنـه تعليق المـرضى

والمحمـومـين، في عهـدنـا لتراب الأضـرحـة والمزارات وما أشبهه. وقد حدثـوني أن في زواغـة غربي ميلة «مـرابطاً» له أشجار من الشجر المدعو عندنا «الهندي» يعلقون منها في أعناقهم دفاعاً للحمى وأن هذا التعليق شائع بينهم وهذا الضرب من التعليق انما هو لذلك الاعتقاد وانكاره اما جهل بحقيقة ما عند الناس أو عناد. ثانيتها: مشابهة الجاهلية بتعليق ما لا يتـبرك به من نحـو حلقـة أو عقـرب، أو ودعة مع السلامة من اعتقاد المشـركـين، فهـذا غير شرك ولكنـه ممنوع سداً للذريعة وعملاً بأحاديث الأمر بمخالفة أهل الكتاب والمجوس. ثالثها: التبرك بما يتبرك به شرعاً من أسماء الله وكتابه مع السلامة من ذلك الاعتقاد فهذا الذي قال فيه أبو بكر ابن العربي: ليس من السنة، وأجازه عيره وليس ذلك اختلافاً فان ما ليس من السنة قد يكون خفيفاً خلاف الأولى فقط فيتصف بالجواز - وفعل أحد الصحابة للشيء من غير أن ينسبه إلى الرسول لا يوجب أن يكـون من السنـة. وفي فتـح المجيـد أن علماء الصحـابـة والتابعين فمن بعـدهم اختلفـوا في تعليق التـمائم التي من القـرآن وأسـماء الله وصفـاته فأجـازه عبـد الله بن عمـرو بن العـاص وهو ظاهر ما روى عن عائشة، وقـال به البـاقـر وأحمد في رواية، ومنعه ابن مسعود وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفـة وعقبـة بن عامر وابن عكيم، وقال به من التابعين أصحاب ابن مسعـود وهـو روايـة عن أحمـد اختـارهـا كثـير من أصحابه وجزم بها المتأخـرون (ص٩١). وقـد علمت من الأحاديث السابقة استعظام من استعظم من الصحـابـة للتعليق حتى قال: الموت أقرب من ذلك، هذا على كمال توحيدهم ومعرفتهم بربهم. فلندع التمائم وما في معناها ولنقو إيـماننـا بآيـة: ﴿**قـل لن يُصيبنـا إلا ما كتب الله لنـا هو مولانـا وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾.

(٢١) المحبـــــة

المحبة من المعاني التي يلتبس شرعيها بشركيها وتدخل في العقائد الباطنة كالولاية. فرأينا أن نختم بها هذه المباحث في الولاية والكرامة وما يلتبس بها من كهانة وسحر وما يلابس السحر من رقى وتمائم. ثم نعقبها بمظاهر الشرك القولية كالدعاء، والفعلية كالزيارة والمالية كالذبائح.

معنى المحبـة في اللغـــة :

المحبـة والحب الـوداد وارادة الخير. وتستعمل هذه المادة في معان مرجعهـا كما في مدارج السـالكـين اما إلى الصفاء والبياض ومنه الحبب بفتحتين لتنضد الأسنان، واما إلى العلو والظهور ومنه حباب الماء بالفتح للفقاقيع التي تعلوه كأنها القوارير. يقال: طفا الحباب على الشراب وأما إلى اللزوم والثبـات ومنـه أحبـاب البعـير أي بروكه. يقال أحب البعير أحباباً إذا أصابه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وأما إلى الأصـــل واللب ومنـــه الحبـــة من الحنطـة ونحـوهـا، وحبـة القلب سويـداؤ ه، وامـا إلى الحفـظ والامساك ومنه الحب بالضم للجرة واحدة الجرار. وكل هذه المعاني الخمس لازمة للمحبة بمعنى المودة.

وفرق أبو هلال العسكري بين الحب والود بأن الحب، يكون فيما يوجبـه ميـل الطبع أو الحكمة فنقول: أحب الرجل وأحب الصلاة. وأن الود يختص بميل الطبع فنقول: أود الرجل ولا تقول أود الصلاة. وفرق أيضـاً بين المحبـة والارادة بأن الارادة تتعلق بالشيء لذاته والمحبة تتعلق به لمعنى فيه. فنقول: أحببت زيداً تريد نفعه واكرامه ولا تقل أردته بهذا المعنى. (ص٩٨، ٩٩).

أوجـــه المحبـــة :

وقال الراغب: «المحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة كمحبة الرجل المرأة ومنه: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا». ومحبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به. ومنه: «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب». ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم. وربما فسرت المحبة بالارادة في نحو قوله تعالى: ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا**﴾. وليس كذلك فإن المحبة أبلغ من الارادة كما تقدم آنفاً فكل محبة ارادة وليس كل ارادة محبة. .

معنى المحبـــة في القرآن :

وقوله تعالى: ﴿فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾. فمحبة الله تعالى للعبد انعامه عليه ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه. وقوله تعالى: ﴿**إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي**. . ﴾ فمعناه أحببت الخيل حبي للخير وقوله تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾ أي يثيبهم وينعم عليهم وقال: «لا يحب كل كفار أثيم». وقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾. تنبيهاً أنه بارتكاب الآثام يصير بحيث لا يتوب لتماديه في ذلك، وإذا لم يتب لم يحبه الله المحبة التي وعد بها التوابين والمتطهرين، هذا كلام الراغب وقد وضعنا نقطاً للدلالة على أنا حذفنا من أثنائه ما لم نر نقله.

المحبـــة الدينيـــة وثمرتهـــا :

وقد أورد في مدارج السالكين ثلاثين عبارة في تعريف المحبة نقتصر منها على واحدة وهي: «ارادة غرست أغصانها في القلب فأثمرت الموافقة والطاعة» (٣ : ٩) والمحبوب هذه المحبة اما الله أو غير الله. ومحبة

الله من أسباب انشراح الصدر ومحبة سواه مما يعذب القلب وينكد العيش. قال في زاد المعاد: «هما محبتان محبة هي جنة الدنيا وسرور النفس ولذة القلب ونعيم الروح وغذاؤ ها ودواؤ ها بل حياتها وقرة عينها وهي محبة الله وحده بكل القلب وانجذاب قوى الميل والارادة والمحبة كلها إليه. ومحبة هي عذاب الروح وغم النفس وسجن القلب وضيق الصدر وهي سبب الألم والنكد والعناء وهي محبة ما سواه سبحانه» (١ : ١٥٣).

حكم المحبة الدينية :

وقال في الفتح: «محبة الله على قسمين فرض وندب فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضى بما يقدره. فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحثات والاستكثار منها فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الاقلاع مع الندم. وإلى الثاني يشير حديث: لا يزني الزاني وهو مؤ من. والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات. والمتصف عموماً بذلك نادر.

«وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ويزاد أن لا يتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ولا يسلك إلا طريقته ويرضى بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضاه ويتخلق بأخلاقه في الجود والايثار والحلم والتواضع وغيرها» (١ : ٥٢).

علامـة المحبة الدينية والباعث عليها :

وقـال أيضـاً في البـاعث على هذه المحبـة وعـلامة تحققها : «من استكمـل الايـمان علم أن حق الله ورسـولـه آكد عليه من حق أبيه وأمه وولـده وزوجـه وجميـع الناس لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنـما كان بالله على لسـان رسـولـه . ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل والذب عن شريعته والتخلق بأخلاقه» (١٠ : ٣٨٠) .

المحبـة في الله ومع الله :

ولا تنـافي بين تخصيص ابن القيم المحبـة المحمـودة بالله وتعميم الحافظ لها وتعديتها إلى النبي ﷺ فإن محبة غير الله إما أن تكون في الله أو مع الله . فالمـحبـة في الله أن تحب من يحبـه الله . والله يحب المحسنـين والمتقـين والتـوابـين والمتطهرين . واذن تكون محبة غير الله من معنى محبة الله مقـويـة لها غير متنـافيـة معها . والمحبة مع الله أن يتعلق قلبك بسواه فتغفـل عن الله وتتـوجـه إلى غيره بالـرغبة والرهبة فستكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها . فالمحبة في الله محمودة متعدية إلى كل داع إلى الله من الأنبياء المرسلين والأولياء الصالحين والعلماء العاملين . وهذه الحالة هي التي في كلام الحافظ . والمحبة مع الله ذميمة حاملة لكل ما في الشرك من مساوىء وأضرار .

ما جـاء في المحبـة :

وقـد جاء في الكتـاب والسنـة عطف الرسول على الله في المحبة : قال تعـالى : ﴿قُـل ان كان آبـاؤ كم وأبنـاؤ كم وإخـوانكم وأزواجكم وعشـيرتكم وأمـوال اقترفتُموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسـولـه وجهـاد في سبيله فتربصـوا حتى يأتي الله

بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. وفي الصحيحين عن أنس (رضى الله عنه) أنه ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وان يكره ان يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

ومعنى محبة المرء لله أو في الله أن لا تحبه لطمع في الدنيا كما ذكره في طبقات الحنابلة عن أحمد (ص٣٣) بل تحبه لما عليه من الهدى والاستقامة. وفي الدر المنثور من رواية ابن أبي حاتم وأبي نعيم في الحلية والحاكم عن عائشة (رضى الله عنهما) أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: الشرك اخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن يحب على شيء من الجور ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض في الله؟ قال الله تعالى: ﴿قُل إن كنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني يحببكم الله﴾ (٢: ١٧).

قال الحافظ في الفتح: «وقد اختلف في سبب نزول الآية فأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال كان قوم يزعمون أنهم يحبون الله فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل. فأنزل الله هذه الأية. وذكر الكلبي في تفسيره عن ابن عباس أنها نزلت حين قال اليهود: «نحن أبناء الله وأحباؤه». وفي تفسير محمد ابن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير: «نزلت في نصارى نجران قالوا إنما نعبد المسيح حباً لله وتعظيما له. وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في قريش قالوا: إنما نعبد الأصنام حباً لله لتقربنا إليه زلفى فنزلت» (١٠: ٤٥٩).

لوازم المحبة الشرعية:

وقد أرشدت هاته الآية إلى آية الصدق في دعوى حب العبد ربه

وأثبتت آية المائدة لهؤلاء المحبين أربع صفات فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ . فقوله أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . معناه الاخبار عنهم بالسهولة والتواضع في رحمة وعطف مع اخوانهم في الدين وبعزة النفس وشرف القوة مع خصومهم في الدين ، وعن هاتين الصفتين : عبر في سورة الفتح بقوله : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ . وقوله ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ اخبار عنهم ببذل نفوسهم وأموالهم في نصرة الدين في مواطن الحرب بالسيف وفي مواضع السلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقوله : ولا يخافون لومة لائم ، اخبار عن عدم مبالاتهم بمن يغضبون من كلمة فيها رضى الرب .

ومجموع ما أفادته آيتا آل عمران والمائدة خمس صفات هي الدلائل على صدق المحبة لله . وهى اتباع الرسول ﷺ . والتراحم مع الاخوان في الدين والشدة على الأعداء فيه ، والقيام بكل ما يؤيد الدين وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاة للناس .

مظاهر المحبة الشركية :

تلك لوازم المحبة الشرعية وخلافها المحبة الشركية وهي كل محبة تغر في الدين وتبعث على الاكتفاء بها دون الجد في الصالحات وتحرى المشروع منها ولا تثمر ربط القلوب وصلتها بعضها ببعض اذا اتحدت على الشهادتين ، ولا توجب النفور من كل من يحاول هدم تعاليم الإسلام ولا تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا تعود صاحبها على استعذاب العذاب في خدمة المبدأ الحق المجمل في الشهادتين .

وهـذه المحبـة الشـركيـة هي التي ردهـا الله على مشركي قريش وضلال اليهـود والنصـارى بآيـة آل عمـران المتقـدمة وبقوله في المائدة: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤ ه قُل فلم يعذبكم بذنوبكم؟﴾.

ومن كلام الحسن البصـري «ابن آدم لا يغـرنك أن تقول المرء مع من أحب فانـك لن تلحق الأبـرار إلا بأعمالهم وأن اليهـود والنصـارى ليحبون أنبياءهم ولا والله ما يحشرون معهم ولا يدخلون في زمرتهم وانهم لحطب جهنم هم لها واردون». نقله ابن الجوزي في رسالته (ص٣٢).

فائدة المحبـة الشرعيـة :

وقد أشارت هذه الآية إلى فائدة المحبة المشروعة وأنها النجاة من العـذاب. وأفـاد حديث الصحيحـين عن أنس (رضى الله عنه) أنه ﷺ قال: المـرء مع من أحب. فائـدة أخـرى وهى أن من أنجته محبته ألحقته بحبيبه في الدرجة وإن كان دونه في العمل.

حكايـة في المحبـة :

حكي في كشف الخفاء عن البيهقي أن رجلاً من أهل بغداد سأل أبـا عثمان الـواعظ متى يكون الرجل صادقاً في حب مولاه. فقال: «اذا خلا من خلافـه كان صادقـاً في حبـه» فوضـع الرجل التراب على رأسه وصـاح وقـال «كيف أدعي حبه ولم أخل طرفة عين من خلافه» فبكى أبو عثمان وأهل المجلس وصار أبو عثمان يقول في بكائه «صادق في حبه مقصر في حقه» (٢ : ٢٠٣).

عدم الاتكال على المحبـة :

وليس معنى هاتـه الحكـايـة أن الـرجـل كان متكـلاً على المحبة معـرضـاً عن العمـل وانما معناها أنه كان مستقلاً لعمله مستكثراً لذنبه.

ومما أورده في مدارج السالكين من عبارات العلماء عن المحبة قولهم: «استكثار القليل من جنايتك واستقلال الكثير من طاعتك» (٣ : ٨) فلا تظن من هذه الحكاية اسقاط العمل اكتفاء بالمحبة، فقد نقل في كشف الخفاء عن بعض العلماء بعد ما أورد حديث المرء مع من أحب ورواياته أنه «مشروط بشرط وعنى ﷺ انه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم» ولقد صدق القائل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته   ان المحب لمن يحب مطيع

(٢٢) الدعـــاء

معنى الدعـــاء :

فسروا الدعاء بالسؤال والطلب والرغبة ففى المصباح «دعوت الله أدعـوه دعـاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيـداً ناديتـه وطلبت اقبـالـه» وفي المفـردات : «دعـوتـه إذا سألتـه وإذا استغثته» وفي الفتح عن الطيبي «الدعاء هو اظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكـانـة له . ومـا شرعت العبـادات ، إلا للخضوع للباري واظهار الافتقار إليه» (١١ : ٧٩) .

وللدعـــاء أخـــوات في المـادة ومعـان في الاستعـمال مرجعهـا إلى السؤال في ضراعـه والـرغبـة في استكانة وعن هذا المعنى عبر في تفسيره المنـار بقـولـه : «وحقيقـة الدعاء هي شعور القلب بالحاجة إلى عناية الله تعـالى فيـما يطلب وصـدق التـوجـه إليه فيما يرغب» (٢ : ١٥) فان ذلك الشعور الباطني يوجب الضراعة ويثمر صدق التوجه بالسؤال .

والـدعـاء بهذا المعنى ، يصدق بالاستعاذة والاستغاثة وغيرهن مما فيــه معنى الطلب لأنهـــا طلب العـــوذ والعـون والغـوث ، كاستنصـره واستصـرخـه واستعـداده إذا طلب نصـره وصـراخـه وعـدواه . والعوذ : الالتجـاء إلى آخـر والتعلق به على معنى الامتنـــاع به من المكـــروه ، والغـوث والعـون والصـراخ والعـدوى ، بالفتح كلها تحمل معنى النصر والتقـويـة . تقـول استعـذتـه واستعذت به فأعاذني واستعنت به فأعانني واستغثتـه واستغثت به فأغـاثني واستنصـرتـه فنصرني واستعديت الأمير على الظالم فأعداني واستصرخت ابن العم فأصرخني . ويتضمن الدعاء

وجود المدعو وغناه وسمعه وجوده ورحمته وقدرته، إذ لا يدعى المعدوم ولا الفقير ولا الأصم ولا البخيل ولا القاسي ولا العاجز.

صفات المدعو الدعاء العادي :

فإذا طلبت العوذ أو العون أو أمرا آخر من المخلوق القادر عليه عادة لم يكن طلبك عبادة فلم يختص بالله ولم تكن به مشركاً وكذلك إذا نسبت شيئاً من ذلك لغير الله لكونه سبباً عاديا فتقول استعذت بالحاكم من الظالم واستغثت بالجيران على اللصوص واستصرخت ذا الغيرة على المغير.

ما جاء فى الدعاء العادي :

وقالوا «الصوم عون على العفة» وفي المثل «عبد صريخه امة» وقال الله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة ـ وتعاونوا على البر والتقوى ـ فاستغاثه الذين من شيعته على الذي من عدوه ـ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر».

الدعاء الديني :

وإذا كان المطلوب لا يقدر عليه إلا من له قوة غيبية وهو فوق الأسباب العادية كان الطلب عبادة تختص بالله تعالى ويكون طلب غيره حينئذ شركا بالله، قال تعالى :

﴿قُل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أياماً تَدعُوا فله الأسماء الحسنى ـ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ـ إذ تستغيثون ربكم ـ وربنًا الرّحمن المستعان على ما تصفون﴾.

وجاءت أحاديث في الحث على الدعاء وأنه من العبادة:

١ ــ فعن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) قال: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم كما في بلوغ المرام للحافظ ابن حجر. وفي تحفة الذاكرين للشوكاني أنه من حديث عائشة عند أحمد والبخاري في التاريخ وابن ماجه وأن الذهبي أقر تصحيح الحاكم (ص٢١) ورأيته في الأدب المفرد عن أبي هريرة.

٢ ــ وعنه أيضا انه (ﷺ) قال: «من لم يسأل الله غضب الله عليه. أخرجه في الأدب المفرد بهذا اللفظ ونسبه في تحفة الذاكرين للترمذي والحاكم زاد في الفتح أحمد وابن ماجه والبزار والحاكم وكلهم أخرجوه من رواية أبي صالح الخوزي بضم الخاء، ضعفه ابن معين وقواه أبو زرعة كما في الفتح (١١: ٧٩).

٣ ــ وعن أنس أنه (ﷺ) قال الدعاء مخ العبادة أخرجه الترمذي.

٤ ــ وعن النعمان بن بشير انه (ﷺ) قال الدعاء هو: العبادة. ثم قرأ: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين. قال في كشف الخفاء «هو عند ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم. وقال الترمذي حسن صحيح» (١: ٤٠٣) وتقدير الربط بين صدر الآية وعجزها هو أن الدعاء أخص من العبادة وهي أعم. فمن استكبر عنها استكبر عنه وهذا تقرير التقي السبكي ونقله غير واحد.

وفي تفسير الثعالبي عن ابن رشد أنه قال في البيان: «الدعاء عبادة من العبادات يؤجر فيها الأمر العظيم أجيبت دعوته فيما دعى به أم لم تجب». (١ : ١٤١). وقد وصفوا الدعاء بالاستحباب الذي هو من خواص العبادة. فكون الدعاء عبادة دل عليه الكتاب والسنة وكلام الأيمة.

الدعـــاء بالمأثور وفوائـــده :

وإذا كان الـدعـاء عبـادة وجب أن يختص بالله وأن يحترز فيـه من الـوقـوع في الشـرك أو فيما هو ذريعة إليه. ولهذا نصح العلماء للداعين أن يدعوا بالمأثور. ففي شرح ابن علان للأذكار النووية عن عياض أنه قال:

«اذن الله في دعـائـه وعلم الـدعـاء في كتـابـه لخليقته وعلم النبي (ﷺ) الدعاء لأمته واجتمع فيه ثلاثة أشياء العلم بالتوحيد العلم باللغة والنصيحة للأمة. فلا ينبغي لأحد أن يعلن عن دعائه (ﷺ) وقد احتال الشيطـان للنـاس من هذا المقام فقيض لهم قوم سوء يخترعون لهم أدعية يشتغلون بها عن الاقتـداء بالنبي (ﷺ) وأشـد ما في الحال أنهم ينسبونها إلى الأنبيـاء والصـالحـين فيقولون: دعاء نوح دعاء يونس دعاء أبي بكر الصديق. فاتقوا الله في أنفسكم، لا تشتغلوا من الحديث إلا بالصحيح» (١ : ١٧).

أقسام الدعاء الديني :

والداعي: اما أن يدعو بنفسه أو يدعو له غيره. والداعي بنفسه أو لغيره اما أن يدعو الله أو غير الله بتوسل أو بدونه. فالتوسل يأتي ان شاء الله في الفصل التالي. والدعاء من غير توسل ثلاثة أقسام: هي دعاؤك الله وحده ودعاء آخر لك ودعاء غير الله.

دعــاء الله لنفسك :

القسم الأول دعـاء الله وحـده في غير توسـل : وهـو توحيد محض وعبادة خالصة ان لم يعتد الداعي في دعائه. وقد ختم القرافي فروقه ببيان ما هو من دعاء الله وحده كفر أو معصية محرمة أو مكروهة وبسط القول في ذلـك في الفـروق الثـاني والثالث والرابع بعد السبعين والمائتين. وتجد في كتب الأدعيـة والأذكـار آداباً للدعاء وشروطا وأحكاماً ليس تفصيلها من غرضنا. وهذه أمثلة لهذا القسم من الكتاب والسنة.

أمثلتـــــه :

١ ــ قال تعـالى : ﴿**ربنـا آتنـا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾.

٢ ــ وقـال أيضـاً : ﴿**ربنـا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً**﴾.

٣ ــ وقال أيضاً : ﴿**رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء**﴾.

٤ ــ وفي مسلم وغـيره انـه (ﷺ) قال : «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

٥ ــ وفي سنن أبي داود وغيره انه (ﷺ) قال : «اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك».

٦ ــ وفي مسـلم انــه (ﷺ) قال اللهم اصلح لي ديني الــذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي واصلح لي آخرتي التي إليها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر». وقـد خصت الأدعيـة النبـويـة بالتأليف وممـا هو متـداول منها

اليوم: الأذكار النووية والحصن الحصين لابن الجزري.

دعاء الله لغيرك حكم الدعاء للغير بلا طلب منه :

القسم الثاني دعاء غيرك لك وهو جائز إذا سأل لك الله سواء طلبت منه الدعاء أم لم تطلبه. فاما دعاؤ ه لك من غير طلب فقد وردت به الآيات والأحاديث.

١ ــ قال تعالى: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾.

٢ ــ وقال أيضاً: ﴿**واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾.

٣ ــ وحكى عن إبراهيم: ﴿**ربّ اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب**﴾.

٤ ــ وحكى عن نوح: ﴿**رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات**﴾.

٥ ــ وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل».

حكم الدعاء للغير بطلب منه :

وأما الدعاء لآخر بطلب منه فقد كان الصحابة يسألون الدعاء من النبي ﷺ ويأتونه بأبنائهم يحنكهم ويدعو لهم. وعن عمر بن الخطاب أنه استأذن رسول الله ﷺ في العمرة فأذن له، وقال: لاتنسنا يا أخي من دعائك، أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وفيه دلالة على أن سائل الدعاء قد يكون أفضل من المسؤول منه.

الاحتياط في إجابة طلب الدعاء :

وينبغي طلباً للسلامة أن لا ينصب المطلوب منه نفسه للدعاء وأن لا يعتقد أنه أفضل من الطالب. وقد ذكر في الاعتصام ان في امتناع الصحابة من الدعاء لمن سأله منهم وأن امتناعهم ليس لذات الدعاء وإنما هو لأمر زائد، قال: «وهو أن يعتقد فيه أنه مثل النبي أو انه وسيلة إلى أن يعتقد ذلك أو يعتقد أنه سنة تلزم أو يجري في الناس مجرى السنن الملتزمة» (٢ : ٢٠).

ونقل القرافي في أواخر فروقه عن مالك وجماعة من العلماء: كراهة الانتصاب للدعاء من أيمة المساجد وغيرهم، وعلل الكراهة بتوقع فساد القلوب وحصول الكبر والخيلاء. ومعلوم أنه إذا تحقق ذلك المتوقع، كان الانتصاب محرماً وقد يفضي بالمنتصب أو غيره إلى الشرك باعتقاد أنه واسطة بين الخلق والحق في قضاء الحاجات واستدرار الخيرات وربح خصومه أو نيل منصب في حكومة.

مفاسد الانتصاب للدعاء :

وقد وجد في عصرنا من الطرقيين والمرابطين من ينتصب للدعاء ويصرح بكونه واسطة بين الله وخلقه في جلب المحبوب ودفع المكروه، فإذا رضي عن أحد ضمن له ما يشتهي من حاجات من الدنيا ونعيم الآخرة، وإذا غضب عن آخر توعده بحلول النقمة، ورضاه وغضبه تابعان لمطامعه فيما في أيدي الناس. ورأينا من الجهال المعتقدين في لصوص الدين هؤلاء من يبذل فوق طاقته طلباً لرضاهم عنه وفوزه بدعوة منهم له، ويشتري ما ينتسب إليهم من شمع وبخور مزايدة بأرفع

الأثمان ليقوم ذلك الشيء المشتري مقام دعوة صاحبه. ففي الانتصاب للدعاء وسؤاله ذريعة إلى الشرك والعياذ بالله.

دعاء غير الله وحكمه :

القسم الثالث دعاء غير الله، وهو في مقابلة القسم الأول، فهو شرك صريح وكفر قبيح. وله نوعان: أحدهما دعاء غير الله مع الله كالذي يقول: يا ربي وشيخي يا ربي وجدي، يا ألله وناسه يا ألله يا سيدي عبد القادر. وسمعت كثيراً يحكون أنهم كثيرا ما يسمعون فلاناً يقول: «ياربي يا سيدي يوسف اغفر لي» ويوسف هذا من أولاد ابن الدرويش، احدى فصائل أولاد العابد من متصرفية الميلية، توفي حديثاً.

واطلاق الشرك على هذا النوع واضح لأن الداعي عطف غير الله على الله بالواو ثابتة أو محذوفة، وهي تقتضي مشاركة ما بعدها لما قبلها في الحكم. والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء.

النوع الثاني: دعاء غير الله من دون الله، كالذي يقول: يا رجال الدالة يا ديوان الصالحين. واطلاق الشرك على هذا النوع باعتبار أن الداعي وان اقتصر على المخلوق في اللفظ، لم ينكر الله ولم يبرأ منه في العقد فكأن الله في كلامه مضمر. ويصح في النوع الأول اطلاق أنه دعاء غير الله من دون الله أيضاً، لأن الداعي لما أشرك بالله في دعائه لم يكن داعياً على الوجه المشروع فكأنه لم يذكر الله لفظاً لأن المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً. والمعدوم هنا هو ذكر الله مشركاً بسواه.

انكار القرآن لدعاء غير الله :

كان القسم الثالث معهوداً بنوعيه عند العرب في جاهليتهم

فعالجهم الكتاب العزيز ليصرفهم عنه تارة بتوجيههم إلى سؤال الله، وأخرى بتعجيز المسؤولين من دون الله، وأحياناً بتذكيرهم بما كمن في نفوسهم من توحيد الله وظهور ذلك في ألسنتهم عند اشتداد الخطب وغلبة اليأس، وتارات بالأخبار عن تعاديهم عند البعث مع أوليائهم الذين يدعونهم اليوم. أتاهم الكتاب من هذه الجهات الأربع ليقتلع من نفوسهم جذور الشرك.

ما جاء في توجيه الداعي إلى الله:

١ ـ فمن الآيات في الجهة الأولى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعان ـ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ـ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير».

ما جاء في تعجيز المسؤولين:

٢ ـ ومنها في الجهة الثانية: «ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ـ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون ـ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ـ يآيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز».

ما جاء في تذكير السائلين بالتوحيد :

٣ ــ ومنها في الجهة الثالثة : «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو اتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ـ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ـ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ـ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يُشركون» .

ما جاء في تعادي السائلين والمسؤولين :

٤ ــ ومنها في الجهة الرابعة : «اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ـ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» .

حديث ابن عباس :

هذا بعض ما في المقام من الآيات ، أما الأحاديث فنقتصر منها على حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً ، فقال يا غُلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا

بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفت الصحف. أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه غيره بروايات فيها زيادات ولعظمه في الدين ذكره النووي في الأربعين حديثاً، وأفرد الحافظ ابن رجب الكلام على رواياته ومعانيها برسالة سماها «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس».

عموم عجز المخلوق:

تأمل تعجيز النبي ﷺ لجميع الأمة على اجتماعها عن اسداء الخير أو الايذاء بالشر من غير أن يستثني ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو ولياً صالحاً أو شجرة عتيقة أو صخرة ضخمة. وهذا التعميم في التعجيز هو ما تنادي به الآيات السابقة وغيرها، وصرح بأن خيار خلقه الذين يبتغون التقرب منه ويرجونه ويخافونه، لا يملكون كشف الضر عن أحد ولا تحويله.

فشو دعاء غير الله:

ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدة انكار كتابهم له وتحذير نبيهم منه، حتى صار الجهلة ومن قرب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده. والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها ممل معجز، فلنقتصر على حكاية واحدة.

الحكاية العاشورية:

ففي سنة سبع وأربعين، قتل شيخنا محمد الميلى رحمه الله، فأتيت من الأغواط. وجاء للتعزية الشيخ عاشور صاحب «منار الأشراف» وملقب نفسه «كليب الهامل»، والهامل قرية بالحضنة قرب أبي سعادة بها زاوية كانت تمده بالمال. فحضرت مجلسه ولم أشعره

بحضوري إذ كان قد اجتمع عليه العمى والصمم. وذلك لئلا يحترز في حديثه أو نقع في حديث غير مناسب للمقام.

سمعت في ذلك المجلس بأذني «كليب الهامل» يحكي مناقضاً لدعوة الاصلاح التي اشتهرت يومئذ، أن شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية كان مع مريديه في سفينة فهاج بهم البحر وعلت أمواجه، فلجأوا جميعاً إلى الله يسألون الفرج والسلامة. وكان الشيخ منفرداً في غرفة يدعو فلم تنفرج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالاجابة، فوقع في روعه أنه أتي من قبل أتباعه. لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه. فخرج على أتباعه مغضباً يقول: «ماذا صنعتم في هذه الشدة؟» فقالوا «دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين» إشارة لقوله تعالى: أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة ووبخهم عليه وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه وسؤاله ثم هو وحده بتوجه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحدين وامتثلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين. وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو متوسطاً بين الله ومريديه، فانكشفت الغمة وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه وفقهه سر البطء عن استجابة دعائه، وتفقيهه لأتباعه سر النجاة وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله.

هذا معنى ما سمعته من كليب الهامل، ولم أقيد الحكاية حين السماع حتى أؤديها بلفظها وأصورها بنصها، ولم يسعني وأنا في مقام التحذير من الشرك اجتناب إدراج ما ينافي غرض الحاكي في الحكاية حتى تتم ثم أعلق عليها، لئلا يعلق بذهن القارىء شيء من الشرك،

ولـو إلى حين، ولم أميـز المـدرج في الحكـاية، لأنه لا يخفى على العارف بحال المعارضين لدعاة الاصلاح الديني.

يستـدل الشيـخ عاشـور وأشبـاهـه بأمثال هذه الحكاية على لزوم التعلق بشيوخ الزوايا وتوسيطهم بين العباد وربهم، ناسخين بها نصوص الشـريعـة الكثـيرة المحكمة وتتلقفها منهم العامة بقلوبها وتتمسك بها في الاحتجـاج لإيثـار دعـاء غير الله، وتعتقـد أن ذلـك أليق بحـالها من أن تخاطب بنفسها أرحم الراحمين، سنة المشركين من قديم كما تقدم عن الكلدانيين.

إعراض المبتدعين عن محكم الكتاب وصحيح السنة :

والحكاية العاشورية تدل على أن معتقدها أحط فكراً وأقبح جهلاً وأبعد كفراً من مشركي العرب الذين يخلصون الدعاء لله في حال الشدة واضطراب الموج. ولم يزل من يعظ الناس بنحو تلك الحكاية ويغرس في الـقلوب ضريب تلك العقيـدة، ولا يرجعـون في تمحيص ذلـك إلى الكتـاب والسنـة، فإن اضطـروا إليهـما تمسكـوا بمتشـابه الكتاب ابتغاء الفتنـة وابتغـاء تأويله. وبضعيف الحـديث المتـداعي والمـوضـوع الذي لا تحل روايتـه إلا للتحـذيـر منه وتلك عادة المبتدعين من قديم لا يعنون بمحكم الـذكـر وصحيح الأثر، ولكن بالحكايات المختلقات والأضاليل الملفقات. فإن نصح لهم ناصح رموه بخبال في الرأي أو ضلال في الفهم أو زيغ في العقد لا عن حجة وبيان ولكن ثقة بالذين يصدقونهم في كل بهتان.

قال تعـالى : **﴿قـل اللهم فاطـر السمـوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ ﴿ففروا إلى الله**

إني لكم منـه نذيـر مبين﴾ ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر اني لكم منه نذير مبين كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتـواصـوا به بل هم قوم طاغـون، فتول عنهم فما أنت بملوم، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾.

(٢٣) الوسيلـــــة

معنى الوســيلة في اللغــة :

في القـامـوس الـوسيلة : هي المنزلة عند الملك والدرجة والقربة . وفي الصحـاح والمصبـاح : هي ما يتقـرب به إلى الشيء . وفي المفردات هي التوصل إلى الشيء برغبة . وفي فروق أبي هلال «الوسيلة عند أهل اللغـة هي القـربـة ، وأصلهـا من قولك سألت : اسأل أي طلبت ، وهما يتـواسـلان أي يطلبـان القـربـة التي ينبغي أن يطلب مثلهـا ، وتقـول : توسلت إليه بكذا فتجعل كذا طريقاً إلى بغيتك عنده» .

الفـرق بين الوســيلة والذريعــة :

والذريعة إلى الشيء هي الطريقة إليه ، ولهذا يقال : جعلت كذا ذريعـة إلى كذا ، فتجعل الذريعة هي الطريقة نفسها . وليست الوسيلة هي الطريقة فالفرق بينهما بيِّن» (ص٢٤٨) . ولعل الفرق البيّن هو كون الـوسيلة مقصـود التـوصـل بها إلى المـرغوب فيه ، والذريعة قد توقع فيما ليس بمراد أولاً .

تقـول : وسلت إليـه بالعمـل ـ من باب وعـد ـ رغبت وتقربت . ووسـل إليـه توسيـلاً ، وتـوسـل توسـلاً : عمـل عمـلاً تقـرب به إليـه . والواسل : الراغب ، قال لبيد :

أرى النـاس لا يدرون ما قدر أمـرهم
بلى كل ذي ديـن إلـى الله واسـل

وقال أبو طالب في مطلع لاميته :

ولمـا رأيـت القـوم لاودّ فيهمـو ... وقـد قطعـوا كل العرى والوسائل

يريد أنواع الصلة وضروب الروابط .

خلاصـــة معنى الوسيلـــة :

واستبـان من بيـان اللغـوين للوسيلة أنهـا تتضمن ثلاثـة أشياء : القـربـة ، والـرغبة ، والتوصل ، فهي على هذا قربة موصلة لأمر مرغوب فيه . وعلى هذا ينبني المعنى الشرعي في مستعمل الكتاب والسنة . قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**﴾ وقال أيضا : ﴿**أولئـك الـذين يدعـون يبتغـو ن إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب**﴾ . وفي البخاري عن جابر بن عبد الله أنه ﷺ قال ؛ من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الـدعـوة التـامـة والصـلاة القـائمـة آت محمـداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة .

معنى الوســيلة في آيـة المــائدة :

١ ــ أمـا الـوسيلة في الآيـة الأولى ، فقد حكى في الدر المنثور عن مفسري الصحابة والتابعين فيها أربع عبارات : عبارة حذيفة (رضى الله عنـه) وغـير واحـد أنهـا القـربـة ، وعبارة قتادة أنها الطاعة لله والعمل بما يرضيه ، وعبارة أبي وائل (رضى الله عنه) أنه الايمان ، وعبارة ابن عباس أنها الحاجة . وأنشد قول عنترة :

ان الــرجــال لهم إلـيــك وسيـلة　　　أن يأخــذوك تكـحّــلي وتخـضـبي

والعبارات متواردة على معنى واحد، فطاعة الله وعمل ما يرضيه قربة ، والايمان عند السلف عقد وقول وعمل فآل إلى الطاعة . والحاجة من الاحتيـاج والافتقـار، فان كان لله ، فهـو من الايـمان المثمر للطاعة . وقـال الـراغب بعـد هذه الآيـة : «وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة

سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة» فرجعت الوسيلة إلى أنها القربة والطاعة، وحكى ابن كثير اتفاق المفسرين على هذا المعنى.

معنى الوسيلة في آية الاسراء :

٢ ـ وأما الوسيلة في الآية الثانية، ففسرها البغوي بالقربة وبالدرجة العليا. وليس بين اللفظين تضارب لأن الدرجة العليا ثمرة الطاعة والقربة. وفسرها رسول الله ﷺ بالقرب، وهوبمعنى الدرجة العليا. فقد روى الترمذى وابن مردويه عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «سلوا الله لي الوسيلة». قالوا: وما الوسيلة؟ قال: «القرب من الله». ثم قرأ: «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب». ذكره في الدر المنثور.

معنى الوسيلة في حديث جابر :

٣ ـ وأما الوسيلة في حديث جابر، فقد فسرتها الأحاديث بأنها أعلى درجة في الجنة، وذلك معنى القرب في حديث أبي هريرة. روى مسلم عن عبد الله بن عمروبن العاص (رضى الله عنهما) أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على فانه من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه عشرا. ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجوأن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة.

اتحاد معنى الوسيلة في الكتاب والسنة :

وإذا تأملت معنى الوسيلة في الآيتين والحديث وجدته متقارباً متلازماً، أصله القربة والطاعة التي ينشأ عنها القرب من الله في دار كرامته.

تحـديد معنى الوسـيلة في الشـرع :

وإذا استعنا بالمعنى اللغوي لتحديد المعنى الشرعي ، كان معناها في الشـرع قربـة مشـروعـة توصل إلى مرغوب فيه . والتوسل هو التقرب إلى الله بتلك القربة ، وتوسل الداعي هو طلبه المبني على تلك القربة . وليس في الشرع مطلوب ومدعو إلا الله ، وليس فيه من قربة إلا ما شرعه في الكتاب والسنة . قال ابن أبي زيد في رسالته : «ولا يكمل قول الايمان إلا بالعمل ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة» . . والنية القصد والاخلاص .

أنـواع التوسـل :

والتـوسـل إما بما يناسب المطلوب عقلاً وأذن فيه شرعاً ، واما بغير ذلك . وتفصيله أن المتوسل اما أن يتوسل بما لله من صفات وأسماء ، واما بما له من اعتقاد صحيح ، واما بما له من عمل صالح ، واما بما لغيره من دعاء أو جاه ، وإما بطاعة تعمه وغيره . فتلك ستة أنواع .

التوسـل بصفـات الله :

النـوع الأول ، التـوسل بصفات الله ، وهو مشروع لقوله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ . ولما رواه الترمذي وحسّنه عن معاذ ابن جبل (رضى الله عنه) أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : يا ذا الجلال والاكرام فقال «قد استجيب لك فسل» . وله أمثلة :

١ ـ منهـا ما أخـرجـه أحمـد وأصحـاب السنن الأربـع أبـو داود والـترمـذي والنسائي وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم عن أنس (رضى الله عنـه) أنـه ﷺ سمـع رجلاً يدعوه «اللهم إني أسألك بأن لك الحمـد لا إلـه أنت المنـان بديع السموات والأرض ذا الجلال والاكرام يا

حي يا قيوم» . فقال ﷺ : «لقد سأل الله باسمه الأعظم» .

٢ ـ ومنها ما رواه مسلم عن عائشة (رضى الله عنها) عن النبي ﷺ : «اللهم رب جبر يل وميكائيل وإسرافيل» . فان اضافة لفظ الرب إلى تلك المخلوقات العظيمة مشعر بعظيم قدرته وكمال حكمته .

٣ ـ ومنها الأبيات المشهورة المنسوبة لابن القاسم السهيلي ومطلعها :

يامن يرى مافي الضمير ويسمع   أنت المعد لكل ما يتوقع

التوسل بالإيمان :

النوع الثاني التوسل بالايمان الصحيح الصادق . وهو مشروع لما فيه من تقوية التوحيد . وله أمثلة :

١ ـ منها ما حكاه الله عن أولي الألباب : **﴿ربنا إننا سمعنا منادياً يُنادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتناوتوفنا مع الأبرار﴾** .

٢ ـ ومنها ما رواه الترمذي وحسنه بل صححه كما في مدارج السالكين . (١ :١٣) . وبقية أصحاب السنن الأربع ، وصححه ابن حبان والحاكم عن بريدة (رضى الله عنه) أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو ويقول : «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» فقال : «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى» .

٣ ـ ومنها قول تميم بن المعز بن باديس الأمير الصنهاجي المالكي :

فكـرت في نار الجـحـيم وحـرهـا ‏ ‏ يا ويـلتـاه ولات حين منـاص
فدعـوت ربـي أن خير وسـيـلتي ‏ ‏ يوم المـعـاد شهـادة الاخـلاص

التوسل بالعمـل الخاص :

النـوع الثـالث توسل الداعي بطاعته وصالح عمله ، وهومشروع لما فيه من تغذية الخشوع المناسب للموضوع . وله أمثلة :

١ ـ منها حديث الصخرة في الصحيحين أنه ﷺ قال : انطلق ثلاثـة نفـر ممن كان قبـلكـم حتـى آواهـم المـبيت إلى غار، فدخلوه . فانحـدرت صخـرة من الجبـل ، فسـدت عليهم الغـار فقـالـوا : انـه لا ينجيكم من هذه الصخـرة إلا أن تدعـوا الله بصـالـح أعمالكم ، ثم ذكر بروز الأول بأبويه وانفراج الصخرة قليلاً لدعائه وعفة الثاني عمن أمكنته من نفسها بعد شوق طويل وانفراج الصخرة له أيضا ، ومبالغة الثالث في حفظ الأمانة وتمام انفراج الصخرة ، وأنهم كلهم قالوا في أدعيتهم اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

ومنها تقديم الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء لما رواه أبو داود ، وصححه الترمذي ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي ويدعو، ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال : عجل هذا . ثم دعاه فقال : إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ، وليصل على النبي وليدعُ بعد بما شاء .

٣ ـ ومنها قول محمد بن عبد الله العبدري المالكي :

توسـلت ياربـي بأني مؤمـن ‏ ‏ ومـا قلت أني سامـع ومطـيـع
أيصـلي بحـر النـار عاص موحـد ‏ ‏ وأنمت كريم والـرسول شفيـع

وهذه الأنواع الثلاثة لتقاربها قد تجتمع أو بعضها في الصيغة الواحدة .

التوســل بالدعــاء :

النــوع الــرابــع : توســل المـرء بدعــاء غيره . وهــو على وجهين : أحــدهم أن تكتفي عن دعــائك بدعاء من سألته الدعاء ، وهذا تقدم في فصــل الــدعــاء ، وأنه مأذون فيه ما لم يكن ذريعة إلى منهي عنه كسؤال الدعاء من الميت والغائب ، لما فيه من مظنة الاعتقاد بعلم الغيب .

والــوجــه الثــاني أن تسأل الــدعــاء من الحي الحــاضر ، فيدعولك وتتوجه أنت إلى الله داعياً متوسلاً بدعائه .

حديث الأعمى :

وهــو مشــروع لحديث الأعمى عنــد أحمــد والنســائي ، وصححه الترمذي . وهو أن رجلاً ضريراً جاء إلى النبي ﷺ يسأله الدعاء ليرد الله عليــه بصــره فخيره بين الصبر ودعائه له ، فأصر على اختيار دعاء رسول الله ﷺ ، فأمــره بالــوضوء وصلاة ركعتين ثم الدعاء بهذا اللفظ : «اللهم إني أسألــك وأتــوجــه إليك بنبيك محمد ، نبي الرحمة . يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي ، اللهم فشفعه في» .

والتــوجــه بالنبي معنــاه التــوجــه بدعائه ، دل على هذا المحذوف اختيــار الأعمى لدعــاء الــرســول بعــد تخييره له بينه وبين الصبر . وأمره للأعمى بالدعاء بعد دعائه ﷺ ، نظير ما أخرجه مسلم وغيره قوله ﷺ لمن سألــه مرافقتــه في الجنة ، أعني على نفسك بكثرة السجود فنصح لهم بعادتي الصلاة والدعاء لمناسبتهما للمطلوب .

استسقــاء عمر بالعبــاس :

ونظير حديث الأعمى ما رواه البخاري في صحيحه من استسقاء عمــر بالعبــاس وقــولــه : اللهم انــا كنــا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا

نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، ففيه إثبات التوسل بالرسول في حياته وبأهل الفضل ولاسيما ذوو قرابته بعد موته. والمقصود التوسل بدعائهم إذا كانوا معنا في عالمنا، أما من كان في العالم الغيبي فكل شيء منه غائب علينا. فلا نعلم هل دعا لنا. ولم يرد الشرع بدعائهم لنا. والعباس حاضر وقع منه الدعاء وأنه قال كما في الفتح: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكانتي من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث (٢: ٣٩٨).

التوسل بالطاعة المطلقة:

النوع الخامس: التوسل بطاعة تعم المتوسل وغيره. ومن أمثلته ما في كبير الطبراني من طريق فضالة بن جبير المجمع على ضعفه عن أبي أمامة (رضى الله عنه)، مرفوعاً: أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض وبكل حق هو لك وبحق السائلين عليك، أن تقيلني في هذه الغداة وفي هذه العشية وأن تجير ني من النار بقدرتك. ومنها ما رواه أحمد وابن ماجه عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه: وأسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا، فاني لم أخرج أشراً ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومنها ما رواه محمد بن عون عن عن جابر في دعاء الأذان مرفوعاً: اللهم إني أسألك بحق هذه الدعوة التامة. وعطية العوفى ضعفوه وأطال السهسواني في صيانة الانسان القول في تعليل حديثه هذا. ومحمد بن عون فيه مقال. فلم تسلم الأحاديث الثلاثة من الطعن.

وتأول التقي ابن تيمية حديث عطية على فرض صحته بأن حق السائلين لله الاجابة، وحق العابدين له الاثابة، فسؤاله بهذا الحق سؤال له بأفعاله، كالاستعاذة بمعافاته في حديث: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك». أخرجه مسلم عن عائشة (رضى الله عنها) وهذا الحق أوجبه على نفسه تفضلاً منه ورحمة فقال: «كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ـ كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ـ وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن». بسط هذا التأويل في رده على البكري (ص٤٣) وعرج عليه في رسالة التوسل والوسيلة (ص٤٩).

وتأول السهسواني حديث محمد بن عون في صيانة الانسان بقوله: «ان المراد بهذه الدعوة التامة نوع الأذان لا أذان مخصوص، كما أن المراد مطلق الصلاة لا صلاة مصل معين. فغاية ما يثبت منه التوسل بمطلق الأعمال الصالحة من غير اضافتها إلى أشخاص معينين» (ص٢٠٥).

وعلى تأويل ابن تيمية يكون هذا التوسل بحق السائلين من النوع الأول. والأقرب عندي أن الحق هنا بمعنى الجاه والحظوة فهو كقولك: بجاه فلان، لكنه ليس توسلاً بالشخص بل بوصف السؤال الذي يتناول المتوسل. وسؤال الله عبادة. فيكون هذا توسلاً بعبادة مطلقة لا تخص المتوسل ولا المتوسل به. وهذا هو الذي يوافق تأويل السهسواني لحديث محمد بن عون، وهو الصواب إن شاء الله. وفارق هذا النوع الثالث لكونه مطلقا لا مقيداً بعبادة جزئية.

التوســل بالجــاه :

النوع السادس توسل: المرء بحق المخلوق وجاهه. وردت آثار لو صحت ولم تؤول لدلت على جوازه بكل معظم شرعاً، من ميت أو غائب أو حاضر، لم يقع منه دعاء للمتوسل، ولنقصر من الآثار على أحسنها اسناداً أو أشهرها على الألسنة.

ما ورد في التوسل بالجاه :

١ ـ روى ابن السني وأبو نعيم وأبو الشيخ الأصبهاني من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده، أن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) قال للنبي (ﷺ) : إني أتعلم القرآن ويتفلت مني، فعلمه (ﷺ) أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وبإبراهيم خليلك وبموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك، وبتوراة موسى وانجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد، وبكل وحي أوحيته وقضاء قضيته . . . الحديث.

٢ ـ وروى الحاكم في المستدرك وصححه من طريق عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً، لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي قال: وكيف عرفت محمداً. قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. قال: صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك.

وأخرج الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم وصححه من طريق روح بن صلاح المصرى، عن أنس (رضى الله عنه) في قصة وفاة فاطمة

بنت أسد أم علي بن أبي طالب (رضى الله عنهما)، أن رسول الله (ﷺ) دخل لحدها واضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اللهم اغفر لي ولأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فانك أرحم الراحمين.

٤ ــ وجاء من طريق عمرو بن ثابت عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال: سألت النبي (ﷺ) عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين الا تبت علي فتيب عليه.

٥ ــ وروى: إذا كانت لكم إلى الله حاجة فسلوه بجاهي فان جاهي عند الله عظيم.

٦ ــ وفي الباب الثالث من القسم الثاني من الشفاء عن محمد بن حميد الرازي، أن مالكا والخليفة المنصور اجتمعا فسأل المنصور مالكا: أيستقبل القبلة ويدعو أو يستقبل رسول الله (ﷺ)؟ فأجابه: «ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك. قال الله تعالى: ﴿ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾.

الكلام على ما ورد في التوسل بالجاه من ناحية الرواية :

وللعلماء في الكلام على أمثال هذه الآثار جهتان: جهة السند والرواية، وجهة المعنى والدراية. فأما الرواية، فإنه لم يخرج هذه الآثار من يلتزمون الصحة فيما يرون غير الحاكم في المستدرك، وقد عاب عليه

الحفـاظ التـزامـه الصحـة فيـه لاشتـمالـه على الضعـاف والـواهيـات والمـوضـوعـات، كما يعلم من كلام الـذهبي في الطبقـات والميـزان عند ترجمته، ومن كلام السخاوي في «الضوء اللامع» عند ترجمته لنفسه».

وحـديث عبـد الملك بن هارون في سنـده انقطـاع، وفيه وفي أبيه مقال. ضعفهما الدارقطني، ووصف عبد الملك بالكذب والوضع. وقال ابن حبان في أبيه هرون: لا يجوز أن يحتج به منكر الحديث جدا. وروح ابن صلاح مختلف في تضعيفه وتوثيقه. وعبد الرحمن بن زيد ضعفه علي ابن المديني جدا، وقال فيه ابن معين: ليس بشىء. وعمرو بن ثابت قال فيـه ابن معـين: ليس لله بشيء ليس بثقـة ولا مأمـون. وقـال النسـائي متروك الحـديث. وقـال ابن حبـان يروي المـوضوعات. ومحمد بن حميد ضعيف موصوف بالكذب وكثرة المناكير. كل هذا من الميزان.

قال ابن تيميـة في رسـالة التوسل والوسيلة بعد ايراده قصة اجتماع مالـك والمنصـور من الشفـاء «وهذه الحكاية منقطعة، فإن محمد بن حميد الـرازي لم يدرك مالكـا لاسيـما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أبا جعفر توفي بمكـة سنـة ثمان وخمسـين ومـائـة، وتـوفي مالـك سنة تسع وسبعين ومائة، وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحـل في طلب العلم إلا وهـو كبـير مع أبيه. وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث، كذبه أبو زرعة وابن وارة الخ» (ص٦٢).

وفي تفسـير القـرطبي عن ابن عبـاس والحسن وسعيـد بن جبـير والضحاك ومجاهد أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾. وحكى هو

والبغـوي وابن كثـير في المـراد من الكلمات أقوالا أخر ليس فيها ما يوافق رواية عمرو بن ثابت المتقدمة .

وهذا القدر كاف في تعرف حال تلك الروايات وأنها بين الضعيف والموضوع ، ليس شيء منها صالحاً للاحتجاج . أما الأثر الحاض فباطل ليس له سنـد ولا رواه من رجـال الحـديث أحـد كما قال ابن تيمية في رده على البكري (ص٤٦) وفي رسالة التوسل والوسيلة (ص١٢٤) .

تأويل ما ورد في التوسل بالجاه :

وأمـا الـدرايـة فإن قول القائل «بحق فلان» تحمل باؤ ه أن تكون للقسم وأن تكون للسبب . والاحتمال الأول غير صحيح شرعاً لوجهين : أحـدهما أن الحلف بالمخلوق للمخلوق ممتنـع شرعـاً فكيف به للخالق؟ وثانيهما أن فيه اعتقاد حق للمخلوق على الخالق ، وهو اعتقاد فاسد إلا فيما أحقه الله على نفسه تفضلاً منه ، كما تقدم في النوع الخامس من هذا الفصل . وقد أصاب من قال :

ما للعبـاد عليـه حق واجـب ... كلا ولا سعـى لديـه ضائـع
ان عذبـوا فبعـدلـه أو نعمـوا ... فبفضله وهـو الكـريم الـواسـع

والاحتـمال الثـاني : اما أن يقدر فيه مضاف هو لفظ المحبة ، أو هو لفظ صالح العمل ، واما أن لا يقدر فيه مضاف . فتلك ثلاثة أوجه .

حكم التوسل بالذات :

الـوجـه الأول أن يبقى اللفـظ على ظاهـره بلا تقـديـر مضاف . والمعنى عليه : بسبب كون فلان من عبادك الذين لهم حق عليك بوعدك الصـادق ، أجب دعـائي . قال في شرح الطحـاوية «وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة» وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء ، وقد قال تعالى : «ادعوا

ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين» . وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة . ولم ينقل عن النبي (ﷺ) ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن أحد من الأيمة . وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية . والدعاء من أفضل العبادات . والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع» (ص١٧٧) .

حكم التوسل بعمل آخر :

والوجه الثاني أن يقدر في اللفظ صالح العمل فكأنه يقول : بحق عمل فلان الصالح تقبل دعائي . وهو تأويل الشوكاني في الدرّ النضيد مستنداً فيه إلى حديث الصخرة كما في صيانة الانسان . وهو تأويل لا يفيد العامة إلا زيادة تضليل إذ لا يخطر على بالها من هذا المعنى كثير ولا قليل . واستناده إلى حديث الصخرة عجيب لا يستسيغه عقل عالم ولا ذوق أديب ، فإن أصحابها إنما توسل كل منهم بطاعته وإخلاصه ولم يتوسل الثاني مثلا بطاعة الأول ، مع أنه قد عاين كرامته بانفراج الصخرة لدعائه . ثم إن عمل غيرك ملك له لم يهبه لك ، فكيف تتقرب به إلى الله ويتناسب مع رغبتك في إجابة دعوتك؟ أن توسلك بعمل غيرك غير مقبول في الطبع ولا منقول في الشرع ، وإذا كان إيمان شخص لا يكون وسيلة لنجاة آخر في الأخرى . فعبادته لا تصلح وسيلة لدعائك في الدنيا . وكيف تستعير صلاح غيرك لقبول دعائك وقضاء حاجتك ، والصلاح جمال نفساني غير قابل للاستعارة كالجمال الجسماني؟ .

حكم التوسل بمحبة المحبوب :

والوجه الثالث : أن يقدر في اللفظ المحبة . فكأنه يقول بحق محبة فلان ـ من إضافة المصدر إلى المفعول ـ أى محبتي إياه . وهو وجه أبداه ابن تيمية . وقد قدمنا القول في المحبة . فمن اتصف بها على الوجه

المشروع كان توسله بها من باب التوسل بالإيمان الصحيح والطاعة المشروعة، غير أن المتصف بها قليل، وأكثر المتوسلين بتلك العبارة لا يقصدون إلى هذا المعنى إلا بعد تنبيههم إليه وإعلامهم به.

معنى الوسيلة بالجاه عند العامة :

هذا حكم التوسل بحق فلان، وقس عليه التوسل بجاهه أو بذاته ومن وقف على مقاصد العوام في توسلهم بهذه الصيغ وجدهم لا يريدون إلى شيء من تلك الاحتمالات والأوجه التي قدمناها. وإنما يقصدون التوسط بفلان إلى الله في قضاء حاجتهم.

وقد كتب السيد رشيد رضا على صيانة الانسان (ص٢٠٤) ما نصه: «ان المعلوم من حال هؤلاء المتوسلين بالأشخاص انهم يتوسلون بذواتهم الممتازة بصفاتهم وأعمالهم المعروفة عنهم، لاعتقاد أن لهم تأثيراً في حصول المطلوب بالتوسل، اما بفعل الله تعالى لأجلهم واما بفعلهم أنفسهم مما يعدونه كرامة لهم. وقد سمعنا الأمرين منهم وممن يدافع عنهم. وكل من الأمرين باطل».

الأقوال في التوسل بالجاه :

والقصد إلى أحد ذينك الأمرين شرك، لأن التوحيد يقتضي أن لا فاعل مع الله ولا مؤثر في إرادة الله، ومن سلم من ذلك القصد فهو بين الحظر والإباحة، لأن العلماء اختلفوا في حكم التوسل بالجاه، فمن مانع ومن مجيز من غير تفصيل. وخص العز بن عبد السلام جواز التوسل بالنبي (ﷺ) إن صح الحديث، قالوا لعله يريد حديث الأعمى الذي صححه الترمذي. ولكن من النقاد من نكر تصحيحه. وقد بين صاحب صيانة الانسان ضعفه وضعف أحاديث أخر صححها

الترمذي. وحديث الأعمى على ما فيه أصح ما في الباب. فينبغي بناء الأقوال الثلاثة عليه.

فمن أطلق الجواز قاس حالة عدم الدعاء من المتوسل به على وجود الدعاء منه، وألحق بقية الأنبياء والصالحين به (ﷺ)، ومن أطلق المنع وقف عند النص ولم يقس. ومن فصل قاس عدم دعائه (ﷺ) على دعائه ولم يلحق بذاته غيرها.

تقوية منع التوسل بالجاه :

واطلاق الجواز بالغفلة أشبه. والتفرقة إلى التحكم أقرب. والمنع المطلق أحوط، ويتقوى بوجوه : أحدها أن الدعاء عبادة وهي لا تكون بالرأي والقياس، حتى ان الفقهاء لم يكتفوا بالنص العام لمشروعية أصل الدعاء، فعنوا ببيان المواضع التي يشرع فيها للمصلي الدعاء. ثانيها: عدول عمر (رضي الله عنه) عن التوسل بالنبي (ﷺ) إلى دعاء العباس، والصحابة متوافرون لم ينقل عنهم انكار لا في وجهه ولا في غيبته. ثالثها: فقد النقل عن السلف الصالح في التوسل بالذات إلا آثاراً لم تصح مع كثرة ما نقل عنهم من الأدعية المشروعة. رابعها: عدم التناسب بين اجابة الداعي وذات غيره.

وبعد فالمجيز للتوسل بالذات لم ينته به إلى تفضيله على بقية أقسام الدعاء المشروعة، والمانع له لم يصل به إلى دركة الشرك ما لم يقصد به معنى التوحيد. فما لهؤلاء الذين شنوا الغارة على منكر التوسل بالذات كأنه نكر عقيدة في الدين مجمعا عليها!.

التوسل بالجاه شرك أو ذريعة إليه :

والذي نقوله: إن هذا الضرب من التوسل ان لم يكن شركا فهو

ذريعة إليه. وان الحكم فيه ينبغي أن يفصل على وجه آخر. وهو ان يسلم هذا التوسل للعالم بالتوحيد وما ينافيه حتى لا يخشى عليه من الشرك، وأن يحذر منه الجاهل المتعرض لمزالق الشرك، الخفيف إلى دواعي الوثنية، خشية أن يعتقد أن لأحد حقا على الله في جلب النفع ودفع الضر. وأن الصالحين مع الله تعالى كالوزراء مع الملوك يحملونهم على فعل ما لم يكونوا مريدين لفعله. ومن اعتقد هذا فقد وقع في صريح الشرك، وجعل ارادة الله حادثة تتأثر بارادة غيره، وعلمه حادثا يتغير لعلم المخلوق.

التفرقة بين الجاهل والعالم في مقام الاحتياط:

وقد عهدت التفرقة بين العالم والجاهل في الأحكام التي يدخلها الاحتياط. فترى الفقهاء يكرهون للجاهل دون العالم الاقتصار على غسلة واحدة، فيما يطلب تثليثه خشية أن تبقى به لمعة. قال ناظم:

وكرهوا واحدة في الغسل　　　إلا لعالم كذا في النقل

وسند هذه التفرقة ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي أن النبي (ﷺ) سمع خطيباً يقول: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى». فقال له (ﷺ): بئس خطيب القوم أنت. قل ومن يعص الله ورسوله. فنكر (ﷺ) على الخطيب الجمع بين الله ورسوله في ضمير واحد. وثبت عنه (ﷺ) الجمع بينهما في عدة أحاديث منها ما أخرجه أبو داود من قوله (ﷺ) من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه. وهو (ﷺ) لا يأتي أمرا نهى عنه غيره إلا أن يكون من خصائصه، ولكنه نهى الخطيب خشية عليه أو على بعض المستمعين أن

يتـوهم التسـويـة بين الله ورسـوله . أما هو (ﷺ) فانه أعرف الناس بربه وبنفسه وبحال من خاطبهم .

غلو العامة في التوسل بالجاه :

وقد غلب الجهل بالدين وضعفت الثقة برب العالمين واعتد الناس من سموهم أولياء صالحين وعولوا على التوسل بهم في قضاء مطالبهم ، وغالوا في اعتباره وتشددوا في التمسك به ، وبادروا إلى الانكار على من أراد بيان المشروع منه لهم . ولم تزل مسألة الوسيلة حديث المجالس منذ أزمنة طويلة فضبطناها ضبطا يقربها من متناول العامة عسى أن يخفضوا من غلوائهم ويـرجعـوا إلى السنن المشروع في توسلهم ويهتدوا إلى الحق في دعـائهم ، فيعبـدوا ربهم بما شرع لهم ويتبعـوا الـرسول فيما سن لهم . **﴿ومن يطـع الله والـرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا﴾** .

٢٤ ـ الشفاعـــة

معنى الشفاعـــة :

الشفع : الزوج، خلاف الوتر. تقول كان الشيء وتراً فشفعته إذا ضممت إليه آخر. وشفعت الركعة جعلتها اثنتين. والشفعة ـ كغرفة ضم ما باعه شريكك في أرض أو دار إلى ملكك. وفلان يعاديني وله شافع أي معين يعينه على عداوتي. والشفاعة المطالبة بوسيلة أو ذمام. والفعل في الجميع شفع كمنع.

تقول شفعت في الأمر شفعاً وشفاعة، وشفعت له إلى فلان، وأنا شافعه وشفيعه ونحن شفعاؤه. وتشفعت له وفيه إلى فلان، فشفعني فيه تشفيعاً إذا قبل شفاعتي. واستشفعني واستشفع بي إلى آخر: طلب شفاعتي إليه. قال الشاعر:

مضى زمن والناس يستشفعون بي   فهل لي إلى ليلى الغداة شفيع؟

هذا خلاصة ما في الصحاح والأساس والقاموس والمصباح. وقال الراغب:

«الشفع : ضم الشيء إلى مثله . . . والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه. واكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى. ومنه الشفاعة في القيمة».

فالشفاعة تحمل معنى الضم والاعانة للمشفوع له، ومعنى الجاه والحرمة للشفيع عند المشفوع إليه. فسيعك لآخر في حاجة له عند عظيم شفاعة وأنت شفيع وذلك الآخر مشفوع له وذلك العظيم مشفوع إليه وقضاء تلك الحاجة تشفيع.

أحـــــوال الشفاعة :

والشفـاعـة لا تعـدو ثلاثة أحوال: إما أن تكون من المخلوق إلى مثله، أو من الخالق إلى المخلوق أو من المخلوق إلى الخالق.

شفاعة المخلوق إلى مثله :

فأمـا شفـاعة المخلوق إلى مثله فهي مظهر من مظاهر التعاون إذا كان المشفـوع إليـه يملك التصرف فيما طلب منه على مقتضى الأسباب العـاديـة. والتعـاون إذا كان على الخـير مكتـوب بالكتـاب والسنـة. والشفـاعـة منه ثابتة بهما. ففي سورة النساء: ﴿**من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منهـا ومن يشفـع شفـاعة سيئة يكن له كفل منها**﴾. وفي الصحيحـين عن أبي موسى الأشعـري (رضى الله عنه). أن النبي ﷺ كان إذا أتـاه السـائل أو صاحب الحاجة قال: اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء.

فســر الـراغب في مفـرداتـه الآية بقوله: «أي من انضم إلى غيره وعـاونـه وصار شفعاً له أو شفيعاً في فعل الخير والشر فعاونه وقواه وشاركه في نفعـه وضـره». كذا في الأصل[1] ولعل الواو في قوله: وشاركه، زائدة سهـوا أو تحريفـاً. ولم يضبـط الحسنـة منها والسيئة لأنه بصدد بيان أصل المعنى اللغـوي. وضـابط الحسنة ما كانت في الخير والصلاح كالشفاعة عند الحكام ليقضوا حوائج الناس، أو عند الصديق المستاء على صديقه ليستـل منـه استياءه. وضابط السيئة ما كانت في الشر والفساد كالشفاعة عنـد الحكـام لتعطيـل الحـدود الشرعية، وعند الحانوي ليسقي من كان على مثل حال القائل.

---

(١) وما المانع من وجوده في الأصل فلا سهو ولا تحريف فالمعنى مستقيم.

فكيف لنا بالشرب ان لم يكن لنا   دراهم عند الحانوي ولا نقْد

ومعنى الحديث ترغيبه ﷺ لأصحابه في اعانة الناس عنده، سواء استطاع قضاء حاجهم أم لم يجد إليها سبيلا. قال الحافظ في الفتح: «وفي الحديث الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف» (١٠ : ٢٧٠).

شفاعة الخالق إلى المخلوق:

وأما شفاعة الخالق إلى المخلوق فممتنعة محظور طلبها لما في سنن أبي داود وغيرها، واللفظ له عن جبير بن مطعم (رضى الله عنه) أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: جهدت الأنفس وضاع العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فأنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي ﷺ: ويحك أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك أنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك.. الحديث.

وإنما امتنع الاستشفاع بالله، لأن الشفيع سائل والله مسؤول لا سائل. ثم الشفيع في أصل اللغة ليس على المشفوع إليه أن يطيعه بقبول شفاعته، ففي حديث بريرة (رضى الله عنهما) أنها لما عتقت وخيرها النبي ﷺ في فراق زوجها مغيث، اختارت فراقه. فجعل مغيث يبكي من حبه اياها حتى رق له النبي (ﷺ)، فقال لبريرة: «لو راجعته؟» فقالت تأمرني؟ فقال (ﷺ): «إنما أنا شافع». قالت: فلا حاجة لي فيه. أخرجه البخاري عن ابن عباس (رضى الله عنهما). فلو قال لها (ﷺ) آمرك لراجعت زوجها مغيثاً ولما كانت الشفاعة لا تحمل معنى الأمر بل تترك الاختيار للمشفوع إليه أصرت على اختيارها الفراق. فلا جرم إذا كانت الشفاعة إلى أحد مما يحل عنه مقام الألوهية.

شفاعة المخلوق إلى الخالق في الدنيا :

وأما شفاعة المخلوق إلى الخالق، فاما هي في الدنيا واما في الأخرى. فالشفاعة إلى الله في الدنيا تكون بالدعاء للمشفوع له، كما تقدم في حديث الأعمى أنه سأل الدعاء من النبي (ﷺ)، وأنه لما دعا لنفسه قال: اللهم فشفعه في. فطلبها من الحي الحاضر جائز كما تقدم في القسم الثاني من أقسام الدعاء والنوع الرابع من أنواع التوسل.

وسواء دعا الشفيع للمشفوع له بأمر دنيوي أم بنفع أخروي، كان المشفوع له حياً أم ميتاً، لما في مسلم أنه (ﷺ) قال: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه». ولما في الأدب المفرد للبخاري من دعائه (ﷺ) لأنس (رضى الله عنه) بقوله: «اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له». قال أنس: فدعا لي بثلاث فدفنت مائة وثلاثة وان ثمرتي لتطعم في السنة مرتين، وطالت حياتي حتى استحييت من الناس. وأرجو المغفرة.

الشفاعة الأخروية :

والشفاعة إلى الله في الأخرى تكون بدعائه وسؤ اله التجاوز عن سيآت المشفوع له أو التجاوز به إلى درجة أعلى. وهي ثابتة للنبي ﷺ بأحاديث كثيرة منها حديثا البخاري ومسلم السابقان في فصل الوسيلة. ومنها ما في الصحيحين عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه ﷺ قال: «لكل نبي دعوة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة» ومنها ما في البخاري عنه أيضا أنه ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه». ومنها عن أنس أنه ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي». أخرجه

الـترمـذي ، وقـال حسن صحيـح غريب . والبيهقي ، وقـال اسنـاده صحيح ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم قاله في كشف الخفاء (٢ : ١٠) .

الشفعاء في الآخرة :

وهـذه الشفـاعـة ثابتة أيضاً لبقية الأنبياء وللعلماء والشهداء وسائر المؤمنين وللقرآن وللجنة .

١ ــ روى ابن ماجـه عن عثمان (رضى الله عنـه) مرفوعاً «يشفع يوم القيامة ثلاثة ، الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» .

٢ ــ وأخـرج البـزار عن ابن عبـاس (رضى الله عنهـما) رفعه إلى النبي ﷺ ، قال : ان الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وان كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه ، ثم قرأ : ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم . . ﴾ الآيـة ثم قال ومـا نقصنـا الآباء بها أعطينا البنين . قال في مجمع الزوائد : «وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري . وفيه ضعف» (٧ : ١١٤) وفي الـدر المنثـور أن ابن مردويـه أخـرجـه أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً . وأن سعيـد بن منصـور وهنـادا وابن جريـر وابن المنـذر وابن حاتم والحـاكم والبيهقي في سننه أخرجوه عنه موقوفاً عليه . (٦ : ١١٩) .

٣ ــ وروى مسلم عن أبي أمـامـة البـاهـلي (رضى الله عنـه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول : «اقرأوا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» . الحديث .

٤ ــ وعن جابر مرفوعاً «القرآن شافع مشفع» . أخرجه ابن حبان والبيهقي . ورواه أيضـاً الطـبراني والبيهقي عن ابن مسعود بزيادة «أوما حل مصدق . من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى

النــار» . والمـاحـل : الخصم . قال في الصحـاح : «والمحل : المكر والقيد يقال محل به إذا سعى به إلى السلطان . فهو ماحل» .

٥ ــ وروى الحسن بن سفيان عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) قال : «أكثروا مسألة الله الجنة واستعيذوا به من النار فانهما شافعتان مشفعتان ، وان العبد اذا أكثر مسألة الله الجنة قالت الجنة ، يارب عبدك هذا الـذي سألنيـك فاسكنـه إياي ، وتقول النار يارب عبدك هذا الذي استعاذ بك مني فأعذه» نقله ابن القيم في حادي الأرواح (١ـ١٤٨) .

أنواع الشفاعة الأخرويــة :

وان من الشفـاعـات الأخـروية ما يختص بالنبي (ﷺ) ومنها ما لا يختص به . ففي الفتح عن النووي وعياض «الشفاعة خمس ، في الاراحة من هول المـوقف ، وفي ادخـال قومٍ الجنة بغير حساب ، وفي ادخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا ، وفي اخراج من أدخل النار من العصـاة : وفي رفـع الـدرجات» . (١١ : ٣٥٩) ثم ذكر أدلة هذه الأنواع وزاد عليهـا . وفي شرح الأذكـار النـووية لابن علان أن بعض المتأخرين بلغ بها أحد وعشرين نوعاً . (٢ : ١٢٥) .

شروط الشفاعة الأخرويـة :

ولا يتقـدم الشفيـع يوم القيـامـة للشفـاعة إلا أن يستجمع أربعة شروط : أحدهما : أن يكون من المرتضين عند الله بإيمانه الصحيح وعمله الصـالـح . ثانيهـا : أن يكـون المشفـوع فيـه من المؤمنـين المـوحـدين الصادقين . ثالثها : أن يأذن الله للشفيع . رابعها : أن يجد له من يشفع فيهم .

ما جــاء في الشفاعـــة :

ففي حديث الشفـاعـة الطـويـل عنـد البخاري وغيره عن أنس (رضى الله عنــه) عنــه (ﷺ) أنــه قال: «ثم أشفـع فيحـد لي حداً ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة. ثم أعود فاقع ساجدا مثله في الثالثة أو الـرابعـة حتى ما يبقى في النـار إلا من حبســه القرآن، فهذا دليل الشرط الرابع. ودلت الآيات على بقية الشروط.

١ ــ قال تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾. قال ابن كثـير: وهـذا من عظمتـه وجـلاله وكبر يائه عز وجل أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه في الشفاعة.

٢ ــ وقـال أيضـاً: ﴿**يدبر الأمر ما من شافع إلا من بعد اذنه**﴾. وهـذا رد على النضـر بن الحـارث، فإنـه كان يقول: إذا كان يوم القيمة تشفع لي اللات والعزى. قاله البغوي. وقال الراغب في تفسير الآية من مفـرداتـه: «أي يدبـر الأمـر وحـده لا ثاني له في فصـل الأمر إلا أن يأذن للمدبرات والمقسمات من الملائكة فيفعلون ما يفعلونه بعد اذنه».

٣ ــ وقال تعالى: ﴿**لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهـداً**﴾. قال ابن كثـير عن ابن عبـاس العهـد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل.

٤ ــ وقـال: ﴿**يـومئـذ لا تنفـع الشفـاعـة إلا من أذن له الـرحمن ورضى له قولا**﴾. قال البغوي عن ابن عباس يعني برضى قوله: قول لا إله إلا الله. وهذا ما يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن.

٥ ــ وقــال: ﴿**ولا يشـفعــون إلا لمن ارتضى وهم من خشيتــه مشفقون**﴾. قال البغوي عن مجاهد: أي لمن رضى عنه.

٦ ـ وقال: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ قل لله الشفاعة جميعاً﴾. قال البغوي عن مجاهد لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

٧ ـ وقال: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾. قال البغوي عن ابن عباس يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه.

٨ ـ وقال: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾. قال ابن كثير الصواب: الحق، ومن الحق لا إله إلا الله. كما قاله أبو صالح وعكرمة وفي تفسير جزء عم لمحمد عبده: «والذي تفيده الآية الكريمة أنهم مع قربهم من الله لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يستمنح منحة إلا إذا أذن الله، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب. وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يأذن الله له به يختص به من يشاء ولا أثر له فيما أراد الله البتة».

حكمة الشفاعة المشروعة:

وبكلام ابن كثير على آية البقرة وكلام محمد عبده على آية النبأ تعلم سر هاته الشفاعة المقيدة بتلك القيود، وأن حكمتها اظهار جلال الله وعظمته واعلان كرامة الشفيع ووجاهته وايئاس المسرفين على أنفسهم من كل مخلوق إلا من رحمة الله. وعلى هذا عرفها القرطبي في تفسيره إذ قال: «الشفاعة ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك. فهي على التحقيق اظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وايصال منفعته للمشفوع» (١ : ٣٧٨).

سؤال الشفاعة الأخروية :

وطلب الشفاعة الأخروية على أربعة أنحاء، احدها: طلبها من الله كأن نقول: اللهم شفع فينا خاتم النبيين وإمام المرسلين. فهذا طلب صحيح ودعاء مشروع لأن الشفاعة لله جميعاً.

ثانيها: طلبها في هاته الحياة ممن علم أنه من أهلها وهو حي حاضر، كأن يقول الصحابي يارسول الله أسألك شفاعتك غداً. وهذا أيضاً صحيح لحديث أنس (رضى الله عنه) أنه سألها من رسول ﷺ فقال: «أنا فاعل». رواه الترمذي وحسنه. ولقول غلام للنبي ﷺ: أسألك أن تجعلني ممن تشفع له يوم القيامة فقال له: «فإنك ممن أشفع له يوم القيامة» رواه الطبراني بأسانيد بعضها رجاله رجال الصحيح وبعضها رجاله ثقات قاله في مجمع الزوائد. ولا يجوز هذا الطلب من غير الرسول كما لا يجوز لغير الرسول الوعد بها. لأن ذلك يتوقف على العلم بالاذن بها للمطلوب وكونه هو والطالب من أهل الجنة. ولا يجزم بشيء من ذلك إلا بوحى كما تقدم في فصل الولاية.

ثالثها: طلبها من الشفيع يوم القيامة. وهو ثابت بحديث الشفاعة المروى في الصحيحين وغيرهما عن أنس وغيره أنه ﷺ قال: يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم. الحديث.

رابعها: طلبها اليوم ممن انتقل إلى عالم الغيب. فان كان المطلوب نبي الرحمة فالطلب بدعة لم ينقل عن أحد من أيمة المسلمين لا الأيمة الأربعة ولا غيرهم، كما نقله في صيانة الانسان عن الصارم المنكى لابن عبد الهادي (ص٣٧٨). وان كان المطلوب من صلحاء الأمة ففيه من المفاسد اعتقاد علم المدعو بالغيب والجزم له بالجنة وبإذن الله له في

الشفـاعـة وادخـال الطـالـب في المأذون بالشفـاعة فيهم . ومن التزم هذه اللوازم فقد أشرك أو كان منه قاب قوسين .

رجـــاء الشفاعـــة :

أيهـا الـراجي لنيـل الشفاعة . حقق الله رجاءك - لا تجعل الرجاء وحده طريقتك إليها ولا عمدتك لاستحقاقها فتكون من المغترين ولحال المشركين من المشبهين . ولكن اعمد إلى قلبك فاعمره بالايمان الخالص من نزعـات الـوثنيـة ونزعات إبليس عدو أبويك آدم وحواء ، حتى يكون لجنـانـك السلطـان على أركانك وأحب نبيك محبة اقتداء واستنان . ولا تنس الصـلاة عليـه وسؤ ال الـوسيلة له بعـد حكاية الأذان . فإذا فعلت ذلـك كان رجـاؤ ك للشفـاعـة مبنياً على حديث أسعد الناس بشفاعتي وحديثي سؤ ال الوسيلة بعد الأذان . ومن لم يفعل ذلك وقع تحت الانذار بسوء مغبة الاغترار بسراب الأمال مع التهاون بصالح الأعمال .

ما جـــاء في نفي الشفاعـــة :

١ ــ قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل : ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئـاً ولا يقبـل منهـا شفـاعـة ولا يؤخـذ منهـا عدل ولا هم ينصـرون**﴾ . قال ابن كثـير لما ذكـرهـم الله بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة .

٢ ــ وخـاطـب المشـركـين بقـولـه : ﴿**ولقـد جئتمـونـا فرادى كما خلقنـاكم أول مرة وتـركتم ما خولنـاكم وراء ظهـوركم وما نرى معكم شفعـاءكم الـذين زعمتم أنهم فيكم شركـاء . لقـد تقطـع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمـون**﴾ . قال البغـوي وذلك أن المشركين زعموا أنهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤ هم عنده .

٣ ــ وحكى عنهم بقـولـه : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم

ولا ينفعهم ويقولـون هؤلاء شفعـاؤ نـا عنـد الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السمـوات ولا في الأرض سبحـانـه وتعـالى عما يشـركون﴾ قال البغوي ومعنى الآية : أتخبرون الله أن له شريكاً وعنده شفيعاً بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكاً .

٤ ــ وحكى عن صاحب يس قولــه : ﴿ءأتخـذ من دونـه آلهـة ان يردن الــرحمن بضــر لا تغن عني شفــاعتهم شيئـاً ولا ينقـذون﴾ . قال البغوي : أي لا شفاعة لها أصل فتغني .

٥ ــ وذكـر غايـة المشـركـين من عبـادتهم الأصنـام بقـولـه : ﴿ما نعبـدهم إلا ليقـربـونا إلى الله زلفى﴾ . قال ابن كثير عن قتادة والسدي ومالك عن شيخه زيد بن أسلم أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة .

٦ ــ وحكم على أهــل سقــر بقــولـه : ﴿فـما تنفعهم شفـاعـة الشــافعـين﴾ قال البغـوي عن ابن مسعـود يشفـع المـلائكـة والنبيـون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة . ثم تلا ﴿قـالـوا لم نك من المصلين﴾ إلى قولـه ﴿يـوم الـدين﴾ وعن عمران بن حصين (رضى الله عنه) الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون .

٧ ــ وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة (رضى الله عنهما) قالت لما نزلت وأنـذر عشـيرتك الأقربين ، قام رسول الله ﷺ فقال : «يافاطمة ابنـة محمـد ياصفية ابنة عبد المطلب يابني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً» . سلوني من مالي ما شئتم .

٨ ــ وفي الموطأ ومسلم عن أبي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ من حديث قال في خاتمتـه وأنـا فرطهم على الحـوض فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعـير الضـال انـاديهم ألا هلم ألا هلم ألا هلم .

فيقال: انهم قد بدلوا بعدك فأقول فسحقا فسحقا.

محمل ما جاء في نفي الشفاعة:

فمن تعلق بالمخلوق وتقرب إليه ليشفع له عند الله وظن تعلقه ذلك تعظيما لذلك المخلوق يرضاه الله، فقد آذنه الله ورسولهبخطأ ظنه وفساد تقربه، وأن في ذلك التعلق تنقيصاً لله يتنزه عنه. ذلك أن الجاهلين بالله من أهل الكتاب والمشركين يقيسون أحوال الآخرة على أحوال الدنيا وأحكام الله على أحكام الملوك. فإذا كان المجرم في الدنيا قد ينجو من سطوة القانون وقضاء الحاكم عليه بشفاعة وجيه عنده كان المجرم في الآخرة قد ينجو من عذاب الله بشفاعة نبي أوملك أوولي. وهو قياس فاسد نقلاً وعقلاً أما النقل فما تقدم من نفي الشفاعة لمن رجوها من غير الله وبلا سببها المشروع. وأما العقل فإن كل مؤمن بالله يعتقد أنه محيط بكل شيىء علماً وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه يفعل ما يفعل حكمة ورحمة لا رغبة ولا رهبة. وملوك الدنيا يجهلون كثيراً من أحوال قصورهم فضلا عما نئى عنهم ويريدون الشيىء ثم يرجعون عنه، ويرغبون في ارضاء أعيان دولتهم ويرهبون أسخاطهم.

والشفاعة إلى الله دعاء يفعل الله عقبه ما سبق في علمه وإرادته ان سيفعله وقبولها من الشفيع تكرمة له، ورحمة بالمشفوع. فأما الشفاعة إلى ملوك الدنيا فهي إعلام لهم بما لم يكونوا يعلمون من براءة المتهم أو علاقته بالشفيع، وتغيير لارادتهم العقوبة بإرادة العفو. والباعث لهم على التشفيع الرغبة في موافقة الشفيع أو الرهبة من مخالفته. وكل ذلك ينادي بقصور علمهم وضعف إرادتهم وعجزهم عن الاستقلال بتدبير مملكتهم. وهذه سيما الحدوث الشاهدة بانفراد الله بالكمال المطلق.

الشفاعة الشركسيـــــة :

والشفـاعـة إلى الملوك هي عنـد التأمـل الصائب مشاركة لهم من الشفعـاء في الملك، فمن قاس الشفـاعـة إلى الله عليهـا فقد أشرك بالله ووصفـه بما يتنـزه عنه كما نطقت بذلك آية: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحـانـه وتعالى عما يشركون﴾ ودلت عليه الآية الجامعة لنفي أقسام الشرك إذ قال أثرها ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له.

وهـذا وجـه الجمـع بين ما جاء في إثبـات الشفـاعـة ونفيها، وأن المثبت منهـا هي الشـرعيـة والمنفي هي الشـركيـة. وبه تعلم مراد الدعاة المـرشـدين في تحذيـر العـامة من الاتكال على الشفاعة والتقرب إلى من تراهم من أهلها، فلم ينكروا عليك أصل اعتقاد الشفاعة وإنما حذروك من الاعتقاد الفاسد الذي صحبها. قال في صيانة الانسان نقلاً عن الشوكاني.

شرك القبوريين والطرقيين :

«ان الـرزيـة كل الـرزيـة والبلية كل البلية، أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة. وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور وفي المعروفين بالصلاح من الاحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله، جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم. فصـاروا يدعـونهم تارة مع الله وتـارة استقـلالا، ويصـرخـون بأسمائهم ويعظمـونهم تعظيم من يملك الضـر والنفـع، ويخضعـون لهم خضـوعاً زائـدا على خضـوعهم عنـد وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء.

وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك؟ وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر (ص١٥٥).

الطريق إلى الشفاعة :

أيها المسلم اتبع القرآن فيما أرشدك إليه يشفع لك عند الله. ولا تحد عن سنة رسول الله تشملك ـ إن شاء الله ـ شفاعته. ولا تقنط من رحمة الله وترجو رحمة سواه، فإنه أرحم الراحمين: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

٢٥ ــ الزيارة والمزارات

المعنى الأصلي :

الـزور بفتـح فسكـون أعلى الصدر. تقول زور الطائر تزويراً إذا أكـل حتى ارتفـع زوره. وزيـارتـك الشيء قصـدك اياه كأنك قصدت زوره. أو تلقيتـه بزورك. تقـول زار الـرجـل غيره زوراً كقال قولاً وزيارة بالكسـر ومـزاراً بالفتـح، فهـو زائـر وهم زوار وزائـرون وهي زائـرة وهن الـزائـرات وزور بضم فتشديد. وأزاره حمله على الزيارة. واستزاره سأله اياها وزور زائره تزويرا أكرمه واعتد بزيارته. والتزوير كرامة الزائر. تقول استضأت بهم فنــوروني وزرتهم فزوروني. والمــزار كما يكــون مصـدرا بمعنى الزيارة يكون اسماً لمكانها. ويجمع على مزارات.

المعنى الصرفي :

قال في المصبـاح : «والـزيـارة في العـرف قصـد المـزور اكـرامـاً له واستئنـاسـاً به». وفي شرح الشفـاء للخفاجي : «الزيارة تختص بمجيء بعض الأحيـاء لبعض مودة ومحبـة. هذا أصل معناها لغة. واستعمالها في القبـور للأمـوات لاعطـائهم حكم الأحياء. وصار حقيقة عرفية لشيوعه فيها». (٣ : ٥٦٣).

منزلة الزائر من المزور :

والمعروف عندنا أن الزائر دون المزور في الفضل فيقولون زار المريد شيخه ولا يقولون زار الشيخ مريده. واستعمال العرب لا يفيد ذلك فقد يكون الزائر أفضل أو أوضع أو مساوياً. قال عياض في الشفاء : «قيل إن

الزائر أفضل من المزور. وهذا ليس بشيء. إذ ليس كل زائر بهذه الصفة وليس عموماً وقد ورد في حديث أهل الجنة زيارتهم لربهم».

المعنى الأسمى للزيــارة :

وتطلق الــزيــارة اليــوم بالمعنى الاسمي كما تستعمــل في المعنى المصــدري. وكثـيرا ما تستعمـل للعـرب المصادر أسماء. فتطلق الزيارة عندنا على ما يعطيه الزائر للمزور من عين أو حب أو حيوان أو خشب أو غير ذلك. وهذا عكس التزوير الذي يكرم به المزور الزائر.

دواعي اتخاذ المزارات :

والمـزارات عنـدنـا هي مواضـع قررت العادة زيارتها للتبرك بمن جلس فيها من الصلحاء أو دفن عندها أو سميت به وإن لم يرها أو أشار معتقد فيه بظهور روحاني بها.

حصر مباحث الموضوع :

والكـلام على الـزيارة وما يتصل بها في سبعة مباحث هي: زيارة الأحيـاء، وزيـارة الأمـوات، وحيـاة الأرواح، وعطـايـا الـزوار، واتخاذ المزارات، والسفر إليها، والغرض من الزيارة.

زيــارة الأحيــاء :

١ ــ فأما زيارة احياء فقد أتى بها النبي فعلاً ورغب فيها قولاً إذا كانت لغرض صحيح.

٢ ــ ففي مسلم عن أنس أن أبا بكر قال لعمر (رضى الله عنهما): انطلق بنا إلى أم أيمن (رضى الله عنها) نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، وأنها بكت عند رؤيتهما من فقد النبي (ﷺ) فأبكتهما.

٣ ـ وفيه وفي الأدب المفرد عن أبي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي (ﷺ) أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى. فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً. فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه. وأرصده بالشيء وكله بحفظه. والمدرجة بفتح فسكون الطريق. وتربها تقوم بها وتسعى في صلاحها.

٤ ـ وعنه أيضا أنه (ﷺ) قال من عاد مريضاً أو زار أخاله في الله ناداه منادٍ، طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً، رواه الترمذي وقال حديث حسن، وفي بعض نسخه غريب ونحوه في الأدب المفرد.

زيارة الأموات :

٢ ـ وأما زيارة الأموات فقد منع منها (ﷺ) ثم أذن فيها ودلت الأحاديث على زيارة قبور الوالدين وغيرهم من المؤمنين والكافرين لغرض مشروع. ونص العلماء على استحبابها للرجال، أما النساء فمنهم من منعهن ومنهم من كرهها لهن ومنهم من أذن لهن مع أمن الفتنة.

١ ـ فعن ابن عباس لعن رسول الله (ﷺ) زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي. والسرج بضمتين جمع سراج.

٢ ـ وعن بريدة (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». أخرجه مسلم وزاد فيه أحمد بسند رجاله رجال الصحيح: فان فيها عبرة.

٣ ــ وعنه أيضا كان النبي (ﷺ) يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ـ إن شاء الله ـ بكم لاحقون. أسأل الله لنا ولكم العافية. أخرجه مسلم وغيره.

٤ ــ وعن أبي هريرة أنه (ﷺ) قال: من زار قبر أبويه أو أحدهما كل جمعة غفر له وكتب برا. رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف. كذا في مجمع الزوائد لكن ضعفه لا يضر لأن مشروعية الزيارة ثابتة.

٥ ــ وعنه أيضا أنه (ﷺ) زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: استأذنت ربي عز وجل في أن أستغفر له فلم يؤذن لي واستأذنت في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فانها تذكركم الموت. أخرجه مسلم. وروه النسائي تحت عنوان «زيارة قبر المشرك».

حياة الأرواح:

٣ ــ وأما حياة الأرواح فهي ثابتة سواء أرواح المؤمنين أم الكافرين.

١ ــ قال تعالى في شهداء بدر ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون**﴾.

٢ ــ وقال في شهداء أحد ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾.

٣ ــ وقال (ﷺ) حياتي خير لكم ومماتي خير لكم. تعرض على أعمالكم فما كان من حسن حمدت الله عليه وما كان من سيء استغفرت الله لكم. رواه البزار باسناد جيد.

٤ ــ وعن ابن مسعود أنهم سألوا النبي (ﷺ) عن آية ولا تحسبن الـذين قتلوا في سبيـل الله فقـال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقــة بالعـرش تسـرح من الجنـة حيث شاءت. ثم تسـاوى إلى تلك القنـاديـل فاطلع عليهم ربـك اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نســرح من الجنــة حيث شئنـا ففعـل ذلـك ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركـوا من أن يسألـوا قالـوا: يارب نريد أن ترد أرواحنـا في أجسـادنـا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. أخرجه مسلم.

٥ ــ وعن جابر بن عبد الله ـ وقد استشهد أبوه يوم أحد أنه (ﷺ) قال له: أعلمت أن الله أحيـا أبـاك؟ فقـال له: تمن. فقـال له: أردّ إلى الدنيا فاقتل فيك مرة أخرى. فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون. أخرجه أحمد.

٦ ــ وعن كعب بن مالك أنه (ﷺ) قال «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه». أخرجه أحمد عن الشافعي عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه. فما أجله من سند. ويعلق بضم اللام معناه يرعى.

٧ ــ وعن أنس أنـه (ﷺ) قال ان العبـد إذا وضـع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم. أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقـول في هذا الـرجـل محمد (ﷺ)؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعـدا خيرا منـه. قال رسـول الله (ﷺ) فيراهما جميعـا. وأمـا الكافر أو المنـافق فيقـال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس. فيقال له: لادريت ولا تليت. ثم يضرب ضربة

بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين أخرجه البخاري والنسائي ورواه أبو داود إلى قوله قرع نعالهم. وقوله تليت معناه تبعت، وأصله تلوت قلبت واوه ياء ليزدوج مع دريت.

٨ ــ وعن ابن عباس أنه (ﷺ) قال: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام» رواه ابن عبد البر في الاستذكار والتمهيد وصححه أبو محمد عبد الحق. قاله السيوطي في الحاوي (٢ : ٣٥٨).

٩ ــ وعن عائشة (رضى الله عنهما) أنه (ﷺ) قال: «ما من أحد رجل يزور قبر أخيه ويجلس عليه إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور كما في الحاوي.

١٠ ــ وعن جابر بن عبد الله أنه (ﷺ) قال: «ان أعمالكم تعرض على عشائركم وعلى أقربائكم في قبورهم فإن كان خيرا استبشروا به وان كان غير ذلك قالوا: اللهم الهمهم أن يعملوا بطاعتك». رواه أبو داود الطيالسي ونحوه عند أحمد عن أنس وعند الطبراني في الأوسط عن أبي أيوب الأنصاري من طريق مسلمة بن علي وهو ضعيف وعند ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات عن أبي أيوب أيضاً. ذكر رواياتهم في الحاوي.

١١ ــ وعن أنس أنه (ﷺ) قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون». رواه أبو يعلي في مسنده والبيهقي في كتاب حياة الأنبياء.

١٢ ــ وفي صحيح مسلم عن أنس أن النبي (ﷺ) قال: ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلي في قبره».

دلت هذه النصوص على حياة الأرواح حياة لا تشعر بها وعلى

علمها بزيارة الأحياء لمقابرها وعلى علمها بأحوال من بقي بعد أصحابها من مخالطيهم وعلى سماعها كلامهم. وقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أريد فيه من الأسماع معنى الهداية. وهي متفاوتة في هذه الحياة أعلاها أرواح الأنبياء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ثم الكافرين. وعلى كل حال هي حياة غيبية لا تشبه حياتنا الدنيا فلا معاملة بيننا وبينها بالبيع والاجارة والنكاح ولا تكلف مثلنا بالعبادات. وصلاة الأنبياء في قبورهم هي لذة روحانية.

وفي شرح الطحاوية أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت وأن الله ركب هذاالانسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعا لها. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبعا لها. فإذا كان البعث كان النعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً وأن للروح بالبدن خمس حالات تعلقها بالجنين ثم بالمولود ثم بالنائم ثم بالميت في البرزخ ثم بالمبعوث من القبر. هذا خلاصة كلامه (ص٣٢٩-٣٣٣).

عطايا الزوار:

٤ ــ وأما عطايا الزوار فما يعطى منها على استكشاف الغيب هو من حلوان الكاهن حرام كما تقدم في فصل الكهانة وما يعطى منها قصد استجلاب النفع من المزور واستدفاع الضر به في الدين أو في الدنيا هو رشوة في الدين وسحت في لغة القرآن. قال الراغب: السحت المحظور الذي يلزم صاحبه العار كأنه سحت دينه ومروءته. قال تعالى: ﴿أكالون للسحت﴾. وأصل السحت القشر الذي يستأصل. ثم لا نعلم من هؤلاء المزورين إلا من يستشرف لما في أيدي الزائرين. وقد ورد المنع من سؤال ما في أيدي الناس تصريحاً أو تلويحاً إلا لضرورة.

وجاء الحث على العمل والاكتساب. أما التهادي للمحبة واصلاح ذات البين فمشروع.

١ ــ عن عمر (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) كان يعطيه العطاء فيقول له: أعطه من هو أفقر إليه مني. فقال له (ﷺ): خذه. إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك. رواه الشيخان. والاشراف على الشيء الرغبة فيه والحرص عليه.

٢ ــ وعن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) قال: «من سأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمراً فليستقل أو يستكثر، أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه.

٣ ــ وعن سهل بن الحنظلية (رضى الله عنه) أنه (ﷺ) قال: «من سأل وعنده ما يغنيه فانما يستكثر من جمر جهنم» قالوا: «يارسول الله وما يغنيه؟» قال: «وما يغديه أو يعيشه» أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان.

٤ ــ وعن أنس أنه (ﷺ) قال: المسألة لاتحل إلا لثلاثة لذي فقر مدقع أولذي غرم مفظع أولذي دم موجع. أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. والمدقع الشديد من الادقاع وهو اللصوق بالدعقاء أي الأرض الجرداء. والغرم المفظع المال الكثير يلزمه الرجل في سبيل اصلاح بين الناس. والدم الموجع الدية يتحملها المرء عن قريبه كي لا يقتل.

٥ ــ وفي الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه.

٦ ــ وعن عائشة عنه (ﷺ): «تهادوا تحابوا» أخرجه الطبراني في الأوسط والحربي في الهدايا والعسكري في الأمثال. ووردت في معناه آثار تتبعه العجلوني في كشف الخفاء (١ : ٣١٩).

اتخاذ المزارات :

٥ ــ وأما اتخاذ المزارات فممنوع ولو للصلاة فيها سواء بالبناء على القبور أم بتعليق الخيوط على أشجار أم بوضع المباخر والمصابيح عندها.

١ ــ ففي الموطأ والصحيحين عن عائشة وغيرها أن آخر ما تكلم به رسول الله (ﷺ) أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وروي لعن مكان قاتل.

٢ ــ وعن أبي الهياج أن عليا قال له: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله (ﷺ): «لا تدعن قبرا مشرفا إلا سريته ولا صورة في بيت إلا طمستها» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وهذا لفظه.

٣ ــ وعن أبي هريرة أنه (ﷺ) قال: «لا تجعلن قبري وثنا لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه أبو يعلي وفيه اسحق بن أبي إسرائيل وفيه كلام لوقفة في القرآن. وبقية رجاله ثقات قاله في مجمع الزوائد.

ذات أنواط :

٤ ــ وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله (ﷺ) قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها. فقال النبي (ﷺ): «الله أكبر هكذا قالت بنو إسرائيل لموسى

اجعل لنا إلها كما لهم آلهة انكم تركبون سنن من قبلكم». أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه. نقله ابن كثير والسيوطي في الدر المنثور عند آية الأعراف. ورواه الأزرقي في أخبار مكة من حديث أبي وافد وابن عباس، فوصف ذات أنواط بأنها شجرة عظيمة خضراء يأتيها قريش ومن سواهم كل سنة فيعلقون بها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما. وأن من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيما لها.

السفر إلى المزارات :

٦ ـ وأما السفر إلى المزارات ففي الموطأ عن أبي هريرة أنه قال لقيت بضرة بن أبي بصرة الغفاري فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من الطور. فقال: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد ايليا أو بيت المقدس يشك». وايليا وبيت المقدس واحد وانما الشك فيما لفظ به الرسول منهما. وقوله لقيت بصرة قال ابن عبد البر الصواب أبا بصرة. والغلط من يزيد لا من مالك. وقال في مجمع الزوائد رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد ثقات اثبات (٤ : ٣) ثم أورده عن أحمد من حديث أبي سعيد الخدري. وهذا باعتبار ذكر قصة الطور اما الحديث المرفوع إلى النبي (ﷺ) ففي الصحيحين وغيرهما عن غير واحد من الصحابة.

حكمة تخصيص المساجد الثلاثة بشد الرحال :

وقد تقدم في الفصل الحادي عشر حديث السرحة التي سر تحتها

سبعون نبياً وزيارته (ﷺ) لقباء راكبا وماشيا يصلي فيه ركعتين وذلك يدل لمشروعية زيارة الأمكنة الفاضلة من غير سفر قال البيضاوي : «لما كان ما عدا الثلاثة من المساجد متساوية الأقدار في الشرف والفضل وكان التنقل والارتحال لأجلها عبثا ضائعاً، نهى عنه، لأنه ينبغي للإنسان ان لا يشتغل إلا بما فيه صلاح دنيوى أو فلاح اخروى، قال والمقتضي لشرف الثلاثة أنها أبنية الأنبياء ومتعبداتهم» . نقله الزرقاني في شرح الموطأ (١ : ٢٠١) وفي معالم السنن للخطابي «وإنما خص هذه المساجد بذلك لأنها مساجد الأنبياء وقد أمرنا بالاقتداء بهم» (٢ : ٢٢٢) . وقال الزرقاني في شرح الموطأ «وإنما حظر البناء على القبور خشية أن يعبد المقبور» (٤ : ٧١) .

شروط الزيارة :

ويخرج من هذا مشروعية زيارة الأمكنة التي اشتملت على معنى يشرفها لكن بخمسة قيود. الأول أن لا يتخذ عليها بناء ولا شيء يميزها. الثاني أن لا يعلق بها خيوط ونحوها. الثالث أن لا يكون لها سدنة يستشرفون لما في أيدي الزائرين. الرابع أن لا يرجى منها النفع والخير رجاء المشركين ذلك من أصنامهم لأنه معنى العبادة. الخامس أن لا يسافر إليها السفر الطويل في غير المساجد الثلاثة. وفي غير زيارة المتحابين من الأحياء. على ظاهر حديث أبي هريرة المتقدم في زيارة الأحياء. وكل طاعة يمكن فعلها بغير سفر فهي داخلة في النهي عن أعمال المطي وشد الرحال.

الغرض في الزيارة :

وأما الغرض من الزيارة فليس الناس متحدين فيه وقد يكون للزائر غرض واحد، وقد تجتمع له أغراض فان اتحدت في الحكم افادته

قوة. وان اختلفت فيه فالمركب من المشروع والمبدوع مبدوع. ولبيان ما هو من الأغراض مسنون أو مبتدع نفصلها إلى سبعة أنواع.

زيـــارة المحبـــة :

الأول محبة المزور واكرامه وبره. وهذا غرض صحيح في زيارة الأحياء والأموات إذا كانت للزائر علاقة بالمزور من قرابة أو صداقة. قال السبكي في شفاء السقام «ويشبه أن تكون زيارة النبي (ﷺ) قبر أمه من هذا القبيل» (ص٧٣).

زيارة الاستعانـــة :

الثاني الطمع في اعانة المزور بماله أو جاهه أو رأيه. وهذا لم يذكره من وقفنا على كلامهم في أقسام الزيارة، لكنه مقابل للنوع الذي قبله. وهو غير صحيح في الأموات لعدم صحة الاستعانة بهم وصحيح في زيارة الأحياء متى كانت للزائر حاجة حاملة على الاستعانة وكان للمزور استطاعة معتادة لتلك الاعانة.

زيارة استطلاع الغيب :

الثالث استطلاع الغيب كما يزور العوام مرابطهم ممن يسميهم الشرع كهانا أو مجانين ليدلوهم على ما ضاع منهم بسرقة أو غيرها ويكشفوا لهم عن عاقبة ما أرادوه من نكاح أو شركة أو سفر أو فلاحة أو غير ذلك. وهذا القصد فاسد منهي عنه لما تقدم في فصل الكهانة من التشديد في اتيان الكهان. وذكرناه في أنواع الزيارة وان لم يذكره غيرنا فيها لأن عوامنا يسمون هذا زيارة.

زيارة الاتعـــاظ :

الرابع الاتعاظ بتذكر الموت والاعتبار بحال الميت ومصير الحى.

وهذا غرض صحيح في زيارة المقابر لا فرق بين من فيها من مسلم وكافر ولا بين القريب منك والأجنبي عنك.

زيـــارة الترحم :

الخـامس الدعاء للموتى والسلام عليهم. وهذا مشروع في مقابر المسلمين سواء كانت مقابر الأولياء الصالحين أم العصاة المذنبين.

زيــارة التأنيس :

السادس تأنيس الزائر للمزور إذا كانت بينهما مودة صادقة. وذلك صحيح في زيارة الأحياء والأموات. وهذا النوع أدخله السبكي في النوع الأول.

زيـــارة التبرك :

السـابـع التبرك. وهذا لا ينبغي اطلاق القول فيه بأنه مشروع أو مبتـدع حتى يعلم مراد الـزائـر من التبرك. فان أراد به الانتفاع في قبول الـدعـاء أو زيـارة ثواب الطـاعـة ولم يرتكب في زيارته مخالفة للشرع كان غرضـه مشـروعـاً معقـولا كما بينـاه في الفصل الحادي عشر. وهذا القبر الشـريف لا يقصـد من زيارته أكثر من ذلك. ففي الشفاء لعياض «قال مالـك في روايـة ابن وهب اذا سلم على النبي (ﷺ) ودعـا يقف ووجهه إلى القـبر الشـريف لا إلى القبلة ويـدنو ويسلم ولا يمس القبر بيديه. وقال في المبسوط لا أرى أن يقف عند قبر النبى (ﷺ) يدعو ولكن يسلم ويمضي». وقال ابن عاشر:

وســر لقــبر المــصطـفى بأدب ونــيـــة تجب لكــل مطــلب

سلم عليه ثم زد للصديق ثم إلى عمر نلت التوفيق
واعلم بأن ذا المقام يستجاب فيه الدعاء فلا تمل من طلاب

وان أراد به الانتفاع بالمزور أو المزار في قضاء الحاجات من غير أسبابها المعتادة وطرقها الظاهرة فهو من نسبة التصرف في الكون للمخلوق. وذلك شرك بواح. قال في زاد المعاد «وكان هديه (ﷺ) أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة عليه من الدعاء والترحم والاستغفار. فأبى المشركون الادعاء الميت والاشراك به والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه، بعكس هديه (ﷺ) فإنه هدى توحيد واحسان إلى الميت. وهدى هؤلاء شرك واساءة إلى نفوسهم وإلى الميت» (١ : ١٤٦).

الاستمداد من الأرواح :

وقد يعبر ون عن هذا الضرب من التبرك بالاستمداد من أرواح الصالحين ويعتقدون أنهم أحياء في قبورهم يتصرفون في العالم ويقضون حاجات قاصديهم، ويستدل مستدلهم بما ورد في حياة الأرواح مما قدمنا أصحه وأصرحه. فيتخذون المزارات يبنون عليها البناءات ويرون أن روح الصالح فلان هنالك، إما لأنه دفن هنالك أو جلس به. بل تجد بناءات كثيرة على مزارات عديدة كلها منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد رحمه الله، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها. وهذه المزارات الجيلانية تجدها غربي وطن الجزائر أكثر منها في شرقه. أما أن يكون للصالح الواحد قبران فهذا نعرفه لغير صالح. وأشهرهم بوطننا الشيخ محمد بن عبد الرحمن مؤسس الطريقة الرحمانية بمغربنا. ومن مظاهر هذا التبرك الأستمدادي تقبيل الجدران والتمسح بالحيطان وكل ما يضاف إلى ذلك المكان.

وكل هذا جهل وضلال، فإن توحيد الله متنازل لتوحيد التوجه إليه والاستعانة به فيما لم ينصب له سببا عاديا. وابن آدم، بلغ فضله ما بلغ، ليس له إلا التصرف المعتاد ما دامت روحه بجسده في عالم الشهادة، ولا تأثير للأرواح التي في عالم الملكوت في شيء من عالم الملك. ومن عاند في ذلك فجربه بأن تشتري منه أرضا مثلا بالدين، فإذا تقاضاك فقل له: ان جدك الوالي الصالح الذي كان يملك هذه الأرض وورثتها عنه قد جاءتني روحه وأخذت مني الثمن. فما يكون جوابه؟ وكيف يحكم الناس على هذه الدعوى؟.

وقد نسب ابن تيمية القول بالاستمداد من الأرواح إلى الملاحدة من الفلاسفة وشرح فلسفتهم فيه، فقال في رسالة التوسل والوسيلة: «يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية. فيقولون ان الانسان إذا أحب رجلا صالحا قد مات ـ لاسيما إن زار قبره ـ فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك. بل وقد لاتعلم الروح المستشفع بها ذلك. ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس. ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة. وان قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة، فهكذا الشفاعة عندهم. وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم. وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لايخفي على من تدبره. ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم» (ص٢٢).

قطع السلف لاتخاذ المزارات :

وقد علمت الحكم في البناء على القبور وحكمته. وأجمع الصحابة على العمل به. فلم يبنوا على الأمكنة التي جلس فيها الرسول في أسفاره إلى الحج والعمرة والغزو، وهم عالمون بها وشديدو الحب له. ولم ينوطوا بشجرة الرضوان ولا غيرها خيوطاً وخرقاً ولا وضعوا تحتها مباخر ومصابيح، ولا قبّلوا غير الحجر الأسود أو تمسحوا بشيء من غير أركان البيت. بل نهى أمير المؤمنين ومحدث هذه الأمة عمر بن الخطاب عن تعمد العدول إلى موضع سجوده (ﷺ) في طريق المدينة إلى مكة. وقطع شجرة الرضوان، وبيّن وجه تقبيله للحجر الأسود كما تقدم في الفصل الحادي عشر.

احداث الخلف للمزارات :

أين أنتم من هذا يا من اتخذتم من القبور والمزارات أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا؟ وشيدتم عليها القصور ورفعتم القباب واشركتموها برب الأرباب؟ وجاوزتم ذلك تكثيرا لمظاهر الشرك فبنيتم على القبور؟ واتخذتم من شجر البطم والسدر وغيرهما ذات أنواط تعلقون به الخرق والخيوط وتسرجون له الأضواء وتعطرونه بالمباخير والرياحين؟ وجاوزتم ذلك اغراقا في الشرك إلى الصخور الضخمة والأودية الموحشة؟ واستبدلتم بالتبرك المسنون تبرككم المبتدع المأفون.

ها قد أوضحنا لكم ما في الزيارة من رشد وغي، فكونوا من عباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. ولا تكونوا ممن حقت عليهم كلمة الله : ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا﴾.

٢٦ ـ الذبائح والزردات

معنى الذبح والداعي إليه :

الذبائح جمع ذبيحة . وهي ما يذبح من الحيوان . وأصل الذبح الشق . وذبح الحيوان شق حلقه . والذبيحة إن قصد بها إلى القربة فهي من العبادات وإلا فهي من العادة . ولذبح العادي ما يكرم به الذابح نفسه ويوسع به على عياله أو يقدمه لضيفه . وهذا كالذي تراه في أسواق الجزارين . وهو من النعيم المباح إذا استوفيت شروط الذكاة المبينة في كتب الفروع .

النسك :

والذبح الديني يسمى نسكاً . وكانت العرب تنسك في جاهليتها النسائك حول أصنامها وأنصابها تقربا إليها ، وتحتفل لذلك على نحو ما تراه اليوم في «الزردات» . ومن نسائكهم الفرع والعتيرة وأجنة البحائر والسوائب التي يخصون بها ولد منها حياً الرجال فلا تأكل منه النساء ويشركونهن معهم فيما ولد منها ميتاً ، كما حكاه البغوي عن ابن عباس وقتادة والشعبي في قوله تعالى : ﴿**وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء**﴾ .

تعلق الاخلاص بالعادات كالعبادات :

وقد جاء الإسلام بوجوب توحيد الله والاخلاص له في جميع الأعمال ما كان منها عادة وما كان منها عبادة . وقد قرر أبو اسحاق الشاطبي في كتاب المقاصد من الموافقات كليات لها تعلق بهذا الموضوع ، وشرحها وبسط القول فيها . ونحن نثبتها للاستدلال بها لا لشرحها

وتقـريـرها. الكلية الأولى أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة اخراج المكلف عن داعيــة هواه حتى يكــون عبـداً لله اختيـاراً كما هو عبـد لله اضطـررا. الثـانية أن المقاصد الشرعية ضربات مقاصد أصلية ومقاصد تابعـة. فالأولى هي الفـروض التي لاحـظ فيهـا للنفس. والأخرى هي المباحات العادية التي روعي فيها حظ المكلف. الثالثة أن العمل إذا وقع على وفق المقـاصـد التـابعة فلابد أن تصاحبه المقاصد الأصلية. ومعنى ذلـك أن تكـون الأعمال العادية المباحة معمولة على مقتضى المشروع لا يُقصـد بها عمـل جاهـلي ولا اخـتراع شيطـاني ولا تشبه بغير أهل الملة، ومثل ذلك بقوله: «كشرب الماء أو العسل في صورة شرب الخمر، وأكل ما صنـع لتعظيم أعيـاد اليهـود أو النصـارى وان صنعه المسلم أو ما ذبح على مضاهات الجاهلية، وما أشبه ذلك، مما هو نوع من تعظيم الشرك» (٢ : ٢٠٨) الرابعة أن كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة. وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل. ومثل لهذه الكليـة باظهـار كلمـة التـوحيد قصدا لإحراز الدم والمال لا اعترافاً بوحـدانيــة الحق وبالصلاة، ليوسم بالصلاح وبالذبح لغير الله وبالهجرة لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها في أمثلة غيرها (٢ : ٣٣٥).

النسك المشروع :

والنســائــك في الإسـلام ثلاثـة: الأضحيـة والعقيقـة والهـدي للكعبـة(١) خاصـة لا للأضـرحة والمزارات. وإذا لم تكن الذبيحة نسيكة تعبدية وجب أن تكون على الوجه المأذون فيه.

(١) ليس الهدى للكعبة بل هو لله تعالى ولكنه يذبح في مكة ويتصدق به على فقرائها.

ما جاء في أن الذبح لله وحده :

١ ـ قال تعالى : ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت**﴾ فعطف النسك على الصلاة .

٢ ـ وقال : ﴿**فصّل لربك وانحر**﴾ يريد نحر النسك كما فسره الجمهور . وعطفه على الصلاة كما في الآية قبلها ينادي بأن الذبح لغير الله كالصلاة لغير الله . ولو رأى الناس مسلماً يصلي لغير الله لبادروا إلى تكفيره من غير استفتاء علماء الدين . وهم مصيبون . ولو رأوا ـ وكم رأوا ـ من يذبح لغير الله لرضوا بهذا الصنيع وتأول لهم علماء الأغراض مما يحسن هذا الفعل الشنيع . وما هذه التفرقة إلا أنهم ألفوا الذبح لغير الله ولم يألفوا الصلاة لغير الله ، على أن الصلاة لغير الله قد وقعت من بعض الأغبياء نادراً حدثني الثقة أن الشيخ يوسف بن الدرويش من شيوخ الطريقة الرحمانية قرب الميلية حدثه عن مريده فلان ، أنه توجه إليه وصلى له فجعل هوينتقل من ناحية إلى أخرى ومريده يتبعه مستقبلاً اياه . حدثه هذا الحديث وهو مغتبط بتعظيم مريده له .

ما جاء في الذبح لغير الله :

٣ ـ وقال تعالى : ﴿**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق**﴾ .

٤ ـ وفي صحيح مسلم ونحوه في الأدب المفرد عن علي بن أبي طالب أنه أتاه رجل فقال : ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ فغضب وقال : ما كان النبي ﷺ يسر إلي شيئا يكتمه الناس غير أنه حدثني بكلمات أربع . فقال الرجل : ما هن ياأمير المؤمنين؟ قال : قال ﷺ : لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثاً .

ولعن الله من غير منار الأرض. والمحدث هو المفسد في الأرض. ومنار الأرض تخومها وعلامات حدودها.

٥ ـ وروى أحمد عن طارق بن شهاب البجلي (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، قالوا: لأحدهما قرب. قال: ليس عندي شيء أقرب قالوا: قرب ولو ذبابا. فقرب ذبابا فخلوا سبيله. فدخل النار وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة. واكتفاء هؤلاء المشركين بتقريب الذباب اعتداد بأضعف مظاهر الطاعة، اذ المقصود الأعظم هو اعتقاد القلب. وهذا كالمثل العام المشهور «أداها بو حجر». . يعنون أخذ الولاية أبو حجر.

مثـــل عامي :

ويذكرون أن قائله أحمد الزواوي دفين الجبل غربي قسنطينة وأحد شيوخ الطريقة الحنصالية من فروع الطريقة الشاذلية، قاله لرجل عديم جاء مع الزوار. فلما انتهى إلى أصل الجبل حمل معه حجراً وصعد يلهث به. فلما قدم الناس الأموال للشيخ الزواوي، قدم له هو ذلك الحجر.

ما جـاء في مخالفـة الجاهلية في الذبح :

٦ ـ وعن ابن عباس أن قريشا استأذنت رسول الله ﷺ في العتيرة. فقالوا: انعتر في رجب؟ فقال ﷺ: اعتر كعتر الجاهلية؟ ولكن من أحب منكم أن يذبح لله ويتصدق فليفعل وكان عترهم أن يذبحوا

ثم يعمدوا إلى دماء ذبائحهم فيمسحوا بها رؤوس نصبهم. رواه الطبراني في الكبير وفيه إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة. وثقه ابن معين وضعفه الناس. قاله في مجمع الزوائد.

٧ ــ وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: لا فَرَعَ ولا عتيرة.

٨ ــ وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن نبيشة الهذلي ـ بلفظ المصغر ـ أنهم ذكروا للنبي ﷺ عترهم في الجاهلية. فقال: اذبحوا لله عز وجل في أي شهر ما كان وبروا الله عز وجل وأطعموا ومثله عند الطبراني في الأوسط عن أنس مرفوعاً.

معنى الاهلال لغير الله:

وفي تفسير الثعالبي أن معنى الاهلال الصياح ومنه استهلال المولود. وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حق عبر به عن النية التي هي علة التحريم.

وفي تفسير ابن كثير عن مجاهد وابنْ جريج أن النصب حجارة كانت حول الكعبة. كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح. ويشرحون اللحم ويجعلونه على النصب. قال: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب، من الشرك الذي حرمه الله ورسوله».

وفي تفسير الشوكاني أن مما أهل به لغير الله ما يقع من المعتقدين في الأموات من الذبح على قبورهم. ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن.

وروى أبو علي القالي في أماليه خبر معاقرة جرت بقصد المفاخرة بين سحيم بن وثيل الريحاني وغالب بن صعصعة أبي الفرزدق أيام خلافة علي كرم الله وجهه. فأفتى فيها علي بأنها مما أهل به لغير الله ونهى عن الأكل منها وأمر بطرد الناس عنها (٣ : ٥٤).

وذكر القرطبي عند تفسير «وما أهل به لغير الله» من سورة البقرة مثل ما قدمنا عن الثعالبي وأعقبه بفتوى علي في حكم تلك المعاقرة ثم نقل عن ابن عطية أنه قال: «رأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سأل عن امرأة مترفة صنعت للعبها جمع لعبة عرسا فنحرت جزورا فقال الحسن لا يحل أكلها فإنها انما نحرت لصنم» (٢ : ٢٢٤).

وقال النووي في شرح مسلم عند الكلام على حديث «لعن من ذبح لغير الله» «وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح بغير اسم الله تعالى كمن ذبح لصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما أو للكعبة ونحو ذلك. فكل هذا حرام ولا تحل الذبيحة. سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا.

«فان قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرا فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتدا.

«وذكر الشيخ إبراهيم المروزي من أصحابنا أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربا إليه. أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله تعالى. قال الرافعي: هذا انما يذبحونه استبشاراً بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود. ومثل هذا لا يوجب التحريم والله أعلم».

وتفسير النووي الذبح لغير الله بالذبح بغير اسمه تعالى مبني على المعقول من أن ما يراد به غير الله يذكر عليه اسم ذلك الغير. وذكر

اسم الله في هذه الحالة لغو، لأن النية هي علة التحريم. وتقدم تصريح ابن كثير بعدم الاعتداد بالتسمية في هذه الحال ويأتي مثله عن الشاطبي. ومما لاريب فيه أن المعاقرين قد ذكروا اسم الله عند العقر. ومع ذلك جعله علي مما أهل به لغير الله. وعطف النووى العبادة على التعظيم تقييد للتعظيم بما كان فيه معنى العبادة. ونقله عن الرافعي غير مخالف لفتوى أهل بخارى إلا بالقصد. فهو خلاف في حال. فمن قصد التقرب للأمير صدقت عليه تلك الفتوى. ومن قصد مجرد السرور أفتى له بقول الرافعي.

وقال الشاطبي في الموافقات: «روى ابن حبيب عن ابن شهاب أنه ذكر له أن إبراهيم بن هشام بن إسمعيل المخزومي أجرى عينا. فقال له المهندسون عند ظهور الماء لو اهرقت عليها دما كان أحرى أن لا تغيض، ولا تهور فتقتل من يعمل فيها. فنحر جزائر حين أرسل الماء فجرى مختلطاً بالدم. وأمر فصنع له ولأصحابه منها طعام. فأكل واكلوا. وقسم سائرها بين العمال فيها. فقال ابن شهاب: بئس والله ما صنع. ما حل له نحرها ولا الأكل منها. أما بلغه أن رسول الله ﷺ نهى أن يذبح للجن. لأن مثل هذا ـ وان ذكر اسم الله عليه ـ مضاهاة لما ذبح على النصب وسائر ما أهل لغير الله به.

«وكذلك جاء النهي عن معاقرة الأعراب وهي أن يتبارى الرجلان فيعقر كل واحد منهما يجاود به صاحبه. فأكثرهما عقرا أجودهما. نهى عن أكله لأنه مما أهل به لغير الله. قال الخطابي: وفي معناه ما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهم البلدان وأوان حوادث يتجدد لهم، وفي نحو ذلك من الأمور. وخرج أبو داود «نهى (ﷺ) عن طعام المتباريين أن يؤكل. وهما المتعارضين ليرى أيهما يغلب صاحبه.

فهـذا ومـا كان نحـوه انما شرع على جهة أن يذبح على المشروع بقصـد مجرد الأكـل. فإذا زيـد فيـه هذا القصد كان تشريكاً في المشروع ولحظـا لغـير أمـر لله تعالى. وعلى هذا وقعت الفتيا من ابن عتاب بنهيه عن أكـل اللحـوم في النـير وز وقـوله فيها: انها مما أهل لغير الله به. وهو باب واسع» (٢ : ٢١٠).

قولـه: «وقـد جاء النهي عن معـاقـرة الأعـراب» أخرجه أبو داود عن ابن عبـاس قال: «نهى رسـول الله ﷺ عن معـاقرة الأعراب». وما نقله عن الخطابي ذكره في شرح هذا الحديث (٤ : ٢٧٨) وحديث طعام المتباريين أخرجه في كتاب الأطعمة عن ابن عباس.

هذا حكم ما كان من الـذبـائح على وجـه العـادة أو على حكم العبـادة كما أعـرب عنه الكتاب والسنة وكلام فحول الأيمة من مفسرين ومحدثين وأصوليين. والفقه إنما يكون من هذه العلوم الثلاثة. وبعد هذا البيـان العـام نخصص بالـذكـر ضربين من الذبائح هي ما يكون للجن ومنـه ما تسميـه العـامـة النشـرة. وما يكون على الأضرحة والمزارات مما يسميه بعض الناس اليوم «زرده» وبعضهم «طعاما».

الـــذبح للجـــن :

فأمـا الـذبـح للجن فقـال في الأساس: «ونهى عن ذبائح الجن ما ذبح للطيرة. نحو أن تشتري داراً فتذبح لتستخرج العين ولئلا يصيبك مكـروه من جنهـا». وتقدمت فتوى ابن شهاب في الذبح لاجراء العين، والحكم عليـه بحكم ما ذبـح على النصب. وذلـك لأنه من عبادة الجن التي كانت معروفة عند العرب فنكرها القرآن. قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركـاء الجن﴾ وقـال: ﴿وانـه كان رجـال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقـا﴾. قال الـراغب: رهقـه الأمـر غشيـة بقهر. وبين

المفسـرون للأيـة استعـاذة العـرب بالجن التي هي من معنى العبـادة. فقالوا: ـ واللفظ للكشاف ـ «ان الرجل من العرب كان اذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهـاء قومـه يريد الجن وكبيرهم. فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنا الجن والانس فذلك رهقهم، أو فزاد الجن والانس رهقا باغوائهم واضلالهم لاستعاذته بهم».

معنى النشرة وحكمهـا :

والنشرة في كلام العرب بضم فسكون من النشر بمعنى التفريق. وهى تعـويـذ ورقيـة يعالج بها المريض والمجنون تقول نشرت المريض إذا قرأت عليـه كلمات أو كتبتهـا له. ليعلقهـا تميمـة أو ليمحـوهـا ويشـربها ويـدهن بها. ونشـرت عنـه نشـراً ونشرت تنشيراً اذا رقيته بالنشرة كأنك تفـرق عنـه العلة. وتطلق النشـرة على السحـر كما في معـالم السنن عن الحسن (٤ : ٢٢٠) وأنشد لجرير:

أدعوك دعوة ملهوف كأن به ... مسا من الجن أو ريحاً من النشر

وتطلق أيضا على حل السحر عن المسحور. فاذا كان ذلك الحل بسحر أيضاً فمحظور لما في سنن أبي داود أن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: «هو من عمل الشيطان» وان كان بدعوات مشروعة وأدوية مباحة فلا ضير. وبالجملة أن النشرة من الطب ولها حكم الرقية والتميمة.

والنشرة في لسان عوامنا طعام يتخذ على ذبيحة من الدجاج غالبا تقـربـا إلى الجن كى يرفعـوا داءهم عن المصاب بهم. ولا يذكرون اسم الله على الـذبيحـة ارضـاء للجن. فالفقهـاء الاصطلاحيون يقتصرون على منع الأكل منها لفقد التسمية. والفقهاء في الدين يحكمون بأنها من مظاهر الشرك الأكبر حيث تقرب بها إلى غير الله قصدا. ولم يلتجأ إلى

الله في طرد ذلك الجني كأنه مستقل في تصرفه، خارج عن متناول قدرة الله وارادته. وأصل الشرك نسبة القوة الغيبية لغير الله.

معنى الزردة والغرض منها :

وأما الزردة فهي في لسان العرب المرة من زرد اللقمة، كَفَهِمَ، زردا بلعها. وازدردها ابتلعها. وهى في عرفنا طعام يتخذ على ذبائح من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم. ولها وقتان أحدهما في فصل الخريف عند الاستعداد للحرث. والآخر في فصل الربيع عند رجاء الغلة. والغرض منها التقرب من ذلك الصالح كي يغيثهم بالأمطار تسهيلا للحرث أو حفظاً للغلة. فهو عندهم كوزير عند ملك يرشونه بالزردة ليقضي حاجتهم عند الله. ما أجهلهم بمقام الألوهية!.

حكم الزردة :

وهذه الزردة يذكرون اسم الله على ذبيحتها ونيتهم الذبح للصالح عندهم. فاعمل الجامدون من الطلبة جانب اللفظ ورأوا اباحة أكلها وهم يقرأون قول خليل في نسبة المصلي ولفظه «وان تخالفا فالعقد». يريد ان العبرة عند اختلاف القلب واللسان بما يعقده القلب لا بما يلفظه اللسان. وهى قاعدة عامة في جميع الطاعات لحديث الشيخين: انما الأعمال بالنيات، وحديث مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ أن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ومن كلام العامة «القلب قاصد واللسان فاسد» وتقدم القول بأن النسبة هي علة التحريم وأن اللفظ باسم الله مع القصد إلى سواه غير رافع للحرمة.

وقد يقول الجامدون والمغرضون إنا نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر. وقد ظهر من حال الذابح أنه ذكر اسم الله فلا نبحث عن نيته الباطنة فنقول لهم أولا ان المفتي لا يقتصر دائما على الظواهر ففي الأيمان والطلاق مسائل تنبني على النية والقصد ويختلف حكمها باختلاف النية مع اتحاد اللفظ، بل تقدم قريباً الاستناد إلى النية في حكم الذبائح عن علي وغيره. وثانيا أن السرائر ما تحف به قرائن تجعل الحكم للنية ولا تقبل معه الظواهر. وذبائح الزردة من هذا القبيل. فان كل من خالط العامة يجزم بأن قصدهم بها التقرب من صاحب المزار. ويكشف عن ذلك أشياء.

الدلائل على كون الزردة لغير الله :

أحدها: أنهم يضيفون الزردة إلى صاحب المزار. فيقولون «زردة سيدي فلان» أو «طعام سيدي عبد القادر» مثلا.

ثانيها: إنهم يفعلونها عند قبره وفي جواره. ولا يرضون لها مكانا آخر.

ثالثها: انهم ان نزل المطر أثرها، نسبوه إلى سر المذبوح له وقوى اعتقادهم فيه وتعويلهم عليه.

رابعها: أنهم ان نهوا عن فعلها في المكان الخاص، غضبوا ورموا الناهي بضعف الدين أو بالإلحاد. وقد يجاوزون الجهر بالسوء من القول إلى مد الأيدي بالاذاية.

خامسها: أنهم لو تركوها فاصيبوا بمصيبة نكسوا على رؤوسهم وقالوا ان وليهم غضب عليهم لتقصيرهم في جانبه.

فهذه دلائل من أحوال الناس وأفعالهم وأقوالهم التي لم يلقنها لهم

المكابرون المتسترون وراء التأويل، تريك أن ذبائح الزردة مما ذبح على النصب وأهل به لغير الله وأن ذكر عليها اسمه.

القول بأن الزردة شرك :

وبعد فإن نظر الناس اليوم إلى الزردة على ثلاث درجات : الأولى أنها من الشرك. فيجب على العلماء تحذير الأمة منها والنصح باجتنابها ويجب على الأمة الاتباع والمبادرة إلى الإقلاع. ودليل ذلك مشابهتها في المعنى لعتائر الجاهلية وقرابينها واجتماعاتها على أنصابها وأصنامها. وتقدم حكم الشرع في ذلك. ومشابهتهم في الصورة لعقر الجاهلية على قبور أجاودهم وقد روى أبو داود عن أنس أنه ﷺ قال : «لا عقر في الاسلام». قال الشاطبي : «كان أهل الجاهلية يعقرون الابل على قبر الرجل الجواد، يقولون : نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف. فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير فيكون مطعما بعد مماته كما كان مطعما في حياته.. ومنهم من كان يذهب في ذلك إلى أنه إذ عقرت راحلته عند قبره حشر في القيامة راكبا. ومن لم يعقر عنه حشر راجلا» (١ : ٣١٦).

وعن زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنه رأى رجلاً يجيىء إلى فرجة كانت عند قبر الرسول فيدخل فيها فيدعو، فنهاه. فقال ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عنه ﷺ قال : لاتتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً فان تسليمكم يبلغني أينما كنت، رواه أبو يعلي وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً. وبقية رجاله ثقات. قاله في مجمع الزوائد. ومن نهيه ﷺ عن جعل قبره وثناً واتخاذ القبر وثناً بأن يطلب من صاحبه ما لا يطلب إلا من الله واتخاذه عيداً بأن يزار زيارة مؤقتة تجتمع لها الناس في

زينة وسرور على ظل سن العادات أو سن العبادات. وكل من معنى العيد والوثن موجود في الزردة.

القول بأن الزردة معصية :

الدرجة الثانية: أنها معصية لا تنتهي إلى الشرك وقوفاً عند الظواهر التي تشمل الزردة عليها من اسراف واستدانة وشهود مناكر من تطبيل وتزمير ورقص وصياح وتخبط كالذي يتخبطه الشيطان من المس، إلى موبقات أخر من خمر واختلاء بالأجنبيات واختلاط بهن، وان لم تشتمل زردة ضعيفة الشهرة على كل هذه المخازي والنقائص لم تخل من بعضها. وقد بنى هذا الفريق نظره على حكم الفروع فأصاب. وأغفل جهات الأصول فاخطأ.

القول باستحسان الزردة وما يرد عليه :

الدرجة الثالثة: استحسانها نظراً إلى ما يقع من التزاور ومواساة الفقراء. ثم هى داخلة في النذر واهداء الثواب للميت، اما ما فيها من التزوار والمواساة فالجواب عنه أولاً أن أغلب المجتمعين يضيعون الصلوات يوم الزردة، ولا يشهد كثير منهم الجمع والأعياد ولا يصلون الأرحام. وكثير من الفقراء والأيتام مقهورون عن الزردة منهورون. وثانياً: أن المقصود بالذات هو التقرب من صاحب الضريح. وثالثاً: أن ما في الزردة من مفاسد أطم من ذلك الطفيف من المحاسن لو قصد بالذات. وغلبة مفسدة الشيء على مصلحته دليل الحظر منه كما قال العلماء أخذاً من قوله تعالى في الخمر والميسر: ﴿واثمهما أكبر من نفعهما﴾.

ثم لو كانت الزردات خيراً ـ وهي كثيرة عندنا ـ لظهر خيرها أو

لقلت كما قل كل خير، ولكـان السلف أولى بها كما هم أولى منـا بكـل خير. فهل فعلها النبي ﷺ على قبر سيد الشهداء عمه حمزة؟ أم صنعها الصحابة على القبر الشريف؟ أم اتخذها التابعون على قبور الخلفاء أو الشهـداء أو غيرهم ممن كل واحـد منهم خير من ألف ممن يزردون لهم اليوم؟ كلا لم يكن شيء من ذلك.

لو ضبطنـا ما ينفق بوطننـا الجـزائـري على الـزردات لهالنـا الأمر واستهـوتنـا الأحـزان إذ نرى التبـذيـر الـذي لايحتمـل في حين حاجتنـا الشديدة إلى التعليم الحر وعجزنا ماليا عن سدها. وقد سألت ذات عام تجار الجلفة عما خرج في زردة «سيدي عبد العزيز الحاج» وهي على أميال منهم. فذكـروا لي في خصـوص ما باعـوه من زيت السيـارات المعبر عنه بالليصانص مبلغاً عظيما نسيته الآن، ولكنه نحو المائة ألف فرنك. هذا في خصوص الزيت وفي تلك المسافة القليلة، فانظر مبلغ ما اشترى من الـزيت من غير الجلفـة ومـا خرج في غيره من خمر ولهو ثم من لحم ودقيق وغير ذلك. على أن هذه الزردة من متوسط الزردات، وأعلى منها زردة «سيدي عابد» من نواحي تيهرت (تيارات).

ان ما يخرج في الزردات يعد بعشرات الملايين. وتصور ذلك يقف بك على الخسـارة الفـادحـة التي لم تقف على الوجه المادي، بل تناولت ناحيـة الأخـلاق والـدين، فاستفـرغت الأيـدي من المـال والأدمغة من العقـول والأفئـدة من الـدين، وقضت على الـذريـة بالاهمال. فكانت خسـارة إيجـابيـة في الجهـل والجمـود والفقر والعصيان، وسلبية في العلم والتفكير والثروة والطاعة. فيا ليتها أبقت علينا ديننا فتمثلنا بقول من مضى:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاتـه منها فليس بضـائر

الحكم للزردة بحكم النذر :

وأما ادخال الزردات في النذر واهداء الثواب فقد صوره أحدهم بقوله : «لله علي شاة أو بدنة أو بقرة لسيدي فلان صدقة عليه . أو ان شفى الله مريضي أو ولد لي ولد فعليّ اطعام كذا بمحل كذا» . وهذه الصيغة لا تعرف العامة لفظها ولا معناها . فليست تصويراً لما في نفوسهم إنما هي تأويل فيه تضليل ثم لا يتأيد من الدين بدليل .

ما جاء في النذر للأوثان وعلى أعياد الجاهلية :

عن ميمونة ابنة كردم (رضي الله عنهما) عن أبيها أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : إني نذرت أن أنحر ثلاثة من إبلي . فقال ﷺ : ان كان على جمع من اجماع الجاهلية أو على عيد من أعياد الجاهلية أو على وثن فلا ، وان كان على غير ذلك فاقض نذرك . رواه أحمد وفيه من لم أعرفه . قاله في مجمع الزوائد . (٤ : ١٩١) وأخرجه أبو داود من طريقها بلفظ «إني نذرت انْ وُلِدَ لي ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم» . قال ﷺ : هل بها من هذه الأوثان؟ قال : لا . قال : فأوف بما نذرت به لله . قال الخطابي في شرحه : «وفيه دليل على أن من نذر طعاماً أو ذبحا بمكة أو غيره من البلدان لم يجز أن يجعله لفقراء غير أهل هذا المكان ، وعلى هذا مذهب الشافعي وأجازه غيره لغير أهل المكان» (٤ : ٦٠) . وبوانة بضم الباء وتخفيف الواو هضبة وراء ينبع قريبة من ساحل البحر . قاله ياقوت في معجم البلدان . وأخرجه أبو داود أيضاً عن ثابت بن الضحاك بلفظ «ان رجلاً أتى النبي ﷺ فقال إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة» . فقال ﷺ : أكان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد . قالوا لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا : لا . قال : أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم . قال في

نيل الأوطار: «وفيه دليل على أنه يجب الوفاء بالنذر في المكان المعين إذا لم يكن في التعيين معصية ولا مفسدة من اعتقاد تعظيم جاهلية أو نحوه» (٨: ٢٠٨).

المزارات من الأوثان:

وإذا قيل للناس أن هؤلاء الضرائح والمزارات من الأوثان، قالوا إنكم تسبون الصالحين! يا اخواننا افهموا لغة العرب والدين تجدوا أن ذلك ليس من الطعن على الأولياء فان كل ما نصب ليعبد من دون الله فهو وثن أو صنم. وكل من عبده فهو هالك. وليس كل معبود من دون الله هالكاً. قال تعالى: ﴿**انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾ فتلك المزارات والضرائح من الأوثان وان كانت منسوبة إلى ولي صالح.

تعيين مكان في النذر:

وتلك الاجتماعات عليها للزردات هي من أعياد الجاهلية فلو فرضنا أحداً نذر لها شيئاً فهو عاص بالوفاء به. فان أضاف إليه التقرب من صاحبها فهو مشرك، وان عيّن الناذر مكاناً سالماً من تلك الزردات وقصد به اعانة الأحياء من أهله تعيّن عليه الوفاء في ذلك المكان عند الشافعي كما تقدم عن الخطابي. أما مذهب مالك فقال، الزرقاني في شرح مختصر خليل: «من عبر بغير الهدى والبدنة، فان جعله لمكة فحكمه حكم الفدية، وان جعله كقبر النبي ﷺ وكقبر ولي، فان كان مما يهدي وعبر عنه بلفظ بعير أو خروف أو جزور نحره أو ذبحه بموضعه وفرق لحمه للفقراء. وان شاء أبقاه وأخرج مثل ما فيه من اللحم،

ويمتنع بعثه عند القبر ولو للنبي ﷺ ولو قصد به الفقراء الملازمين له لقول المدونة كما في التتائي سوق الهدايا لغير مكة ضلال. واما إن كان مما لا يهدي به كثوب أو دراهم أو طعام فان قصد بذلك الملازمين للقبر الشريف أو لقبر الولي ولو أغنياء أرسله لهم. وان قصد نفس النبي أو الشيخ أي الثواب له تصدق به بموضعه» (٣: ١٣٠).

النـــذر للمشـــاهد :

وفي فتح المجيد «قال الرافعي في شرح المنهاج، وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فان قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة تعظيم البقعة والمشهد أو الزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد. فان معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ويرون أنها مما يدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ويستشفى بالنذر له من الأدواء. حتى أنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم أنه استند إليها عبد صالح. وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت. ويقولون القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض أو قدوم غائب أو سلامة مال وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة. فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه. بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً. ومن ذلك نذر الشمع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً ظاناً أن ذلك قربة، فهذا مما لاريب في بطلانه. والإيقاد المذكور سواء انتفع به هنالك منتفع أم لا.

«قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للانسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ويقول: ياسيد فلان أن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه منها أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق. ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك. ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر. إلى أن قال إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام باجماع المسلمين» (ص١١٤).

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾.

٢٧ ـ النذر والغفارة

معنى النـــذر

النـذر مصـدر نذر الشيء ينـذره ، كضـربه يضربه ، وقتله يقتله . ومعنـاه ايجـاب الشيء على النفس مطلقـاً وقيل بشرط . وجرى الراغب على الثـاني فقـال : «أن توجب على نفسـك ما ليس بواجب لحدوث أمـر» . ومثله قولـه ثعلب : «النـذر وعـد بشـرط» حكـاه الخطابي . وذكر صاحبِ القـامـوس المعنيـين بقـولـه : «ونـذر على نفسه ينذُر وينذِر نذراً ونـذوراً أوجبـه كانتـذر . ونذر ماله ونذر لله سبحانه كذا . أو النذر ما كان وعــداً على شرط . فعــليّ ان شفـى الله مريـضي كذا نذراً ، وعــليّ أن أتصدق بدينار ليس بنذر» .

نــذر الجاهليــة

والمعنى الثـاني للنـذر يسميه المحدثون نذر المجازاة والفقهاء النذر المعلق . وتسميــه عامتنـا «الـوعـدة» . ومنـه ما حكـاه في الصحـاح عن الجاهلية ، فقال «وربما كان الرجل ينذر نذراً : ان رأى ما يحب يذبح كذا وكـذا من غنمـه . فاذا وجب ضاقت نفسـه من ذلـك فيعـتر بدل الغنم ظبـاء» وتقـدم بيـان العـتر في الفصل العاشر . وذكرنا ثمت طريقتهم في النـذر لله والأصنـام التي حكـاهـا تعـالى بقوله : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ . . الآية﴾ وهذا يحتمل أن يكون من النذر المطلق . فتكون العرب قد عرفت نوعي النـذر . ولكن لم تجر فيهـما على شرع إلهي . فنكـر عليهـا الإسلام نذرها . قال تعالى :

﴿مــا جعــل الله من بحــيرة ولا سائبــة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ وقال: ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ . وعن ابن عمر انه قال: أولم ينهـوا عن النـذر ان النبي ﷺ قال: ان النـذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخيل . أخرجه الشيخان وغيرهما.

الغرض من نذر المجازاة وحكمه

ونـذر المجـازاة لا يخلو إمـا أن يعتقد الناذر ان له دخلاً في تحقيق ما علقـه عليـه أولا . وعلى الحـالـة الأولى حمل الخطابي في «معالم السنن» حديث ابن عمـر فقـال: «وجـه الحـديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمر لا يجلب لهم العـاجـل نفعـاً ولا يصرف عنهم ضراً ولا يرد شيئاً قضاه الله . يقـول فلا تنـذروا على أنكم تدركـون بالنـذر شيئـاً لم يقـدره الله لكم أو تصرفون عن أنفسكم شيئاً جرى القضاء به عليكم» . (٤ : ٥٣) .

وعلى الحالة الثانية حمله الباجي في المنتقى فقال: «إنما معنى ذلك أن تنـذر لمعنى من أمـر الـدنيا مثل أن تقول ان شفى الله مريضي أو قدم غائبي أو نجاني من أمر كذا أو رزقني كذا فاني أصوم يومين أو أصلي صلاة أو أتصـدق بكـذا . فهـذا المكـروه المنهى عنه» . (٣ : ٢٢٨) . وأباح ابن رشـد في المقـدمات هذه الحالة . وفي قوله وقول الباجي يقول خليل «وفي كره المعلق قولان» .

وذكـر القـرطبي في المفهم الحـالتين فنقل عنه الحافظ في الفتح أنه قال: «هـذا النهي محله أن يقـول مثلاً ان شفى الله مريضي فعليّ صدقة كذا . ووجـه الكـراهـة أنـه ما وقف فعـل القـربـة المذكور على حصول الغرض المذكور ظهر انه لم يتمحض له نية التقرب إلى الله تعالى لما صدر منـه بل سلك فيهـا مسلك المعاوضة . ويوضحه أنه لو لم يشف مريضه لم

يتصدق بما علقه على شفائه. وهذه حالة البخيل فانه لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض عاجل يزيد على ما أخرج غالباً، وهذا المعنى هو المشار إليه في الحديث بقوله: وإنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن البخيل يخرجه.

«قال: وقد ينضم إلى هذا اعتقاد جاهل يظن ان النذر يوجب حصول ذلك الغرض أو أن الله يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر. وإليهما الاشارة بقوله في الحديث أيضاً فان النذر لا يرد من قدر الله شيئاً. والحالة الأولى تقارب الكفر والثانية خطأ صريح قلت «هو الحافظ» بل تقرب من الكفر أيضاً.

«ثم نقل القرطبي عن العلماء حمل النهي الوارد في الخبر على الكراهة وقال الذي يظهر لي أنه على التحريم في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد. فيكون اقدامه على ذلك محرماً والكراهة في حق من لم يعتقد ذلك اهـ وهو تفصيل حسن». (١١ : ٤٩) وفي تفصيل القرطبي واستحسان الحافظ له شهادة أخرى لتفرقنا في التوسل بالذات والجاه بين العالم والجاهل.

النذر الشرعي والشركي

والخلاصة أن النذر المشروع لا يكون إلا لله، وأن المحمود منه ما لم يكن معلقاً على حصول غرض دنيوي، وأن المعلق منهي عن الاقدام عليه نهي تحريم أو كراهة وقد يؤدي إلى الكفر لكن بعد وقوعه يجب الوفاء به لحديث ابن عمر نهى رسول الله ﷺ عن النذر وأمرنا بالوفاء به رواه الطبراني في الكبير باسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، قاله في مجمع الزوائد. فان كان النذر للمخلوق من نبي أو ولي فهو شرك بالله في هذه العبادة يحرم الاقدام عليه والوفاء به معاً لحديث عمرو بن شعيب

عن أبيـه عن جده أن النبي ﷺ قال: «لا نذر إلا فيـما ابتغي به وجـه الله تعـالى». رواه أحمـد وأبو داود والبيهقي والطبراني وفي سند الطبراني عبد الله بن نافـع المـدني، ضعيف، وليس هو في سنـد أبي داود، ولحـديث عائشة عن النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»، رواه البخاري وأصحاب السنن.

نــذر العــوام

وقد أصبح الناس في جاهليتهم الحاضرة ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحيـاء والأمـوات والمزارات، الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخـور والأطعمـة وسائر المتمولات ويعتقدون أن نذرهم سبب يقربهم من رضى المنذور له وأن لذلك المنذور له دخلاً في حصول غرضهم. فان حصل مطلوبهم ازدادوا تعلقاً بمن نذروا له واشتدت خشيتهم منه وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له ولم يستسيغوا لأنفسهم التقصير أو التأخير كما استساغته جاهلية العرب في تعويض الغنم بالظباء. فالعرب مع أصنـامهم أقـل هيبة من هؤلاء مع أوليائهم وان تساوى الفريقان في حق من ألهـوه أكثـر من اعتبـار حق الالـه الحق. ذلك أن جاهليتنا على شدة اهتمامها بحق أوليائها منها من لا يبالي مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة أو بهما معاً. ومن صلى وزكى لا ينكر على تاركهما ما ينكره على من تراخى في زيـارة شيـخ طريقـة، أو اقـامـة زردة أو أداء وعـدة. وكذلك ما حكاه القرآن عن العرب في آياته: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ شركاء﴾.

وقـد جرّنـا الحـديث على الـزردات في الفصـل السابق إلى نقل أقـوال العلماء في نذور العـامـة، فأتينـا منها بما يكفي. ولكن لا نخلي هذا الفصـل منهـا فنثبت فيـه ما قالـه الصنعـاني في «سبـل السلام» زيادة في المقام. قال رحمه الله:

«وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام في تحريمها لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر انه ينفع ويضر ويجلب الخير ويدفع الشر ويعافي الأليم ويشفي السقيم وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأوثان بعينه فيحرم كما يحرم النذر على الوثن. ويحرم قبضه لأنه تقرير الشرك. ويجب النهي عنه وإبانة انه من أعظم المحرمات وأنه الذي كان يفعله عباد الأصنام لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وصارت تعقد اللواآت لقباض النذور على الأموات ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات، وينحر في بابه النحائر من الأنعام. وهذا هو بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام. فإنا لله وإنا إليه راجعون» (٤ : ٨٨).

معنى الغفارة

والغفارة بتخفيف الفاء ضرب من النذر بل أقبح ضروبه، وهي معروفة في عملي الجزائر ووهران أكثر منها في عمل قسنطينة، وبيانها أنها وظيفة مالية يلتزم امرؤ بأدائها كل سنة لمن اعتقد فيه جلب منفعة أو دفع مضرة. وينسحب هذا الالتزام على ورثة الملتزم لورثة الملتزم له. وبطول المدة وانتشار النسل تصبح الغفارة ضريبة لقبيلة موصوفة بميزة دينية على أخرى منعوتة بالخدمة والطاعة لتلك. فيقولون هذه القبيلة يغفرها (بالتضعيف) أولاد سيدي فلان. يريدون أنهم يأخذون منها الغفارة. ويقول كل من القابض والمعطي لصاحبه: «أنت غفيري» وهي من الأول بمعنى خديمي، ومن الثانية بمعنى سيدي كما تطلق العرب المولى على الأعلى والأدنى معاً. قال الشاعر:

ولن يتساوى سادة وعبيدهم   على أن أسماء الجميع موالي

والغفارة مقررة بحكم الالتزام الأول عدداً ونوعاً من إبل أو بقر أو

غنم أو صوف أو سمن أو عسل أو غيرها . ثم السادة الغفراء قد تبقى غفارتهم بينهم على الشياع وقد يقتسمونها باقتسام من يودونها لهم قسمة انتفاع . فالقبيلة المؤيدة للغفارة كالأرض المحبسة والغفارة كغلتها .

منشأ الغفارة

ومنشأ الغفارة اعتقاد مؤديها أن لآخذها تصرفاً في الكون دفع به عنه مكروهاً أو أسدى إليه به معروفاً في نفسه أو في أهله أو في ماله . وبقدر تمكن هذا الاعتقاد الشركي في صاحبه يتمكن فيه الحرص على أداء الغفارات وان لم يكن ممن يؤدي الأمانات . ويقول بلسان حال أو مقاله ما بنا من نعمة فهي من الشيخ بسبب حسن قيامنا على عادته وما أصابنا من مصيبة فبإذن الشيخ لتقصيرنا في أمره وان لم نشعر بأصل التقصير . وهكذا قلبوا الآيتين : ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله ـ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله**﴾ .

عصر منشأ الغفارة

ولا أعلم الآن متى نشأت هذه الغفارة؟ وان كان من الضروري انها ولدت في ظلام الجهل وعصر الانحطاط الديني وحضنها رؤساء جهال بالدين ، لا يتميزون من العامة إلا بأوضاع ورسوم مخترعة ثم أقرها علماء اتخذوا علمهم أداة تقرب من أولئك الرؤساء وبضاعة ارتزاق من العامة ، واختنق بذلك صوت من كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ وهكذا وجدت أسباب الشرك وتعددت وتمكنت مظاهره وتمددت .

كيف حدثت الغفارة

ولا أدري كيف حدثت الغفارة؟ إلا أن ابن خلدون ذكر قبائل مستوطنة وطن الجزائر كانت قوية تأخذ لقوتها الحربية خفارة من أخرى

ضعيفة عن حماية نفسها من أعدائها. ولفظ الخفارة لا يفترق من الغفارة إلا بالحرف الأول وهو حلقي. وكثيراً ما تبدل حروف الحلق بعضها من بعض. وفي لسـانـنـا العامي «حراق الماء» بمعنى أراق وهراق. وما زالت الخفارة الحربية معروفة في بعض نواحينا ويقولون فيها الغفارة ويضيفونها إلى العظمـة أو الأعظميـة فيقولون: «غفارة الأعظمية» فالظاهر أن منشأ الغفـارة الـدينية من الغفارة الحربية، فإن الأسر الماجدة إذا ذهب الزمان بشـرفهـا الحـربي تنتحـل المجـد الديني وما كانت تأخذه بالسيف تصبح متطلبـة له بدعـوى التصـرف بالغيب. فالغفـارة بعـد أن كانت ضريبـة للقبـائـل الحـربية على من ضعف في ساحة الوغى أصبحت غفارة على من ضعف اتكاله على الله لمن ادعى العزة مع ربه بلسان الحال أو بلسان المقال. فكان أصلها الحماية من الأشرار وصارت للوقاية من الأقدار.

معنى الخفارة واجتماعها مع الغفارة

قال في الصحاح: «الخفير المجير». خفرت الرجل أخفر بالكسر خفـراً إذا أجـرتـه وكنت له خفـيراً تمنعه. قال الأصمعي وكذلك خفرته تخفيراً. وأنشد لأبي جندب الهذلي:

يخفرني سيفي إذا لم أخفر

قال: وتخفـــرت بفـــلان إذا استجـــرت به وسألتـه أن يكـون لك خفيراً. وأخفرته إذ نقضت عهده وغدرت به. ويقال أيضاً: أخفرته إذا بعثت معه خفيراً. قاله أبو الجراح العقيلي، والاسم الخفرة بالضم وهي الذمة. يقال وفت خفرتك. وكذلك المخفارة بالضم وبالكسر». وجعل في المصباح الخفارة مثلثة الخاء وفسرها بجعل الخفير. وهو معنى الغفارة فاتخـذت مع الخفـارة وزنـاً ومعنى بل مادة ولفظاً، فصح أن تكون حادثة عنها ابتداعاً.

حـكم الغفارة

ولم أرَ من تعـرض لحكم الغفـارة في كتـاب ولكن حكمها لا يخفى على من له إلمام بأصول الدين ووقوف على عقائد المشركين . ثم ما تقدم من المنقـول في حكم نذور العـامـة ، يتنـاولهـا تنـاولاً اخروياً ويدل على حكمهـا بفحـوى الخطـاب . والله الهـادي إلى سنن الصواب : ﴿**يا أيها النـاس اتقـوا ربكم واخشـوا يومـاً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾ .

٢٨ ـ اليمـــين

معنى اليمــين

اليمــين، والقسم، والحلف، ألفــاظ مترادفـة في الاستعـمال. وأصـل اليمـين اليد المقابلة للشمال من الانسان وغيره استعملت بمعنى الحلف لأنهم كانـوا كما في الصحـاح وغـيره إذا تحالفوا ضرب كل امرىء منهم يمينـه على يمـين صاحبه. قال ابن العربي في أحكامه: «وحقيقة اليمين ربط العقد بالامتناع والترك أوبالاقدام على فعل، بمعنى معظم حقيقة أو اعتقاد». (١ : ٢٦٥)

تعظيم العبادة وغيرها

فالحلف بالشيء يقتضي تعظيمه ومنع النفس من الفعل أوعزمها عليـه لمجـرد عظمة المحلوف به، والعظمة نوعان: أحدهما يختص بالله، وهي التي يشعـر بها المـرء ولا يعـرف منشأها ويرى لصاحبها عليه سلطة غير محدودة، وهي العظمة الغيبية. وثانيهما: ما يتصف به المخلوق وهي التي تنشأ عن أسبـاب معـروفة وتقتضي سلطة خاصة. وأسبابها المعروفة أمـا الكـمال الديني بالعبادة، فالولي عظيم لوقوعها منه، والمسجد عظيم لوقوعها فيه. وأما الكمال الدنيوي بالمال والأتباع كالتي يعرفها أهل الدنيا للملوك والأمـراء والأغنيـاء. وأمـا الشـرف الأصـلي وهـو ما للآباء على أبنائهم، والعظمة الغيبية تقتضي عبادة من وصف بها. والتي تحدث عن أسبـاب لا تقتضي عبـادة المتصف بها. ولما كانت العبادة لا تكون إلا لله كانت العظمة الغيبية لا تكون إلا له فمن اعتقدها فى سواه فهو مشرك.

وقـد عقـد القـرافي الفـرق الرابع والعشرين والماية لتمييز التعظيم

الخاص بالله من غيره. فنوعه إلى ثلاثة: الأول خاص بالله اجماعا كالتعظيم بالصلاة والصوم والحج والنذر واعتقاد الاسعاد والاشقاء والهداية والاضلال. الثاني غير خاص به اجماعاً كالتعظيم بالوجود والعلم ونحوهما فتقول في المخلوق هو عالم ومريد، وحي وموجود. وذلك باعتبار معنى عام من غير اشتراك في حقيقة اللفظ الثالث ما اختلف فيه وهو اليمين فهل يقسم بالخالق فقط أم يقسم بالمخلوق أيضاً؟

اليمين الشرعية

وقد عرفوا اليمين الشرعية على أنها خاصة بالخالق. فقال الحافظ في الفتح: هي توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة الله. ونحوه قال خليل: اليمين تحقيق ما لم يجب بذكر اسم الله أو صفته، وجاءت أحاديث في الحلف بالله وغيره.

ما جاء في اليمين

١ ـ فعن ابن عمر انه ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» أخرجه الشيخان.

٢ ـ وعنه أيضاً انه سمع رسول الله ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه.

٣ ـ وعن عكرمة ان عمر بن الخطاب قال: حدثت قوماً حديثاً، فقلت له: وأبي. فقال رجل من خلفي: لا تحلفوا بآبائكم، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ يقول: لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك، والمسيح خير من آبائكم. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وهو مرسل يتقوى بشواهده، قاله الحافظ في الفتح. (١١ : ٤٤٩)

٤ ــ وعن أبي هريرة انه ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون. أخرجه أبو داود والنسائي.

٥ ــ وعنه أيضاً انه ﷺ قال: من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق. أخرجه البخارى وأبو داود والنسائي.

٦ ــ وعن قتيلة (بالتصغير) (رضى الله عنها) أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون وإنكم تشركون: تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يقولوا ورب الكعبة، ويقولون ما شاء الله ثم شئت. أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والطبراني وابن منده، وصححه الحافظ في الاصابة. (٤ : ٣٨٩) وفى نيل الأوطار ان النسائي صححه.

٧ ــ وعن ابن عمر أنه ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق. ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله. رواه ابن ماجه بسند حسن.

٨ ــ وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره وأنا صادق. أخرجه الطبراني في الكبير موقوفاً عليه. ورجاله رجال الصحيح.

الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله

قال الحافظ في الفتح: «وقال ابن المنذر: اختلف العلماء في معنى النهي عن الحلف بغير الله، فقالت طائفة هو خاص بالايمان التي كان أهل الجاهلية يحلفون بها تعظيماً لغير الله تعالى كاللات والعزى والآباء.

فهذه يأثم الحالف بها، ولا كفارة فيها. وأما ما كان يؤول إلى تعظيم الله كقوله: وحق النبي والاسلام والحج والعمرة والهدي والصدقة والعتق ونحوهما مما يراد به تعظيم الله والقربة إليه فليس داخلاً في النهي. وممن قال بذلك أبو عبيد وطائفة ممن لقيناه. واحتجوا بما جاء عن الصحابة من ايجابهم على الحالف بالعتق والهدي والصدقة ما أوجبوه مع كونهم رأوا النهي المذكور. فدل على أن ذلك عندهم ليس على عمومه اذ لو كان عاماً لنهوا عن ذلك ولم يوجبوا فيه شيئاً. انتهى.

«وتعقبه ابن عبد البر بأن ذكر هذه الأشياء وان كانت بصورة الحلف فليست يميناً في الحقيقة، وإنما خرج على الاتساع، ولا يمين في الحقيقة إلا بالله.

«وقال المهلب: كانت العرب تحلف بآبائها وآلهتها فأراد الله نسخ ذلك من قلوبهم لينسيهم ذكر كل شيء سواه، ويبقى ذكره لأنه الحق المعبود فلا يكون اليمين إلا به، والحلف بالمخلوقات في حكم الحلف بالآباء». (١١: ٤٥٣).

حكم اليمين بغير الله

والذي لابن رشد في «المقدمات» تقسيم اليمين باعتبار حكمها إلى مباحة وهي ما كانت بالله، وإلى مكروهة وهي ما كانت بغيره، وإلى محظورة، وهي ما كانت باللات والعزى والطواغيت وكل ما عبد من دون الله. وحكى الدردير في شرح المختصر قولين بالحرمة والكراهة في الحلف بالمعظم شرعاً، كالنبي والكعبة وجزم بالحرمة فيمن لم يستحق التعظيم شرعاً. وقال الأمير في مجموعه الذي هو كتهذيب وتكميل للمختصر: «وحرم حلف بغير الله إلا أن يعظم شرعاً كولي فيكره. وان

قصد بكالعزى التعظيم فكفر» . ونقل الحافظ في الفتح عن بعض أهل العلم أن من اعتقد في المحلوف به من التعظيم ما يعتقده في الله كان كافراً بذلك الاعتقاد. وان اعتقد فيه من التعظيم ما يليق به فلا يكفر. (١١ : ٤٥٠). وما نقله الحافظ تشهد له عباراتهم في تقييد التعظيم بالشرع لأن معنى ذلك القيد أن يكون المعظم يستحق التعظيم في الشرع وان يكون التعظيم سالما من الافراط المحظور مقتصرا فيه على الحد المشروع.

تحرير حكم اليمين بغير الله

وخلاصة هذه النقول ان الاختلاف في حكم الحلف بغير الله إنما هو مع سلامة الحالف من تعظيم المخلوق تعظيماً من نوع تعظيم الخالق، وان النهي حينئذ من فطام النفوس عن مألوفاتها الوثنية بالنظر لمن نشأوا في الجاهلية ومن سد الذرائع بالاضافة إلى من نشأوا في الاسلام. فأما ان حل بالقلب تعظيم المخلوق كتعظيم الخالق فجرى اللسان لذلك بتلك اليمين وخشيت النفس في الحنث بها ما تخشاه في الحنث بالله، فهذه اليمين مظهر من مظاهر الشرك لا نزاع في ذلك ولا شك.

حالة العوام فى أيمانهم

نهى الرسول (ﷺ) عن الحلف بالمخلوق فأبى أكثر الناس الا الحلف به. وأغلظ في النهي حتى بلغ به نهي الشرك والكفر فأجروا هذه اليمين على ألسنتهم أكثر من اليمين بالله. وأمر من حلف بالله أن يصدق. فتلاعبوا باليمين الشرعية واحترموا اليمين الشركية. وأمر من حلف له بالله أن يرضى ويكل أمر الحالف إلى الله. . فلم يطمئنوا الا

للحلف بأوليـائهم. وهكـذا تراهم يعظمـون الأيـمان بأوليائهم ويخشون الحنث فيهـا أكثـر من تعظيم اليمـين بالله وخشية الحنث فيها. فيحلفون بالله كاذبين في استخفاف وعدم مبالاة ولا يقتنعون بيمين من حلف لهم بالله ولا يكتفـون بها، ولا يقـدمـون على الحلف بمـرابطيهم وشيـوخ طرقهم كذباً ولا يكذبون من حلف بهم، بل يمتقع لون الواحد منهم إذا حاول الحلف بهم أو سمع من أسرع إلى ذلك الحلف. وكم بلغنا أنهم يستحلفـون بالله على الشيء فيسـرعون إلى الحلف على خلاف الواقع ثم يستحلفـون بشيـوخهم أو آبـائهم على ذلـك الشيء نفسـه فتخرس ألسنتهم وتجف ارياقهم ويعترفون بكذبهم في اليمين بالله ولا يستحون. يا لله للمسلمـين: ﴿الـذين ضل سعيهم في الحيـاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. وليست هذه الحالة المنكرة خاصة بعصرنا أو مصرنا.

قال الشـوكـاني في «نيـل الأوطـار» عقب ذكـر مفـاسد البناء على القبور: «وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجـراً. فإذا قيـل له بعـد ذلـك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعـترف بالحق. وهـذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال أنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة.

«فيـا علماء الـدين ويا ملوك المسلمين. أي رزء للإسلام أشد من الكفـر؟ وأي بلاء لهذا الـدين أضـر عليه من عبادة غير الله؟ وأي مصيبة يصـاب بها المسلمـون تعـدل هذه المصيبـة؟ وأي منكر يجب إنكاره ان لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً؟» (٤ : ٧٢)

وقد بقي علينا أن نعرف وجه ما جاء في الكتاب والسنة من القسم بغير الله. ففي الكتاب الاقسام بالطور والنجم والشمس والقمر والليل والنهار وغيرهن، وثبت أنه (ﷺ) قال: «أفلح وأبيه ان صدق». أخرجه أبو داود وغيره.

حكمة ما في الكتاب من الاقسام بالمخلوق

فأما ما ورد في الكتاب فقال الأمير في حاشيته على مجموعه: «وإقسام الله تعالى بالنجم ونحوه لأن له أن يقسم بما شاء وبأسراره التي يعلمها في أفعاله تنبيهاً على عظمتها ولسريان سر الحق فيها من غير حلول ولا اتحاد فانها مظاهره مع تنزهه كما يُعلم».

وفصّل محمد عبده هذا المعنى أول سورة النازعات من تفسير جزء عم فقال: «جاء في الكتاب العزيز ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء. والقَسَم إنما يكون بشيء يخشى المقسم إذا حنث في حلفه به أن يقع تحت المؤاخذة نعوذ بالله أن يتوهم شيء من هذا في جانب الله. وما كان الله جل شأنه يحتاج في تأكيد اخباره إلى القسم بما هو صُنع قدرته. فليس لشيء في الوجود قدر إذا نسب إلى قدره الذي لا يقدره القادرون. بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده إلا أنه انبسط عليه شعاع من أشعة ظهوره جل شأنه.

«ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذي اختص به القرآن: وكيف يوجد في كلام الله؟ فيجاب بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس، أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل عن موضع العبرة فيه وعمي عن حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه.

«فيقسم الله به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره، أو تعظيم شأنه في نفس من يحقره، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره، أو لقلب الاعتقاد في قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم».

وقد قفى رحمه الله على هذا البيان بتطبيق الجواب على بعض الأشياء المقسم بها كالقرآن ويوم القيامة والنجوم.

تأويل ما في السنة من الاقسام بالمخلوق

وأما ما ورد في السنة فقد أبدى فيه الخطابي في معالم السنن أربعة أوجه وزاد عليه الحافظ في الفتح وجهين آخرين. ونحن نقتصر على الوجهين الأولين في كلام الخطابي، وقد صدر في الفتح بثانيهما وذكر ان البيهقي جنح إليه وان النووي ارتضاه. (١١ : ٤٥٢).

قال الخطابي: «قوله ــ أفلح وأبيه ــ هذه كلمة جارية على ألسن العرب تستعملها كثيراً في خطابها تريد بها التوكيد، وقد نهى رسول الله (ﷺ) أن يحلف الرجل بأبيه فيحتمل أن يكون هذا القول منه قبل النهي. ويحتمل أن يكون جرى ذلك منه على عادة الكلام على الألسن وهو لا يقصد به القسم كلغو اليمين المعفو عنه، قال الله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾ الآية. قالت عائشة هو قول الرجل في كلامه: «لا والله، وبلى والله، ونحو ذلك» (١ : ١٢١).

لزوم التوبة من اليمين بغير الله

وبعد بيان وجه الاقسام في القرآن والحديث بغير الله وأنه ليس من نوع اليمين التي يراد بها توكيد العزم على الإقدام أو الامتناع والاحجام

لم يبق لمبتـدع متعلق بذلـك الاقسـام وتعين هجر الحلف بالمخلوق على كل مؤمن بآية ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ .

٢٩ ــ هــداة الشــرك وحمــاته

قــدم البدعــة وحــكمته

الحق والبـاطـل والإيـمان والكفر والسنة والبدعة والهدى والضلال والخير والشر، كل أولئك في البشر قديم لا يختص بعصر ولا بمصر وإنما يمتاز أحد الأزمنة أوبعض الأمكنة بغلبة أحد المتقابلين على الآخر. لأن لكل جهة دعاة إليها يدعون وهداة بها يهدون، وأنصاراً لها يحمون ﴿**كل حزب بما لديهم فرحون ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**﴾ ولذلك خلقهم.

هذا عصـره (ﷺ) أزهـر العصـور وهذه مدينته أكرم المدن لم يخلوا من المنافقين أحط أصناف المبطلين. وهذا جيل الصحابة وعهد الخلفاء الـراشـدين قد تلوثـا بالمبتـدعين، فقد حدثت البدع زمنهم من غيرهم. فكـانت على الجهـال ظلمة وفتنة وللأولى الألباب نوراً ورحمة. فمصيبة الجهـال فيهـا إنهـا قديمـة وهم يقـدسـون كل قديم ويـرون أن ما تقدم جيلهم من الأجيـال هو كمال خالص وخـير محض. وفـائـدة العلماء منها الاستنارة بآثار السلف في إنكارها والاستعانة بأنظارهم في تخليص السنة منها.

مصـــدر البدعـــة

ومصـدر الابتـداع في الإسـلام المنـافقـون والزنادقة. وأول بدعة تتصـل بالشـرك إنـما عرفت عن أحـدهم وهـو عبـد الله بن سبأ اليهودي وبدعته هي التظاهر باحترام آل البيت والتشيع لعلي كرم الله وجهه حتى

أتى في ذلك بما لا يتفق والاسلام، فطلبه علي في خلافته ليقتله ففر منه. وقد غرس أفكاره وتعاليمه في طائفة نسبت إليه فدعيت «السبئية». ومن بذوره نبتت الشيعة الباطنية والرافضة الاسماعيلية.

ابتداع الشرك بالغلو في التشيع

نقل في شرح الطحاوية (ص ٤١٧) عن أبي بكر الباقلاني أن من تعاليم الروافض وما يوصون به الدعاة قولهم: «يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلماً أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك. واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين، والتبري من تميم وعدي وبني أمية وبني العباس، وإن علياً بعلم الغيب يُفوّض إليه خلق العالم، وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة عند الدعوة اجابة ورشداً أوقفته على مثالب علي وولده رضي الله عنهم. انتهى». (كلام الباقلاني). وفي آخر العبارة غموض لعل سببه تحريف. وقد يظهر المعنى لو أن العبارة بعد لفظ أعاجيب الشيعة هي هكذا: فان لبى الدعوى اجابة وآنست منه رشداً أوقفته. وقد قدمنا في فصل علم الغيب نسبة ابن قتيبة ابتداع القول بعلم آل البيت الغيب إلى الرافضة أيضاً.

عجز الغلو في التشيع عن نشر الشرك

وقد كان ضلال الرافضة مكشوفاً للعامة والخاصة من الفرق الإسلامية. فكانوا ممقوتين في المجتمعات لا تروج لهم بضاعة في جميع الطبقات الا أن يجدوا غرة في بعض الجهات التي لا تعرف من الدين أكثر من التفلظ بالشهادتين أو صور العبادة المتكررة الفاشية.

مبدأ التصوف واستقامة المتقدمين عليه

ودب في الأوساط الإسلامية مبدأ التصوف على قدمي الافراط في

العبادة والتفريط في الدنيا. واشتمل كسائر المبادي على الصديق والزنديق. ولكن كان الغالب على رجاله العلم بالدين والصدق في العمل وموالاة السلف، فكانوا في الاعتقادات محدثين سلفيين أو متكلمين أشعريين وماتريديين وفي العبادات مالكيين أوحنفيين أو شافعيين أوحنبليين. واشتهر منهم أبو القاسم الجنيد. فانتسب إليه من بعده في آداب السلوك، وبهذا كان التصوف مرضياً عند أهل السنة لانتساب رجاله إلى الأيمة المرضيين كما قال صاحب الجوهرة:

ومـالك وسائر الأيمة كذا أبو القاسم هداة الأمة

اتحاد الباطنية بالصوفية ومظاهره

رضي الناس عن التصوف بذلك الانتساب واعجبوا بتقى رجاله وزهدهم أيما اعجاب. ثم غمرت الثقة بالألقاب، نقد ما في سير الصوفية من خطأ وصواب، فسال لعاب المبتدعين المنبوذين من هذه الثقة التي نعم بها المتصوفون، فاندسوا تحت هذا العنوان ولاسيما الرافضة التي كانت لها مطامع سياسية. وكان التصوف والرفض كلاهما في العجم أشهر وأكثر انتشاراً، فسهل لذلك الامتزاج بينهما، فتكون تصوف باطني استقل بقيادة العامة أوكاد واتقى بعموم الثقة في عنوان، التصوف ألسنة النقاد.

الحلول والاتحاد

١ ــ وكان من مظاهر اتحاد الرافضة الباطنية بالصوفية ظهور مذهب الحلول والقول بالاتحاد فقد كان ذلك معروفاً أولاً في الباطنية ثم ظهر على متأخري الصوفية، كابن عربي الحاتمي وابن سبعين وابن العفيف التلمساني وابن الفارض وغيرهم.

القطــب وحكومتــه

٢ ــ وقــال هؤلاء المتأخـرون بالقطب ومعنـاه رأس العـارفـين، ويـزعمـون أنه لا يساويه أحد في مقامه حتى يموت فيخلفه آخر. وذلك هو معنى الإمام المعصوم عند الرافضة. واخترعوا للقطب حكومة سرية وديواناً خيالياً. وذلك على نحو ما تحلم به الرافضة في انشاء حكومة على مذهبهـا. فحكـومـة القطب الغيبيـة ظل لحكـومة ذهنية يراد تحقيقها في الخارج على نحو «مؤتمر النهضة الاسلامية» الذي رسمه الكواكبي في أم القـرى، فحكـومـة القطب عند الخاصة منهم أمنية سياسية وعند العامة عقيدة دينية.

الابـــدال

٣ ــ وقـال متأخـرو الصـوفيـة بالأبـدال ورتبـوهم ترتيب الشيعة للنقبــاء. والأبــدال قد وردت فيهم أحـاديث بعضهـا تعـدهم ثلاثـين وبعضها تعدهم أربعين، ولا تخلو أسانيدها من مقال، وأحسنها حديث علي بن أبـي طالب عن رســول الله (ﷺ) . . . البــدلاء بالشــام وهم أربعـون رجـلاً كلما مات رجـل أبـدل الله رجـلاً مكـانه. يُستسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب. رواه أحمـد ورجـالـه رجـال الصحيـح غير شريح بن عبيد وهو ثقة. وقد سمع من المقداد وهو اقسم من علي قاله في مجمع الزوائد. (١٠ : ٦٢).

وقد بين الحديث ان كونهم أبدالاً لأن من مات منهم خلفه آخر. وما نسب إليهم من السقي والانتصار وصرف العذاب هو من باب رحمة الله للأشـرار بطـاعة الأخيار لا من باب التصرف في الكون. ففي مجمع الـزوائـد: «بـاب لولا أهـل الطاعة هلك أهل المعصية». وساق حديث

أبي هريرة عن النبي (ﷺ) مهلاً فان الله تبارك وتعالى شديد العقاب، فلولا صبيان رضع ورجال ركع وبهائم رتع صب عليكم العذاب لو أنزل عليكم العذاب. رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه وأبو يعلى بأخصر منه. وفيه ابراهيم بن خيثم وهو ضعيف (١٠ : ٢٢٧) وذكره بنحوه في كشف الخفاء (٢ : ١٦٣). ووصف رسول الله (ﷺ) الأبدال في حديث ابن مسعود بالسخاء والنصيحة للمسلمين أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد. ووصفهم في حديث أبي سعيد الخدري بسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة بجميع المسلمين كما في كشف الخفاء (١ : ٢٦). وأخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك المحجة بسنده عن أحمد بن حنبل أنه قيل له: «هل لله في الأرض أبدال؟ قال نعم. قيل: من هم؟ قال: ان لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فما اعرف لله أبدالاً». نقله في الحاوي (٢ : ٤٧١). فهؤلاء الأبدال هم الطائفة الظاهرون على الحق والمجددون للدين على رأس كل مائة سنة وليسوا أبدال الصوفية الذين يعتقد فيهم علم الغيب والتصرف في الكون والدلال على الله من غير أن يعرفوا بعلم واتقان عمل. بل من كمال الصوفية المتأخرين الرغبة عن العلم. ففي تذكرة الحفاظ للذهبي ان محمد بن محمد الفاشاني بالفاء من أهل القرن الخامس قال: «كنت إذا مضيت إلى أبي القاسم هبة الله بالرباط أخرجني إلى الصحراء وقال اقرأ هنا. فالصوفية يتبرمون ممن يشتغل بالعلم والحديث يقولون يشوشون علينا أوقاتنا» (٤ : ١٥).

لباس الخرقة واسناد الطريقة

٤ ــ واتخذ أولئك الصوفية شعارهم لباس الخرقة والباسها. وقالوا ان الحسن البصري لبسها من علي (رضى الله عنه) وتخصيص علي

بشيء في الدين هو من بدع الرافضة. وقد تقدم في فصل الذبائح غضبه (رضى الله عنه) على من اعتقد فيه انه (ﷺ) اسر إليه شيئاً وإنكاره عليه، وقوله: ما كان (ﷺ) يسر إلي شيئاً يكتمه الناس. قال في تمييز الطيب من الخبيث.

«حديث لبس الخرقة الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي قال ابن دحية وابن الصلاح انها باطل. ولذا قال بن حجر انه ليس في شيء من طرقها ما يثبت. ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي (ﷺ) ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه ولا أمر أحداً من أصحابه بفعل ذلك. وكل ما روى في ذلك صريحاً فباطل قال: ثم ان من الكذب المفترى قول من قال ان علياً ألبس الخرقة الحسن البصري فان أيمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلا عن ان يلبسه الخرقة». (ص ١٢٣) وقد حاول السيوطي في الحاوي إثبات سماع الحسن من علي. وليس ذلك بأولى من إنكار أيمة الحديث له، ثم هو لا يثبت الدعوى الخاصة التي هي لباس الخرقة.

وما زال الصوفية يتفننون في وضع الاسناد ليربطوا طرقهم بعظماء الزهاد وان اشتملت على ضروب من الضلال والفساد حتى جاء أخيراً أحمد بن سالم التيجاني فاختصر الاسناد وادعى أنه تلقى طريقته من خاتم الأنبياء من غير واسطة.

ثمرة اتحاد الباطنية بالصوفية

تلك مظاهر من اتحاد الصوفية بالرافضة. أما ثمرة هذا الاتحاد فهو توصل الرافضة إلى تحقيق ما عجزت عنه من تشويه محاسن الإسلام

وقلب تعاليمه. وان تعجب لسلامة الصوفية من سوء سمعة الرافضة مع اتحاد الفريقين فأعجب من ذلك أن تعلو كلمة الصوفية كلمة العلماء ويخصّوا بالفضل دونهم. والكتاب والسنة إنما جاءا بفضل العلم وأهله. وترى من هنا أن هذا التصوف سيف ماضي الحدين مؤثر بالجهتين. فجهة النقص فيه وهي اتحاده بالباطنية أثر فيها بالتغطية والتعمية حتى لم تشعر بها العامة، وتطاول الأمد فخفيت على كثير من الخاصة. وجهة الكمال في غيره وهي جهة العلم قلبها رأساً على عقب. فاستأثر بما للعلم من شرف وجعل أهله محل ريبة لا يوثق بدينهم الا بتوثيق شيوخ التصوف، وهم لا يوثقون من العلماء الا من سدل الستار عما في طرقهم من بدع ومنكرات. فأصبح يخطب وُدَّهم كل عالم طماع وكل محتال خداع، وانضافت إليهم هذه الجنود المرتزقة فكان جيش يهدد كل مرشد نصوح ومصلح إلى المعالي طموح.

جمعية العلماء والطرق الصوفية

وقد كانت «جمعية العلماء» لأول تكوينها تحتوي على أخلاط من هؤلاء الرهاط. يحضرون جلساتها لا خدمة لغايتها ولا اعانة لادارتها ولكن عينا عليها فاجرة تبلغ وتشي إلى «إدارة الأمور الأهلية». وما انقضى عام حتى انقضوا على من فيها من المصلحين المرشدين ليستبدوا بإدارة الجمعية دونهم. فعاملهم الله بنقيض مقصودهم. وخرجوا من الجمعية محاربين ولأغراض «إدارة الأمور الأهلية» منفذين. ولم يجنوا من تلك الحرب التي ليس وصيها من غرض هذه الرسالة إلا ما قاله قائدهم العامي الوقح: «نحن فلسناهم عند الحكومة وهم فلسونا عند الأمة» ومازالت نار حربهم تشب وتخبو. ومازالت سهامهم نحونا تطيش وتنبو.

ومـازلنـا بأمره تعالى عاملين وبوعده واثقين إذ قال: ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾. جعل الله عاقبة هذه الفتنة في خير الإسلام.

أصناف المحاربين لدعوة جمعية العلماء

ان رؤوس هاتـه الفتنـة من أبنـاء المسلمـين بين مدع للتصـوف ومنتسب للعلم ومنتصب للحكم ومفتخر بحمله للقرآن. وعن معاذ بن جبـل (رضى الله عنـه) أنـه (ﷺ) قال: اني أخـاف عليكم ثلاثـاً وهن كائنـات: زلـة عالم، وجـدال منـافق بالقـرآن ودنيـا تفتـح عليكم. رواه الطبراني في الثلاثة. وفيه عبد الحكيم بن منصور، وهومتروك الحديث. وعن عمـروبن عوف (رضى الله عنـه) أنـه سمع رسول الله (ﷺ) يقول إني أخاف على أمتي من ثلاث من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائـر. رواه البـزار، وفيـه كثير بن عبد الله بن عوف، وهومتروك، وقد حسن له الترمذي. قال ذلك في مجمع الزوائد (١ : ١٨٦، ١٨٧) وان لم تصح نسبة الحديثين إليه (ﷺ) لم تسقط حكمتهما، وقد قيل:

وهـل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبـار سـوء ورهبـانها

صـنف ادعيـاء التصـوف

أما ادعياء التصوف فليعلموا ان منهم صادقين وكاذبين، ولا يفيد كذبتهم الثنـاء على بررتهم كما لا يقـدح في فضـلائهم الانكـار على سفهائهم. وأين هؤلاء الادعياء من أصول الصوفية الأتقياء! قال سهل التستري: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسـول الله (ﷺ)، وأكـل الحـلال، وكف الأذى، واجتنـاب الآثـام،

والتوبة، وأداء الحقوق». نقله في الاعتصام (١ : ٦٨) والعروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية (١ : ١١١).

صنف المنتسبين إلى العلم

وأما المنتسبين إلى العلم فليسوا في مستوى واحد. وليس كل من أوتي العلم يرفعه الله درجات. وفي تفسير القرطبي عن أبي عبد الله سعيد بن يزيد الساجي: «خمس خصال بها تمام العلم. وهي معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، واخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فقدت واحدة لم يرفع العمل» (٦ : ٢٠٨). أين هذا ممن يتقربون إلى الحكام للسعاية بخدمة الاسلام ويضللون العباد عن سبيل الرشاد؟ وفي الاعلام بقواطع الاسلام للهيتمي: «وكذا يقطع بتكفير كل قائل قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة أو تكفير الصحابة». وتقدم في فصل الولاية الحديث في وعيد من يرتزق بالسعاية.

صنف المتصبين للحكم

وأما المتصبون للحكم فكثير منهم إنما حاربنا مدفوعاً بيد من يخشاه على منصبه. فنذكرهم بحديث «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». رواه أحمد والحاكم عن عمران بن حصين عنه (ﷺ)، ورواه أبو داود والنسائي بنحوه عن علي كما في كشف الخفاء (٢ : ٣٧٦).

صنف حملة القرآن

وأما المفتخرون بحمل القرآن فيا حبذا مفتخرهم لو لم يحملوه حمل بني اسرائيل للتوراة. ففي تفسير القرطبي عن أبي عمر بن عبد البر: «روي من وجوه فيها لين عن النبي (ﷺ) أنه قال: «من تعظيم جلال الله اكرام ثلاثة: الإمام المقسط، وذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن

غير الغـالي فيـه ولا الجافي عنه» قال أبو عمر: «وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون بها فيه» (١ : ٢٦). فمن حمل القرآن هذا الحمل فهو من المنعم عليهم يحق له الفخر بنعمته على معنى الشكر لها. والا فقد قال سهل التستري: «اجتنب محبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين» نقله في الحاوي. (٢ : ٣١٠).

وأغلب طلبة القرآن اليوم لا يطلبون من قراءته إلا حفظ ألفاظه ولا يعنيهم من حفظهم إلا الارتزاق بكتابتها للمرضى وسردها على الموتى. وكثيراً ما سمعنا الآباء الذين تكون بأبنائهم علة لا يستطيعون معها إذا كبروا مباشرة الأعمال الشاقة يقول أحدهم: ما بقى لابني إلا قراءة القرآن يكتسب قوته.

كتابة القرآن للمرضى وقراءته على الموتى

فأما كتابة القرآن للمرضى فقد تقدم في فصل التميمة قول أبي بكر ابن العربي: «وإنما السنة فيه الذكر دون التعليق». وأما قراءته على الموتى بأجرة فإن العلماء اختلفوا في هبة المطيع ثواب طاعته لغيره ولم يختلفوا في منع بيع الثواب لعدم تيقنه ولا في سقوط الثواب عند قصد العامل إلى الأجرة. ففي اعلام الموقعين عند الكلام على القراءة.

«والناس لهم قولان: أحدهما أن القراءة لا تصل إلى الميت فلا فرق بين أن يقرأ عند القبر أو بعيداً منه عند هؤلاء. والثاني: أنها تصل. ووصولها فرع حصول الثواب للقارىء، ثم ينتقل منه إلى الميت. فإذا كانت قراءة القاريء ومجيئه إلى القبر إنما هو لأجل الجعل لم يقصد به التقرب إلى الله لم يحصل له الثواب، فكيف ينتقل عنه إلى الميت وهو فرعه؟.. وانتفاعه بسماع القرآن مشروط بحياته فلما مات انقطع عمله

كله. واستماع القرآن من أفضل الأعمال الصالحة، وقد انقطع بموته. ولو كان ذلك ممكناً لكان السلف الطيب من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أولى بهذا الحظ العظيم لمسارعتهم إلى الخير وحرصهم عليه. ولو كان خيراً لسبقونا إليه». (٣: ٤٢٢).

وفي شرح الطحاوية: «وأما استئجار قوم يقرأون القرآن ويهدونه للميت فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أيمة الدين ولا رخص فيه. والاستئجار عن نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف. وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار عن التعليم ونحوه مما فيه منفعة تصل إلى الغير، والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله. وهذا لم يقع عبادة خالصة فلا يكون ثوابه ما يهدي إلى الموتى. ولهذا لم يقل أحد أنه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت.. ومن قال ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنه باعتبار سماعه كلام الله، فهذا لم يشع عن أحد من الأيمة المشهورين، ولاشك في سماعه ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه أو لكونه لم يزدد من الخير» (ص ٣٨٦، ٣٨٧).

وقد كانت مسألة القراءة على الموتى حديث المجالس في السنة الماضية لاثارة الصحف الدورية لها حتى أنه ليتكرر عليك السؤال عنها في مجلس واحد. وكان ملخص جوابي فيها أن كلام الله أرفع الكلام وأن تلاوته أفضل الأذكار، وأن الأذكار من أفضل العبادات وأن العبادات لا تكون إلا لله. وأن الله لا يقبل منها إلا ما وافق شرعه، وأن قبولها من المغيبات التي نجزم بحصولها. فمن أصر على التلاوة لمعنى حسن كمجاملة ولي الميت، فلا تجوز له الأجرة عليها، ولا الأكل من طعام فيه

حق القاصرين، ولا أخذ شيء على وجه الصدقة من غير اعتبار معاوضة على القراءة، لأن الواقع ان القارىء لولا الأجرة ما قرأ وأن ولي الميت لولا القراءة ما أعطى ذلك القارىء شيئاً. وهذا الواقع هوما نعلمه في أهل زماننا ولا نسد باب الاخلاص على من وفق إليه.

هداة الشرك وحماته

هذا حديثنا مع رؤساء هذه الفتنة نرجوبه نصيحتهم ببيان الحق لهم ولكنا نخص منهم شيوخ الطرق الصوفية بحديث آخر، إذ كانوا هم المشجعين لمن اتحد معهم في الغرض والمضللين لبعض من وقع معهم في هذا المرض. وقد بلغنا لما أعلنا نشر رسالة «الشرك ومظاهره» أنهم قالوا في مجتمع لهم: «لابد لنا من الدفاع عن الشرك» فكانوا أحق أن يسموا «هداة الشرك وحماته». وحديثنا الخاص بهم نجمله في أنهم جمعوا بين عز الألوهية وذل السؤال وبين غيوب الملائكة وعيوب الأبالسة وبين تشريع النبوة واباحية البهيمية، فاذا تشوفت إلى بعض التفصيل فانا نوجزه في نقط هي أهم ما حضرنا في الموضوع الآن.

البيعة والعهد والميثاق

النقطة الأولى انتصابهم للتوسط بين الله وعباده في قبول التوبة وأخذهم عليهم البيعة والعهد والميثاق بالطاعة لهم ولزوم الطريقة وخدمة الزاوية. ويفرضون مشيختهم على غيرهم بقولهم: «من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه»، يريدون شيخ الطريقة الذى يزار بالكراع والدينار: ويتشددون في التزام ميثاقهم ويبالغون في الانكار على من فارق طريقة إلى أخرى، ولكن شيخ الطريقة الأخرى يقبل المنتقل إليه بسرور. وقد كنت رأيت كتابا للتيجانية يحكم مؤلفه بردة من فارق طريقتهم وسمى كتابه «تنبيه الناس على شقاوة ناقضي بيعة أبي العباس».

ونحن نشرح كلمات البيعة والعهد والميثاق بالمعنى الديني كما بينه الـراغب في مفـرداتـه، ثم نقفي عليهـا ببيـان الحق فيـما أنـاطـوه بها من أحكـام. فبيعـة السلطـان ومبايعته التزام الطاعة له وعدم الخروج عنه. قال تعالى: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾. والعهـد حفـظ الشيء ومـراعـاته حالا بعد حال. قال تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهـد ان العهـد كان مسؤلا**﴾. وعهـد الله إمـا طبيعي وهوما ركزه في العقول، وإما شرعي وهوما أمر به في الكتاب والسنة، وإما وضعي وهو ما يلتزمه المكلف وليس بلازم له في أصل الشرع كالنذور. والميثاق عقد مؤكد بيمين وعهد. قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين**﴾.

والتوسط بين العبد وربه لقبول توبته والعفوعنه أصل من أصول كفـر اليهـود والنصـارى، جاء الاسـلام لرفعـه ونفيه كما سبق في الفصل العـاشـر. وليس لأحـد بعـد الـرسـول (ﷺ) أن يأخذ البيعة على أحد بطـاعتـه والتـوبـة إلى الله إلا أن يكـون سلطـانـاً يقـوم على جمع كلمة المسلمين وحفظ وحدتهم لاظهار قوتهم. وفي الحاوي للسيوطي «مسئلة: رجـل من الصـوفيـة أخذ العهد على رجل. ثم اختار الرجل شيخاً آخر وأخـذ عليـه العهـد. فهل العهد الأول لازم أم الثاني! الجواب: لا يلزم العهد الأول ولا الثاني ولا أصل لذلك» (**١ : ٣٣٦**).

شـيخ الطريقـة

وايجـابهم الشيـخ على النـاس صواب من الحكم وشـرحـه بشيخ الـزيـارة خطأ في الفهم. فان الشيـخ الـذي لابـد منـه هومن تسأله عن دينـك. قال تعـالى: ﴿**فاسألـوا أهـل الـذكـر إن كنتم لا تعلمـون**﴾. والـدين منـه ظاهـر يتعلق بالبـدن كصـور العبـادات، ومنه باطن يستقر بالقلب كتصحيح النيات. قال الشريشي:

وللشيـــخ آيـــات ، فان لم تكن له فما هو إلا في ليـالي الهـوى يسري
اذا لم يكـن لديــه علم بظــاهــر ولا باطن فاضـرب به لجج البحـر
وان كان الا انــه غير جامــع لوصفهـما جمعـا على أكمـل الأمر
فأقـرب أحوال العليل إلى الردى اذا لم يكن منها الطبيب على خير

وقـد نصـح ابن عاشـر باستصحـاب الشيخ وبـين صفتـه وفوائد صحبته فقال :

يصحب شيخـا عارفا المسالك يقيــه فى طريقــه المهـالـك
يذكـــره الله اذا رآه ويـــوصـل العبـد إلى مولاه

قال ابن الحاج في حاشيته : «ومفهوم قول الناظم ـ شيخا عارف المسالك ـ أن من ليس كذلك لا تطلب صحبته بل تجب مجانبته وهجرته لسـريـان دائـه للصـاحـب ومشـاركته له في سوء العواقب . ومن هنا حذر الناصحون من الدخول في الطريق في هذا الزمان والاستناد فيه إلى أحد ممن يظن أنه من أهل هذا الشأن لكثرة الغلط وفقد شيخ يلقي المرء إليه قياده ويقتفيه . بل لا ترى إلا المريدين المبطلين» قلت : الصوفي الجاهل مصدر الابتداع . فكل ما جاء في التحذير من البدعة وصاحبها تحذير من تصـوف هذا الـزمـان وشيـوخـه وعن معاذ بن جبل أنه (ﷺ) قال : «من مشى إلى صاحب بدعـة ليـوقـره فقـد أعان على هدم الإسلام» . رواه الطـبراني في الكبـير . وفيـه بقيـة ، وهـو ضعيف . قالـه في مجمع الزوائد (١ : ١٨٨) وذكره في الاعتصام عن عائشة (١ : ٥٠) .

ولي الطرقيـــين

النقطة الثانية حصر الولاية فيمن كان على شاكلتهم ومن ذريتهم ولـو كان حظـه من العلم الأميـة ومن العمل الأباحية . والمعتقدون فيهم

يجيبـون عن جهلهم بحـديث: «مـا اتخـذ الله من ولي جاهـل ولـو اتخذه لعلمـه»، ويـدافعـون عن منكراتهم بأن شريبهم إنما يشرب عسلا أو أنه يطفىء من نور الولاية الشديد غلتّه، وبأن زانيهم إنما زناه صورة خيالية يمتحن بها أهـل المـرأة ومبلغ عقيـدتهم فيـه ويعـبرون عن ذلـك بقولهم «الشيخ يفسد النية».

فأمـا أن الخمـر تعـود عسـلا فمن البـلادة الكثيفـة. وقد تقدم في فصل الذبائح عن الموافقات أن تناول المباح يتعين أن يكون على الوجه لا تشبه فيه بالمحظور. وأما أن الشريب يطفىء من نور الولاية فصحيح. وتكـرر ذلـك يخرج من ولاية الرحمان إلى ولاية الشيطان فلا ترى له نورا ﴿يـوم ترى المؤمنـين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم﴾ قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ وأما أن الزنا صورة خيالية فانكـار للحس وتـرويـج للديـاثـة. وأمـا الحديث فليس من كلام النبي (ﷺ) كما في كشف الخفاء (٣: ١٨٠) وتأوله في الفتاوى الحديثية من غير أن ينسبـه للرسـول بما لا يتفق ودعـواهم لهم إيثـار الجهـل على العلم. فقـال: «المـراد الجـاهـل بالعلوم الـوهبيـة والأحـوال الخفيـة لا الجـاهل بمبـادىء العلوم الظـاهـرة مما يجب عليه تعلمه فإن هذا لا يكون وليا ولا يراد للولاية مادام على جهله بذلك. بل إذا أراد الله ولايته ألهمه تعلم ما يجب عليه لأنه لا يمكن الالهام فيه» (ص ٩٣) وفي الحديث «إنما العلم بالتعلم» علقه البخاري في كتاب العلم، ووصله ورفعه ابن أبي عاصم والطبراني، وحسنه الحافظ في الفتح (١: ١٣١) ورواه البزار من حديث طويل رجاله موثقون كما في مجمع الزوائد (١: ١٢٩)، ولفظ الطبراني في الكبير عن معـاوية قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: يا أيها الناس إنـما العلم بالتعلم والفقـه بالتفقـه ومن يُردَ الله به خيرا يفقهّه في الدين،

وإنما يخشى الله من عباده العلماء، وفيه رجل لم يسم، وعتبة بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان وضعفه جماعة. قاله في مجمع الزوائد. وعن أبي حنيفة والشافعي «ان لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي» ذكره في كشف الخفاء (١ : ٢٢٣).

محاربة تعاليم الطرق لأصول الإسلام

النقطة الثالثة الترفع عن التكاليف الشرعية والترخيص لأتباعهم في اتباع أهوائهم وضمان الجنة للصادقين في خدمتهم.

الطيب بن الحملاوي

فمن الشائع عن الطيب بن الحملاوي وهو أخو عبد الرحمن نسباً وأدبا أنه أمر صاحبة نزل بقسنطينة أن تهيء له غداء في رمضان. فاستفهمته المرأة وهي مسيحية عن ذلك متعجبة فأجابها قائلا: «نحن نفرنو الدين على الناس». وكلمة نفرنو فرنسية استعربت إلى العامية يريدون منها معنى العطاء والتوزيع. والمقصود ان الدين ملك لهم يكلفون به الناس ولا يتكلفون به. ومن المعلوم عند الحنصالية وهي شعبة من الشاذلية أن شيخهم سوّغ لهم الملاهي وتمتيع النفس بما تشتهي. وكم قائل من الطرقيين لمن رضيه من خدامه «اذا تعرضت للنار يتعرض لها فخذي»، وكم شيخ نقل عنه ضمان الجنة لمن رآه ورأى من رآه إلى ثلاثة أجيال أو سبعة، ويوم النظرة معروف عند التيجانية.

يوم النظرة

وهو ان الشيخ أحمد بن سالم جمع أحبابه وهم مريدوه من صحراء وهران وغيرها، ووقف ــ بعين ماضي مسقط رأسه قرب الاغواط ــ على ربوة ووضع على رأسه قطعة ذهبية كبيرة ليُرى. ثم نادى في جموعه

بضمان الجنة لمن رآه إلى سبعة أجيال. قال في الموافقات: «ان كثيرا ليتوهمون أن الصوفية أبيح لهم أشياء لم تبح لغيرهم لأنهم ترقوا عن رتبة العوام المنهمكين في الشهوات إلى رتبة الملائكة الذين سلبوا الاتصاف بطلبها والميل إليها، فاستجازوا لمن ارتم في طريقهم اباحة بعض الممنوعات في الشرع بناء على اختصاصهم عن الجمهور. . . وهذا باب فتحته الزنادقة بقولهم: ان التكليف خاص بالعوام ساقط عن الخواص» (٢ : ٢٤٩).

وقال في الاعتصام: «ويحكى عن الشيعة انها تزعم ان النبي (ﷺ) أسقط عن أهل بيته ومن دان بحبهم جميع الأعمال، وانهم غير مكلفين إلا بما تطوعوا، وان المحظورات مباحة لهم كالخنزير والزنا والخمر وسائر الفواحش. وعندهم نساء يسمين النوابات يتصدقن بفروجهن على المحتاجين رغبة في الأجر وينكحون ما شاءوا من الأخوات والبنات والأمهات لا حرج عليهم ولا في تكثير النساء» (٢ : ٣٨).

وقال الهيتمي في الفتح المبين نقلاً عن أبي شامة من شيوخ النووي: ان من البدع السيئة الانتماء إلى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشائخ الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم. بل كثير من أولئك اباحية لا يحرمون حراما لتلبيس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة. فهم باسم الفسق أو الكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر (ص ٩٥).

ضمان الجنة

وقد ضمن الإسلام الجنة على الوصف لا على الاسم. وذلك الوصف هو الايمان الخالص والعمل الصالح في غير ابتداع. قال تعالى: ﴿**فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. وفي

صحيح البخاري وغيره عن سهل بن سعد الساعدي وغيره عن رسول الله (ﷺ): «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» وللحديث روايات تتبعها في كشف الخفاء (٢ : ٢٤٧، ٢٥٨).

وفي صيانة الإنسان عن أبي عقيل الحنبلي «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم» (ص ١٧٠).

وفي تذكرة الحفاظ للذهبي عن علي (رضى الله عنه) أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه: من لم يقنّط الناس من رحمة الله ولم يرخّص لهم في معاصي الله ولم يؤمّنهم مكر الله» (١ : ١٢).

من دعاوي الطرقيين

النقطة الرابعة كثرة دعاويهم الشنيعة مثل العروج إلى السماء، وجرهم الشمس مع الملائكة والاجتماع بالرسول (ﷺ) في كل وقت يقظة، وتصرفهم في العلماء بسلب العلم عمن غضبوا عليه منهم. ويعبرون عن ذلك بقولهم: «العلماء مصابح ونحن مراوح». وقد سبق في الفصل الثاني عشر حديث: ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً.

الحسين القشي

ومن الشائع عن الحسين القشي دفين قرية سيدي خليفة جنوب ميلة قوله: «بالحُرَيِّمْ ابْتاع سيدي ربي إلا فتشت على الدجال في السماء السابع وما لقيته»، والحريم بفتح الراء وتشديد الياء تصغير الحرام يمين السفهاء. ونسبته إلى الله اعتقاد بأن له صاحبةً تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. ونفيه لوجود الدجال تكذيب بما ورد فيه عن الرسول (ﷺ)،

ورقيه للسماء ردة كما في مختصر خليل وغيره، ومع ذلك فهو ولي مزور وذريته معظمة وإن كان المعظمون لهم قد يعظمون الكلاب تعظيمهم.

كلاب ابن الحملاوي

فقد تواتر ان كلاب عبد الرحمان بن الحملاوي هامت ذات سنة في عدة جهات فكان الناس يكرمونها بالذبائح والضيافات ولكنهم يؤلونها بانتزاع شعورها تبركا وزلفى.

اعتماد الطرقيين على الخرافات

النقطة الخامسة الاعتماد في دينهم على الخرافات والمنامات وما يربي هيبتهم في قلوب مريديهم من حكايات، ولا يتصلون بالعلماء الا بمن أعانهم على استعباد الدهماء والرد على المرشدين النصحاء بتأويل ما هو حجة عليهم وتصحيح الحديث الموضوع إذا كان فيه حجة لهم. قال أبو بكر بن العربي في العواصم: «ان غلاة الصوفية ودعاة الباطنية يتشبهون بالمبتدعة في تعلقهم بمشتبهات الآيات والآثار على محكماتها. فيخترعون أحاديث أو تخترع لهم على قالب أغراضهم ينسبونها إلى النبي (ﷺ) ويتعلقون بها علينا» (١ : ٩).

تأله الطرقيين

النقطة السادسة صرف قلوب الناس عن الله إليهم بالرجاء فيهم والخشية منهم والاعتماد في سعادة الدارين عليهم. وهذا تأله منهم واستعباد لأتباعهم. قال الحافظ ابن رجب في رسالة تحقيق كلمة الاخلاص:

«ان من أحب شيئاً وأطاعه وكان من غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه»

(ص ٧) . واستشهد لهذه القاعدة بنصوص من الكتاب والسنة تركنا نقلها اختصارا واكتفاء بما قدمناه في الفصول السابقة .

العربي بن حافظ

ويدل لتألّههم وتأليه الناس لهم دلائل كثيرة حالية ومقالية . قال العربي بن حافظ : «يارب أنت اشبح ونا نشبح وما خايف إلا على جهتك» : وهو أحد مشاهير المرابطين معاصر للحسين القشي بقاف بدوية وشين مشددة ، يسكن جنوب ميلة قرب العثمانية ولم يزل أحد أبنائه لصلبه حيا . ومعنى اشبح اضغط ، ومراده اظهار التبرم بالناس والتضجر منهم ، وأنهم أهل لكل ضغط الهي ، وانه مشارك للاله في هذا الضغط قاس فيه ، ولكن يخشى التخفيف من جانب الله . والمؤمن الراجي لرحمة الله يكون ذا رحمة ولا ينازع الله في شيء من أحكامه . ولا يعدم المتأولة وجها لستر ذلك الشرك العظيم . ولكن باخراجه من مراد المتكلم وفهم العامة التى هي رواية أمثال هذه الأقوال .

وقال شاعر عامي يخاطب الشيخ عبد القادر الجبلي من قصيدة :

يا لعرج ولدام الخير يا سيدي نيف عليه
وانحزنك ونديرالسير إلى ما درت مزية

تبليه الطرقيين للناس

النقطة السابعة بث الجمود في الناس وتلقيح غفلتهم ثم حثهم على زيارتهم والرحلة إليهم لاستدرار أموالهم ولاستغلال جمودهم وغفلتهم فمن أقوالهم الجارية : «سلم تسلم . سلم للرجال في كل حال . اعتقد ولا تنتقد . زوروا تنوروا» ، ومرادهم من الرجال الذين يسلم لهم ويعتقد فيهم من كان على مثل حالهم ــ لا علماء الدين ومن

كان من أهثل الغـيرة النـاصحين. والمقصود بالزيارة الجدود والمشاهد لا حلق العلم والمساجد.

ويـذكـرون عن النبي (ﷺ) أنـه قال: لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعـه.. ولهـذا الحديث صيغ وألفاظ. كلها كذب ولا أصل لها إنما هي من آثار عبدة الأحجار كما في كشف الخفاء (٢: ٥٢).

اسـتلاب الطرقيـين للأمـوال

وقـد مر في فصـل الـزيـارة ذكـر الوعيد الشديد على سؤ ال ما في أيـدي النـاس تكثـرا من الـدنيا وشأن شيوخ الطرق في الاستلاب ما في أيـدي النـاس عجـاب. ومما وقع وأنا بالاغواط أرشد الناس إلى ضلال هاتـه الطـرق أن أحـد شيـوخها ممن كان يتبرك بغبار سيارته اشتر ى دارا بسبعـين ألفـا وليس تحته فرنك منها. فخرج إلى من أَلِفَ منهم الاعتقاد فيـه وقـال لهم: الزاوية مدينة فاجمعوا لها ما تؤدي به الدين. فأجابوه ان لك أربـع ديـار، فإذا بعتهـا وبقيت الـزاويـة مدينـة فنحن مستعـدون لخلاصها من الدين فكان هذا الجواب أول ما طرق سمعه على خلاف هواه. مرابـط عرفنـاه فقيرا فلما اقبل الناس على زيارته أصبح غنيا يتودد بغناه إلى الحكام.

ولم تكن الصـوفيـة زمن القشـيري على هذا الـوصف في ابتـزاز الأموال من النساء والرجال ولو كانوا وكن في الفقر أحط مثال، ومع ذلك حذر منـه فقـال آخـر رسالته: «ومن شأن المريدين بل من طريقة سالكي هذا المذهب ترك قبول رفق النسوان فكيف التعرض لاستجلاب ذلك. وعلى هذا درج شيـوخهم وبـذلك نفذت وصاياهم. ومن استصغر هذا فعن قريب يلقى ما يفتضح به» ومن نظم الزمخري:

إني على ما أراكم لا أحـذرّكـم　　معـرة اللص والاكـراد والفسقـه
لكن أحـذرّكم من ينـبري لكمـو　　في هيئـة الـزهـد لكن همّه السرقه
صلاتـه الـرمـح والتسبيح أسهمه　　وصـومـه سيفه والمصحف الدرقه

هذا حديثنا عن صوفية الزمان هداة الشرك وحماته، وقد دعوناهم بالكتاب والسنة إلى الوفق، فأخذتهم العزة بالاثم، ولجوا في الشقاق **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾**.

ما يسأل عنه غدا

أيها المسلم إنك لست مسئولاً عن شيخ ورث المشيخة عن آبائه وجدوده أو اشتراها بعرضه ونقوده ثم هو ليس له من الفضل الا انه قد يفوتك في الجهل ويحسن دونك الدجل. ولكنك مسؤول عن ربك كيف كانت معرفتك به؟ وعن رسولك كيف كان جوابك له؟ وعن كتاب وسنة كيف كان عملك بهما؟ قال تعالى: **﴿حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ــ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ــ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون﴾**.

ويرحم الله القائل:

كلام الله عز وجل قولي　　وما صحت به الآثار ديني

٣٠ ـ إلى الـدين الخـالص

ابتداء الحرب على حكومة القطب

أول صحيفة دعت إلى تحرير الأمة من ضغط «ديوان الصالحين» هي صحيفة «المنتقد» سلف «الشهاب» وأعلنت في صدر أول عدد منها مبدأها الانتقادي. وأول استخفاف وسخرية بحكومة «القطب» وديوانه ما نشرتـه تلك الصحيفـة في عددها السادس من مقال لنا تحت عنوان: «العقل الجزائري في خطر». فاستاءت لها الدوائر الطرقية.

قصيدة العقبي وتأثيرها في الأمة

ولكن «أتى الـوادي فطم على القـرى» إذ حمل العـددالثـامن في نحره المشرق قـصيدة «إلى الدين الخالص» للأخ في الله داعية الاصلاح وخطيب المصلحـين الشيـخ الطيب العقبي أمـد الله في أنفاسه. فكانت تلك القصيـدة أول معـول مؤثـر في هيكل المقدسات الطرقية. ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطـرقيـة، الا من عرف العصـر الـذي نشـرت فيـه وحـالتـه في الجمود والتقـديس لكـل خرافـة في الوجود. وقد أحببنا أن نثبتها في هذه الرسالة لمناسبتها لموضوعها. فهاكها.

حالة موجبة للاستعبار وعظة موجبة للاعتبار

ماتـت الـسنّـة في هذي البـلاد — قُبر الـعـلم وسـاد الجهـل ساد
وفـشـا داء اعـتـقـاد باطـل — في سهـول القطـر طرا والنجـاد
عبـد الـكـل هواء شيـخـه . جده ، فضلوا وضـل الاعتقـاد

حكـمـوا عادتهـم في ديـنهـم دون شرع الله اذ عم الـفـسـاد
لسـت منهـم لا ولا مني همو ويـلهـم يا ويـلهـم يوم المعـاد
يوم يأتـي الخلق في الحشـر وقـد نشـروا نشـر فراش وجـراد
يوم لا تـنـفـعـهـم معـذرة ولظـى مأواهـم بئس المـهـاد
يصهـر السـاكن في أطبـاقهـا كلما احـرق منـه الجـلد عاد
وكـل الله بمـن حل بها جمع امـلاك غلاظ وشـداد
أكـلهم فيهـا ضريـع . شربهم من حميـم . لبـسهم فيهـا سواد
كلما فكـرت في أمـرهمو طال حزني وتـغـشـاني السهـاد

نصيحـة غـالية

أيهـا الأقـوام ان تبغـوا الهدى ما لكـم والله غير الـعـلم هاد
إنـني أنصحكم نصـح امـرىء ما له غير الـتـقـى والخـوف زاد
كلما ينـقص يومـاً عمـره خوفـه من هول يوم الحشـر زاد
ما زرعـتـم في غد تلقـونـه ليس يجدي ندم يوم الحـصـاد

اعتقاد نقي واتصاف به

أيهـا الـسـائـل عن معتقـدي يبـتـغـي مّنيَ ما يحوي الـفؤاد
إنـني لسـت بـبـدعـيٍّ ولا خارجـيّ دأبـه طول الـعـنـاد
يحدث الـبـدعـة في أقـوامـه فتـعـم الأرض نجـداً ووهـاد
ليس يرضـى الله من ذي بدعـة عمـلاً الا اذا تاب وهـاد
لسـت ممن يرتـضـي في ديـنـه ما يقـول النـاس زيـد وزيـاد
بل أنـا متـبـع نهج الالـى صدعـوا بالحق في طرق الـرشـاد
حجـتي الـقـرآن فيـما قلتـه ليس لي الا على ذاك اسـتـنـاد
وكـذا ما سنـه خير الـورى عدتـي وهـو سلاحـى والعتـاد

وبـذا ادعـو الـى الله ولي اجـر مشكـور على ذاك الجهـاد
منـكـمـو لا اسأل الاجـر ولا ابـتـغـي شكـركـم بله الـوداد
مذهـبـي شرع الـنبي المصطفى واعـتـقـادي سلفـيّ ذو سداد
خطـتي علم وفـكـر نظـر في شؤون الكـون بحث واجتهاد
وطـريـق الحق عنـدي واحـد مشـربي مشرب قرب لا ابتعـاد

اعتقـاد شـركي وبـراءة منه

لا أرى الأشيـاخ في قبضـتـهم كل شيء بل همو مثـل الـعـبـاد
وعلى كل من يدّعي غير الـذي قلتـه اثبـات دعـوى الاتحـاد
قال قوم سلم الأمـر لهم تكـن الـسـابـق في يوم الطـراد
تنـل المـقـصـود تحظى بالمنى وتـرى خيلك في الخيـل الجيـاد
قلت إني مسـلم يا ويحـكـم ليس لي الا الى الشـرع انقيـاد
قولـكـم هذا هراء أصـلـه ما روت هنـد ومـا قالت سعاد
انـا لا أُسـلم نفـسـي لهمـو لا ولا ألـقـي اليـهـم بالـقـيـاد
لسـت ادعـوهـم كما قلتم وقـد عجـزوا عن طرد بقٍ أو قراد
لسـت من قوم على أصـنـامهم عكـفـوا يدعـونهـا في كل ناد
كلما انـشـذ شاد فيـهـمـو قول شرك ذهـبـوا في كل واد
كم بنـوا قبرا وشـادوا هيـكـلا وصـروح الغي بالجهـل تشـاد
غرهـم من داهـنـوا في دينهـم وارتضـوا في سيرهم «ذرالـرمـاد»

سـوء أثـر الطرقيـة في المجتمع

انـني ألـعـنهـم مما بدا حاضـر فى افـكـه منهـمٍ وبـاد
وانـا خصـم لهم أنـكـرهـم كيـفـما كانـوا جميـعـاً أو فراد
علمـونـا طرق الـعـجـز ومـا منهمـو من لسـوى الشـر أفاد

طالمـا جدّ الـورى في سيرهـم وهمو كم صدّهـم طول الـرقـاد

السـيادة النافعـة

ان سادات الـورى قادتهـم بعـلوم ما حدا بالـركـب حاد
وهمو ردءي وعـوني نصـرتـي ووقـائي ما اعتـدت تلك العـواد
تلكـم الـسـادة ما صدهـم عن هدى دينهمـو في الحق صاد

ضـروب من البـدع

لسـت أدعـو غير ربـي أحـداً وهـو سؤلي ومـلاذي والـعـماد
ولـه الحـمـد فقـد صيرنـا بالهـدى فوق نزار وايـاد
فاعـبـدوا ما شئتمـوا من دونـه ما عنـاني منكمـو ذاك العنـاد
لسـت منـقـاداً إلى طاغـوتكم بظبي البيض ولا السمـر الصعاد
لم اطـف قط بقـبر، لا، ولا أرتجـي ما كان من نوع الجـماد
لسـت اكسـو بحـريـر جدثـاً نخـرت أعظمـه من عهـد عاد
لا أشـد الـرحـل أبغي حجـه قربـة تنـفـعـني يوم الـتنـاد
حالـفـاً كل يمـين أنـه سوف يقضي حاجتي ذاك الجـواد
لا أسـوق الهـدي قربـانـاً له «زردة» يدعـونهـا أهـل البـلاد

الزيـارة السـنية

وفـراري كلما أفظـعـني حادث يلبـسـني ثوب الحـداد
للذي أطـلب رزقـي دائـماً منـه اذ ليس لما يعطـي نفـاذ
واذا زرت أزر معـتـبراً بقـبـور مات من فيـهـا وبـاد
داعـيـاً ربـي لهم مسـتـغـفـراً راجيـاً للكـل في الخـير ازديـاد
والـذي مات هو المـحـتـاج لي هكـذا اقضي ولا اخشى انتقـاد

الدعـاء الشـركي

لا أنــادي صاحب القــبر أغث ... أنـت قطـب أنـت غوث وسنـاد
قائــماً أو قاعــداً ادعــو به ... ان ذا عنـدي شرك وارتــداد
لا أنــاديــه ولا ادعــو سوى ... خالــق الخـلق رؤوف بالـعـبـاد
من له أســماؤه الحـسنى وهــل ... أحــد يدفــع ما الله أراد؟
مخلصــاً ديــني له متــمــثــلاً ... أمــره لا أمــر من زاغ وحــاد

الاتكال على الكبير المتعال

حســبــي الله وحـسـبـي قربــه ... علمــه رحمـتــه فهــو المــراد

خاتمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

معنى المعروف والمنكر ومنزلة الأمر والنهي :

المعروف ما عرف الشرع حسنه ، فأمر به إيجاباً واستحباباً ودعا إليه دعاء طاعة وسنة . والمنكر ما نكره الشرع وحكم بقبحه ، فنهى عنه تحريماً أو تنزيهاً وحذر منه تحذير معصية أو بدعة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ملاك أمر الدين وصيانة حرمته بين المسلمين . والقيام بهما يحفظ عليهم علم الشريعة المنير للعقول ويبث فيهم المواعظ المحيية للقلوب . ومن خسر عقله بالجهل وقلبه بالغفلة فقد خسر نفسه وخسر الدنيا والآخرة ، ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ .

وقد جاءت الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فنقتصر منها على آية من آل عمران ، وحديث من صحيح مسلم ، وثان من صحيح البخاري . وتقدم في الفصل الرابع حديث ابن مسعود عند أبي داود .

١ ــ قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ .

٢ ــ وعن ابن مسعود أن رسول الله (ﷺ) قال : ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم انهم تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل . رواه مسلم .

٣ ـ وعن النعمان بن بشير (رضى الله عنهما) أنه ﷺ قال: مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة. فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو انا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وان اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا رواه البخاري.

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد أجمع المسلمون على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر. وقد يتعين على واحد إذا لم يستطعه غيره أو لم ير المنكر والتقصير في المعروف سواه، وقال ابن الحاج في حاشيته على صغير سيارة: «يتعين فرض الكفاية بالشروع فيه أي يصير فرض عين على الأصح حتى طلب العلم لمن ظهرت فيه قابلية من نجابة قاله سحنون خلاف ما عند المحلي». (١ : ١٠٠)، وما قاله في طلب العلم مثله في أحكام القرآن لابن العربي (١ : ١٢٢).

تأكيد حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فأما قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾. فقال النووي في شرح مسلم: «المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية، انكم اذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وز أخرى﴾. واذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه، فانما عليه الأمر والنهي لا القبول. والله أعلم».

وفي الدر المنثور: «وأخرج الترمذي وصححه، وابن ماجه وابن جرير والبغوي في معجمه، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾. قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا. سألت عنها رسول الله ﷺ قال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحاً مطاعا وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام، فان من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم» (٢: ٣٣٩).

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ويشترط للقيام بأمر المعروف ونهي المنكر شروط، أحدها: العلم بحكم الشرع في الفعل المأمور به أو المنهى عنه. ثانيها: أن يكون ذلك الفعل مما أجمع العلماء على حكمه أو اختلفوا فيه ولكن فاعله يعتقد القول بالمؤاخذة ويرتكبه مخالفة للشرع. ثالثها: أن لا يؤدي القيام بهذا الأمر إلى محظور أشد. واختلفوا في شرط رابع وهو ظن الافادة، فاعتبره من قال:

معرفة المنكر والمعروف — والظن في افادة الموصوف
والأمن فيه من أشد النكر — كقتل شخص في قيام الخمر

ولم يعتـبره جمع من العلماء منهم النـووي ، قال في شرح مسلم : «قـال العلماء رضي الله عنهم : ولا يسقـط عن المكلف الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر لكـونـه لا يفيـد في ظنـه ، بل يجب عليـه فعله . فان الذكرى تنفع المؤمنين . وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول وكما قال الله عز وجل ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ .

مطالبة المقصر في طاعة غيره بها :

ولم يشـترطـوا للقيـام بهذه المهمة أشياء أحدهما الاستقامة ، فعلى المخل بالشيء أن يأمر غيره به .

حرية الوعظ والارشـاد :

قال النووي : «فانه يجب عليه شيئان ، أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهـاه فاذا أخـل بأحدهما ، كيف يباح له الاخلال بالآخر» . ثانيها الـولايـة للأمـير ، فعلى غير المتولي القيام بهذا الشأن . قال النووي عن امام الحرمين : «والدليل عليه اجماع المسلمين ، فان غير الولاة في الصدر الأول والعصـر الـذي يليـه كانـوا يأمـرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكـر مع تقـريـر المسلمـين إيـاهـم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية ، والله أعلم» . ألا فليعلم هذا من سعوا في منع العلماء غير المتوظفين من الوعظ بالمساجد ، وليعلمه من سرهم ذلك المنع ، وليعلمه المؤيدون للعلماء في الاحتجاج على ذلك المنع .

الشجاعة في الوعظ والارشـاد :

ثالثها الهيبة . فعلى غير المهيب أن ينكر على المهيب أو يأمره لخبر الـترمـذي وغـيره ، الا لا يمنعن رجـلاً هيبـة النـاس أن يقول بحق اذا

علمه، قال النووي في هذا المقام: «واعلم أن الأجر على قدر النصب» وساق من الآيات: ﴿**ولينصرن الله من ينصره ـ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾.

لزوم النصيحة في الوعظ والارشاد:

رابعها المحافظة على رابطة من صداقة أو حظوة. فعلى المرء أن يأمر صديقه وينكر عليه ولو خشي تغير قلبه عليه وسقوط حظوته لديه قال النووي: «فان صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً. ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها. وصديق الانسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وان أدى ذلك إلى نقص في دنياه. وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وان حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه. وانما كان إبليس عدواً لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها».

عناية السلف بالأمر والنهي:

وقد مرّ في كلام النووي التنبيه على عناية السلف بهذا الواجب الديني الاجتماعي وعدم مبالاتهم في تنفيذه بالأمراء. ومواقفهم في هذا الباب لا يتسع لها كتاب.

سعيد بن المسيب والدولة الأموية:

ولكني أقتصر منها على قصتين احداهما عن المطلب بن السائب، قال: «كنت جالساً مع سعيد بن المسيب في السوق فمر بريد لبني مروان. فقال له سعيد: «من رسل بني مروان أنت؟ قال: نعم! قال:

كيـف تركـت بني مران؟ قال: بخـير! قال: تركتهم يجيعـون النـاس ويشبعون الكلاب فاشرأب الرسول. فقمت إليه. فلم أزل أرجيه حتى انطلق. فقلت لسعيـد: يغفـر الله لك! تشيط بدمك؟ فقال: اسكت يا أحيمق، فوالله لايسلمني الله ما أخـذت بحقـوقـه». ذكـرها الذهبي في تذكرة الحفاظ (١ : ٥٢).

الأوزاعي والأمير العباسي :

ثانيتهـما عن الفـريـابي قال: اجتمع سفيان والأوزاعي وعباد بن كثـير بمكـة. فقـال سفيـان: يا أبا عمرو حدثنا حديثك مع عبد الله بن علي عم السفـاح. فقـال: لما قدم الشـام وقتـل بني أمية جلس يوماً على سريـره وعبى أصحـابه أربعة أصناف: صنف بالسيوف المسللة وصنف معهم الجزرة، وصنف معهم الأعمدة، وصنف معهم الكافر كوب، ثم بعث إلي فلما صرت إلى البـاب أنـزلـوني عن دابتي وأخذ اثنان بعضدي وأدخلوني بين الصفـوف حتى أقـاموني بحيث يسمع كلامي. فقال لي: أنت عبـد الـرحمن بن عمـرو الأوزاعي؟ قلت: نعم أصلح الله الأمـير. قال: ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: قد كان بينك وبينهم عهود وكان ينبغي أن يفوا بها. قال: ويحك اجعلني وإياهم لا عهد بيننا. فأجهشت نفسي وكرهت القتل. فذكرت مقامي بين يدي الله. فلفظتها, فقلت: دمـاؤهم عليـك حرام. فغضب وانتفخت أوداجـه واحمـرت عيناه فقال لي: ويحـك ولم؟ قلت: قال رسـول الله (ﷺ): لا يحل دم امـرىء مسلم إلا باحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه. قال: ويحك أو ليس الأمـر لنـا ديـانة؟ قلت: كيف ذاك؟ قال: أليس كان رسول الله (ﷺ) أوصى لعـلي؟ قلت: لو أوصى إليـه لما حكم الحكمـين. فسكت وقـد اجتمـع غضبـا. فجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يدي. فقال بيده

هكـذا أومى أن أخـرجـوه. فخـرجت فما أبعـدت حتى لحقني فارس. فنزلت وقلت: وقد بعث ليأخذ رأسي أصلي ركعتين. فكبرت فجاء وأنا أصـلي. فسلم وقـال: ان الأمير بعث إليك هذه الدنانير. قال: ففرقتها قبل أن أدخل بيتي». عن تذكرة الحفاظ (١ : ١٧١).

تقصير الخلف عن صراحة وشجاعة السلف :

ذلك موقف سعيد بن المسيب من كبار التابعين ومن فقهاء المدينة السبعـة، مع الأمـويـين في شبـاب دولتهم. وهـذا موقف ابن عمـرو الأوزاعي عصري الامام مالك وأحد الأيمة المجتهدين مع العباسيين في فجـر دولتهم وغلبـة الشره إلى الدماء عليهم. فوازن بين موقفهما وموقف رجـال الـدين الحكـومي مع الدولة الحاضرة وهي دولة مدنية بعد عهدها بأيـام الاحتـلال، ثم وازن بين تلك الصـراحة في الحق وبين ما سمعناه كثـيرا من قول رجـال الدين الحكومي: «وافق أو نافق أو فارق» يريدون وافق الحكام على أعمالهم ظاهرا وباطنا أو ظاهرا فقط أو اخرج من مملكتهم.

الحق أن الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر قد قل رجـالهـما منـذ قرون. فهـذا الامـام النـووي في القرن السابع قرن أيمة العلوم وحفاظ الحـديث، يشكـو ضيـاع هذا الواجب فيقول: «واعلم أن هذا الباب، أعني باب الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر قد ضيـع أكثـره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدا».

الانكار على الاحتجاج بسكوت العلماء :

أبعـد هذا يحتـج محتـج لتقرير بدعة بسكوت من يعرفه من العلماء عنهـا؟ على أن العلماء العـاملين لم يتـواطئـوا على السكوت وقد نقلنا في

هذه الرسالة من الأقوال ما تعرف به استمرار الانكار على البدع في كل زمان، وأن ما أنكرناه على أهل زماننا أنكره من قبلنا على أهل زمانهم، ولم ينفرد بهذه الخطة التقي ابن تيمية رحمه الله وان انفرد بالشهرة فيها.

الغرض من مواد بيان الرسالة :

وفيما يلي نثبت أسماء الكتب التي صرحنا بالنقل منها في صلب الرسالة إظهارا للصلة بين كلامنا وكلام المتقدمين. ونرسم أمام أغلبها تاريخ طبعه ليصحح من شاء نقلنا على نفس النسخة المنقول عنها، وإذا كان الطبع في غير مصر صرحنا بمدينته أيضاً، ونذكر وفيات مؤلفيها تقريرا لاستمرار دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتأكيداً للثقة بهم، ومن لم نقف الآن على وفاته أثبتنا تاريخ إتمامه لتأليفه ان أرخه.

ختم الرسالة بما فتحت به من تنزيه الله والصلاة على رسوله :

وقد انتهينا من تحرير هذه الرسالة في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

مــواد الرسالــــة

كتب متن اللغة وفقهها وأدبهـــــا

	الوفاة	الطبع
١ ـ تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري	٣٩٣	١٢٩٢
٢ ـ المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي .	٧٧٠	١٣١٠
٣ ـ القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .	٨١٧	١٢٨١
٤ ـ أساس البلاغة لمحمود بن عمر الزمخشري صاحب الكشاف .	٥٣٨	١٢٤١
٥ ـ الفروق اللغوية لأبي الحسن العسكري .	٣٩٥	١٢٥٣
٦ ـ الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوي الحنفي .	٣٩٥	١٢٥٣
٧ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد مات أوائل الخامس .		١٣٢٤
٨ ـ نظم التيسير في علوم التفسير لعبد العزيز الديريني .	٦٩٩	١٣٤٩
٩ ـ شرح المعلقات السبع للزوزني الحسين بن أحمد .	٤٨٦	١٣٥٤
١٠ ـ شرح القصائد العشر للتبريزي يحيى بن علي .	٥٠٢	١٣٥٢

كتب التفســـير وأحكام القرآن

١١-١٣ ـ تفسير البغوي الحسين بن مسعود وإسماعيل	٥١٦	
ابن كثير وفضائل القرآن .	٧٧٤	١٣٤٧

	الوفاة	الطبع
١٤ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي .	٩١١	١٣١٤
١٥ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري . ومعه .		
١٦ ـ الانتصاف من الكشاف لناصرالدين أحمدبن المنير .	٦٨٣	١٣٠٧
١٧ـ١٨ ـ تفسير فخرالدين الرازي محمد بن الخطيب	٦٠٦	١٢٩٤
وأبي السعود . ط . الاستانة .	٩٨٢	
١٩ ـ الجواهرالحسان لعبدالرحمن بن مخلوف الثعالبي . ط . الجزائر .	٨٧٥	١٣٢٧
٢٠ ـ فتح القدير تفسير الشوكاني محمد بن علي .	١٢٥٠	١٣٥١
٢١ ـ تفسير المنار للسيد رشيد رضا . مات عنه اثناء سورة يوسف .	١٣٥٤	١٣٥٤
٢٢ ـ تفسير جزء عم لمحمد عبده .	١٣٢٣	١٣٤١
٢٣ ـ الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي محمد ابن أحمد .	٦٧١	١٣٥٤
٢٤ ـ أحكام القرآن للجصاص أحمد بن علي الرازي . ط . الاستانة .	٣٧٠	١٣٣٨
٢٥ ـ أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن العربي .	٥٤٢	١٣٣١

كتب الحديث وفقه ورجاله

٢٦ ـ الموطأ : لأبي عبد الله مالك بن أنس .	١٧٩	١٣٤٨
٢٧ ـ شرحه المنتقى لسليمان الباجي .	٤٩٤	١٣٣٢
٢٨ ـ وشرحه للزرقاني محمد بن عبد الباقي .	١١٢٢	١٢٨٠

مواضيع الرسالـــة

فصلنا مواضيع الرسالة بفصول وميزنا مباحث كل فصل بعناوين مفردة